كلية الآداب بقنا
قسم التاريخ

تاريخ الأيوبيين والمماليك وجوانب من حضارتهم

الأستاذ الدكتور
إبراهيم علي السيد القلا
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية
وعميد كلية الآثار بصان الحجر
جامعة الزقازيق

الدكتور
حجاجي جابر عباس
مدرس التاريخ والحضارة الاسلامية
جامعة جنوب الوادي

بيانات الكتاب

الكلية: التربية بقنا

الفرقة: الرابعة عام تاريخ

التخصص: التاريخ

العام الجامعي: 2023-2024م

فهرس

المقدمة

الفصل الأول : سقوط الخلافة الفاطمية وقيام الدولة الايوبيه.

- حملة شركوه الأولى
- حملة شركوه الثانية .
- حملة شيركوه الثالثة .
- سقوط الخلافة .
- جهود صلاح الدين لتوحيد الجهة الإسلامية .
- الجفوة بين صلاح الدين ونور الدين محمود.
- موقعة حطين .

الفصل الثاني : الحملات الصليبية :

- الحمله الصليبية الثالثة.
- الحمله الصليبية الرابعة.
- الحمله الصليبية الخامسة.
- الحمله الصليبية السادسة.

الدولة الايوبيه بعد انتهاء الحمله السادسة

- الحمله الصليبية السابعة.
- نهاية الدولة الايوبيه

الفصل الثالث: قيام دولة المماليك:

- عهد المعز ايبك والأخطار التي واجهته.
- سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت.
- عهد الظاهر بيبرس وجهوده ضد الصليبيين والمغول

الفصل الرابع: دولة بنى قلاوون حتى نهاية دولة المماليك البحرية: (678-689/1279-1290م)

- المنصور قلاوون .
- الأشرف خليل بن قلاوون.
- أبناء الناصر محمد بن قلاوون وأحفاده

الفصل الخامس: دولة المماليك الجراكسه:

-قيام دولة المماليك الجراكسه.
السلطان الظاهر برقوق .
الناصر فرج بن برقوق.
الأشرف برسباي والاستيلاء على قبرص .
الظاهر جقمق ومحاولة الاستيلاء على رودس.

الفصل السادس: دولة المماليك الجراكسه بعد جقمق:

- الملك الظاهر خشقدم.
- الأشرف قايتباى المحمودى والدولة العثمانية .
- السلطان قانصوه الغورى .
- الأشرف طومان باى ونهاية دولة المماليك.

الفصل السابع: نظم الحكم والإدارة

السلطان - نائب السلطان – الوزير - ولاية الإقليم - الدواوين.

القضاة – الحبسه - أصحاب الشرطة.

الصور والأشكال.

المصادر والمراجع.

مقدمة

يعتبر التاريخ الأيوبي والمملوكي من أهم العصور التاريخية التي مرت على مصر والشام ، وهى أولى الفترات التاريخية بالدراسة والتحليل ، حيث يشغل جانب مهما من تاريخ العالم الإسلامي عامةً وجزأً كبيرا من تاريخ مصر والشام بصورة خاصة ، وإذا نظرنا إلى أهمية هذه الفترة نجد أننا متصلون بها اتصالا وثيقا في ثقافتنا وتفكيرنا والكثير من عاداتنا ، وعلى الرغم من أن العصر العثماني فصل بيننا وبين هذه الفترة ببضعة قرون ، فأننا مازلنا متأثرين إلى حد بعيد بالعصريين الأيوبي والمملوكي ، فمساجدنا وجوامعنا ومدارسنا وقلاعنا وكذلك أسواقنا وخاناتنا وقيسرياتنا معظمها أيوبية ومملوكية.

وإذا نظرنا إلى حياتنا الفكرية والعلمية نجد أننا نعتمد فيها إلى حد كبير على الكتب والموسوعات المؤلفة خلال تلك الفترة مثل كتب التاريخ والتراجم وأشهرها: كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير الذي ولد سنة 555هـ/1160م ، وتوفى سنه 630هـ/1232م ، وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ت:681هـ/1282م ، والمختصر في أخبار البشر لأبى الفدا ت: 722هـ/1322م ، وكتاب فوات الوفيات ، وعيون التواريخ لابن شاكر الكتبي ت: 764هـ/1362م ، وكتاب البداية والنهاية لابن كثير ت 774هـ/1372م ، وتاريخ ابن خلدون ت:808هـ/1405م ، والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن ت: 874هـ/1469م ، وكتاب الخطط والسلوك للمقريزى ت:845هـ/1441م.

وفى اللغة ومعاجمها ألفية بن مالك وشروحها ت :672هـ/1273م ، كتاب المعاني و البديع والبيان وترجع كلها إلي متن التلخيص الذي وضعه جلال الدين القزوينى ت: 739هـ/1338م ولسان العرب لابن منظور ت:711هـ ، والقاموس المحيط للفيروز أبادي ت: 817هـ/1414م ، ومختار الصحاح والمصباح المنير.

وفى الثقافة العامية نجد كتاب ونهاية الأرب للنويرى ت:732هـ ومقدمة ابن خلدون ت: 808هـ ، وصبح الأعشى للقلقشندى 821هـ/1418م.

ومن كتب الجغرافية والرحلات نجد كتاب قوانين الدواوين لابن مماتي ت:606هـ ، ورحلة ابن جبير، ورحلة عبد اللطيف البغدادي "الإفادة والاعتبار" ت:629هـ ، ورحلة بن بطوطة ت: 770هـ ، والتحفة السنية لابن الجيعان ت:885هـ وغيرها.

وتعد دراسة هذا التاريخ من الأهمية لأنه يتناول الصراع القائم بين قوى المسلمين في مصر والشام والجهود المبذولة لتوحيد الجهود الإسلامية وتكوين جبهة واحدة ، كما يمثل هذا التاريخ فترة حاسمة من التاريخ الإسلامي ، حيث شهدت معارك فاصلة غيرت مجرى الإنسانية ، كما شهدت موجات الصليبيين على بلاد المشرق بجانب الغزو المغولي للبلاد على يد "هولاكو" ، وغازان وتيمورلنك ، كما شهدت هذه الفترة تحرير الشام من بقايا الصليبين وتصفية الحروب الصليبية تصفية نهائية بالاستيلاء على جزيرة قبرص ، ومحاولة الاستيلاء على رودس.

وخلال هذه الفترة أيضا أكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح واتصلوا مباشرة بالهند دون الحاجة بالمرور بأرض الدولة الإسلامية.

هذا بجانب ما يمثله العصريين الأيوبي والمملوكي من مكانه مهمة في الحضارة الإسلامية ، فقد شهدت فترة حكمهم أزهى فترات الحضارة فتركوا تراثاً جما من العلوم والفنون والآثار المعمارية والمنشات الحربية والمدنية والتجارية ، ونالت الحركة العلمية الكثير من الاهتمام.

هذا بجانب اهتمامهم بشتى أنواع الصناعات التي شهدت تقدما كبيرا من تلك الفترة، كما شهدت الزراعة والتجارة ازدهارا كبيرا من خلال عناية السلاطين الأيوبيين ومن بعدهم المماليك بهما.

ولكل هذه الأمور السياسية والحضارية التي شهدتها البلاد في مصر والشام خلال العصريين الأيوبي والمملوكي ، كان من الضروري دراسة هذه الفترة التي تمثل صفحة مشرقة في تاريخ الإسلام عامة ومصر والشام خاصة.

وهذه مجموعة من الموضوعات التي يقف من خلالها القارئ على أهمية دراسة التاريخ السياسي والحضاري للأيوبيين والمماليك.

الأستاذ الدكتور

إبراهيم علي الدين السيد القلا

صلاح سليم طايع

الفصل الأول

سقوط الخلافة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية

حملة شيركوه الأولى

حملة شيركوه الثانية

حملة شيركوه الثالثة

سقوط الخلافة

جهود *صلاح الدين لتوحيد الجبهة الإسلامية*

الجفوة بين صلاح الدين ونور الدين محمود

موقعة حطين

ظهور الأيوبيين

من خلال دراسة موطن الأيوبيين الأصلي ونشأتهم الأولى ، تبين لنا أنهم أكراد الجنس ، فأسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب وهو الأكبر ، ابنا شاذي من "بلدوين" وهي آخر حدود أذربيجان بالقرب من تفليس ، وجميع أهل ذلك البلد من الأكراد الروادية أحد بطون الهذبانية[1].

غير أن الأيوبيين حاولوا الابتعاد عن الأصل الكردي والالتصاق بالدم العربي من ناحية ، والارتباط بأصحاب الأمجاد العالية من ناحية أخرى ، ومثال لذلك أن الملك المعز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب ملك اليمن (557-593هـ/1181-1169م) ادعى النسب لبنى أميه ، ولكن الملك العادل الأيوبي أنكر ذلك وساء فعله[2] .

ويذكر المؤرخ بن شداد أن صلاح الدين الأيوبي أنكر هذا الادعاء وقال: **"ليس لهذا الأصل وجود ، وفى نهاية الأمر فليس الأيوبيون عربا بالدم والجنس والأصل ، ولكنهم عرب باللغة والحضارة والتاريخ وفوق ذلك كله بالإسلام"**[3].

وليس معروفا التاريخ الذي انتقلت فيه الأسرة الأيوبية من موطنها الأصلي "دوين" ، غير أن بعض الرواة يرى أن شاذياً كان له صديق في تلك البلدة اسمه مجاهد الدين بهروز ، تولى شحنه "شحنكية" الحامية العسكرية ببغداد ، وذلك من قبل السلطان السلجوقى مسعود بن محمد بن ملكشاه ومنحه قلعة تكريت الواقعة على نهر دجلة إقطاعاً له ثم عين بهروز صديقه شاذي حاكما على تلك القلعة واستمر في وظيفته حتى توفى ، فرأى مجاهد الدين بهروز في ابنه نجم الدين عقلا ورأيا حسناً وحسن سيرة فولاه مكان أبيه[4].

وإذا أردنا تحديد ظهور الأيوبيين فسنجده يقترن برحيل شاذي وابنيه أيوب وشيركوه من دوين ، وكان ذلك قبل توالى بهروز شحنكية بغداد لأول مرة سنة 502هـ/ 1108م ، ولذا كان ظهور الأيوبيين في بداية القرن 6هـ/12م[5].

وفى سنة 526هـ/1131م هاجم عماد الدين زنكى أتابك الموصل بغداد مظاهراً للسلطان مسعود السلجوقى ضد الخليفة العباسي المسترشد بالله فوصل تكريت ، وهناك لقيه حاكمها نجم الدين أيوب ورحب به وقدم له السفن لتساعده وجيوشه في عبور نهر دجلة إلى الضفة الغربية ، وكان هذا الموقف سبب التعارف بين عماد الدين زنكى ونجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه[6].

ويقال أن أسد الدين شيركوه قتل رجل من العامة دون سبب قوى فأخرج بهروز أسد الدين ونجم الدين من قلعة تكريت ، فتوجها إلى عماد الدين زنكي بالموصل حيث رحب بهما وأحسن إليهما ردا لما فعلوه سابقاً وأقطعهما أقطاعات وافرة ، وانخرطا في سلك جنده وأبلوا بلاء حسناً في حروب زنكي ، ولما استولى زنكي على حصن بعلبك سنة533 هـ/1138م أسند قيادته إلي نجم الدين أيوب[7].

ولما سقط عماد الدين زنكي قتيلا سنة 541هـ/1146م على يد أحد غلمانه خلفه ولداه نور الدين محمود في حلب ، وسيف الدين غازي في الموصل ، وطمع مجير الدين أبق صاحب دمشق في بعلبك وطالب نجم الدين من سيف الدين غازي أن يتسلم منه بعلبك ، ولكن سيف الدين غازي كان مشغولاً بترتيب الممالك الشرقية فخشي نجم الدين أن تأخذ منه بعلبك عنوة فيناله أذى ، ومن ثم أضطر إلى تسليمها إلى مجير الدين صاحب دمشق ، فصار نجم الدين من أصحاب الحظوة عنده ، ومنحه منزلاً وإقطاعاً[8]، أما أسد الدين

شيركوه فصار في خدمة نور الدين محمود الذي قربه إليه ومنحه إقطاعاً وجعله مقدم عسكره ، وازدادت مكانته حتى كانت له حمص والرحبة وغيرهما[9].

وفى سنة 552هـ/1157م كان نور الدين قد اشتد عليه المرض فأوصى أن تسند ولاية دمشق لشيركوه ، ولما وردت الأخبار إلى شيركوه بشفاء نور الدين سارع بالنهوض من دمشق إلى ناحية حلب ، ووصل إليها في خيله واجتمع مع الملك العادل نور الدين فأكرم لقياه وشكر مسعاه ، وهكذا ظهر بنو أيوب على مسرح الأحداث في العالم الإسلامي من خلال قيام الدولة الأيوبية في مصر والشام[10].

الأحوال السياسية خلال العصريين الأيوبي والمملوكي

أولاً: سقوط الخلافة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية:

في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي والقرن السادس الهجري كانت الدولة الفاطمية خائرة القوى ، ويدل على ذلك نهاية كثير من الخلفاء بالقتل ، فضلا عن تحكم الوزراء العظام في شئون الدولة والخلافة .

وقد حدث أن مات الخليفة الظافر مقتولا سنة 549هـ/1154م فاستبد بالأمور في مصر الوزير طلائع بن رزيك - الأرمني الأصل - وكان الخليفة الفائز - ابن الظافر - طفلا صغيرا لا يمتلك من الخلافة إلا لقبها ، وعندما توفى الفائز وهو في الحادية عشر من عمره سنة 555هـ/1160م أقام الوزير طلائع في الخلافة الخليفة العاضد الذي كان هو الآخر صغيرا في السن ، مما مكن الوزير من اللهو بالخلافة واستعراض المرشحين لها استعراض الغنم على حد قوله[11] ، ولم يلبث أن أحس الخليفة العاضد بثقل ذلك فدبر مؤامرة مع الأمراء لقتل ابن زريك ونجحت المؤامرة وكان ذلك سنة 556هـ /1161م ، فخلف ابن زريك في منصب الوزارة ابنه العادل حتى قتله شاور حاكم الصعيد ، وتولى الوزارة بدلا منه سنة 558هـ /1163م ، ثم كان أن أستبد شاور بالأمور ، وساءت سيرته ، فخرج عليه ضرغام وأشتد التنافس بين الرجلين في الوقت الذي أخذ عموري الأول ملك بيت المقدس يتطلع لغزو مصر[12] ، والنزاع فيها قائم على قدم وساق ، والفوضى ضاربه في أطنابها ، وذلك من جراء الصراع العنيف الذي نشب بين أبى شجاع شاور وأبى الأشبال ضرغام حول منصب الوزارة ، وهو يومئذ أخطر منصب في الحكومة ، وقد أصبح منصب الوزارة منذ أيام الأفضل شاهنشاه محط أطماع قادة الجيش وكبار رجال الدولة،وفى سبيله قامت الحروب بين أنصار هذا الوزير وأنصار ذاك[13].

تطور التنافس بين شاور وضرغام إلى التنافس بين الفرنج ونور الدين محمود وذلك عندما طلب ضرغام من الصليبيين التدخل في شئون الدولة الفاطمية ، وأن يدفع لهم من الجزية السنوية مقابل مساعدتهم له ضد منافسه شاور وانتهى النزاع بأن تولى ضرغام الوزارة[14].

حملة شيركوه الأولى (559 هـ/1164م):

ونتج من هذا الصراع بين شاور وضرغام أن فر شاور إلى دمشق لاجئاً إلى نور الدين محمود سنة 558هـ/1172م ، وعرض عليه أن يمده بقوة عسكرية تعينه على العودة إلى منصب الوزارة في مصر ، وأن يدفع تكاليف الحملة كاملة وأن يؤدي إلى نور الدين محمود ثلث خراج مصر في كل عام ليستعين به على مواجهة الفرنج في الشام[15] ، وانتهى الأمر بموافقة نور الدين محمود على إرسال حملة بقيادة أسد الدين شيركوه لتساعده على تحقيق هدفه ، وكان نور الدين محمود يهدف من ذلك توحيد الجبهة الإسلامية استعدادا لمواجهة الخطر الصليبي وحماية مصر والشام من مطامعهم وصحب شيركوه معه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي ومعهم شاور ، ولما علم بذلك ضرغام أصابه الفزع إذ لم يكن الجيش الفاطمي في ذلك الوقت في حالة تمكنه من المقاومة أو إحراز النصر ، وأرسل ضرغام إلى عمورى ملك بيت المقدس يطلب مساعدته ضد شيركوه على أن يدفع له مبلغاً سنويا من المال ، وأن تصير مصر تابعة للصليبيين ، وقد وافقت هذه الدعوى هوى

عمورى إذ كان يطمع في مد نفوذه إلى مصر، ويعمل على عدم انفراد نور الدين محمود بالاستيلاء عليها[16].

أتخذ شيركوه طريقه إلى شرقي حصني الكرك والشوبك ثم إلى آيله (العقبة حالياً) ، ثم إلى صدر والسويس ومنها إلى القاهرة ، وتحت أسوار القاهرة دارت معركة عنيفة انتهت بهزيمة ضرغام ، ولقي مصرعه عند مشهد السيدة نفيسة في رجب سنة 559هـ/ يونيو 1163م وذلك بعد أن تخلى عن ضرغام جميع الأعوان ، والناس والجيش ، والخليفة ، ودخل شاور منتصرا ومعه شيركوه وأعيد إلى منصبه في الوزارة[17].

ولما تحقق لشاور هدفه ، وتوطدت أقدامه في الوزارة ظهرت منه بوادر الغدر بالجيش النوري ، فخنث بوعده لشيركوه وماطل في الوفاء بوعده المالي المتفق عليه ، بل أقدم على أن يطلب منه الانسحاب بجيشه والعودة إلى الشام ، وآلم هذا التصرف مشاعر شيركوه وامتنع عن تنفيذ ما طلبه منه شاور ومضى بجيشه إلي بلبيس وتحصن بأسوارها واخذ يجمع الأموال بنفسه من أهالي بلبيس وغيرها[18].

وهنا فعل شاور ما فعله ضرغام من قبل إذ لجأ إلى الفرنجة واستنجد بعمورى وطلب منه إخراج شيركوه وجيشه بالقوة ، ووعده بأموال ضخمة إذا نجحوا في إخراج شيركوه من مصر[19].

ولعل شاور كان يستهدف من وراء ذلك الاستفادة من التنافس بين النوريين والفرنج والمحافظة على منصبه في الوزارة،وكذلك حماية البلاد من استيلاء أحد الطرفين عليها فقد لجأ إلى أسلوب المماطلة لكلا الطرفين لتحقيق ذلك.

رحب عمورى بذلك وأسرع بالخروج بجيشه إذ كان يخشى خطورة قيام اتحاد بين مصر والشام إذا نجح نور الدين في السيطرة على مصر فيصبح الصليبيين في هذه الحالة بين فكي نور الدين محمود فيطبق عليهم من الشمال ومن الجنوب[20]، ويعبر عن ذلك ابن واصل بقوله: **"إنهم خافوا خوفاً شديداً إذا ما تحقق ذلك وأيقنوا بالهلاك وأن بلادهم تستأصل"** [21]، فاجتمعت قوات عمورى وأسرع بالخروج بجيشه إلي مصر ، ولما بلغ نور الدين محمود توجه عمورى نحو مصر سار بعساكره إلى أطراف البلاد التابعة للصليبيين في بلاد الشام ليمنعهم من المسير لمصر ، فلم يمنعهم ذلك ، وتركوا في بلادهم من يحفظها من جيوش نور الدين ، وتوجه عمورى ببقية عساكره إلي مصر بعد أن استعان بالكثير من الفرنج الذين كانوا قد وصلوا لزيارة بيت المقدس[22].

وفور وصول عمورى اتصل بشاور واتفق على حصار شيركوه في بلبيس التي اتخذها شيركوه قاعدة له ، وتمكنوا من محاصرة شيركوه لمدة ثلاثة اشهر[23] ، وأحس نور الدين بما يهدد جيشه في مصر فبدأ يحكم الضغط على أملاك الصليبيين في الشام وأرسل الأعلام التي غنمها في معاركه معهم إلي شيركوه فأمر بتنصيبها على أسوار بلبيس ، وعندما رأى ذلك عمورى فكر جديا في الانسحاب والعودة إلي بلاده وانتهى الأمر بعقد اتفاق بين الطرفين وبمقتضاه يخرجان سويا من مصر في وقت واحد[24] .

وانتهى الأمر بخروج القوتين من مصر وسار أسد الدين شيركوه إلي الشام سالما ، وكان الفرنج قد وضعوا في الطريق رصدا للقبض عليه وقتله ، فعلم شيركوه بذلك ، فعاد بعيدا عن ذلك الطريق ولم يكن هذا نهاية الأمر بالنسبة لهذا التنافس بل كان بدايته إذ حاول

كل طرف الاستيلاء على مصر،والقضاء على الطرف الآخر وخاصة بعد أن عرفوا أحوالها وفائدة الاستيلاء عليها.

حملة شيركوه الثانية 562 هـ/1166م:

لماذا فكر شيركوه في الحملة الثانية على مصر؟

1. وضح له مدى ما بلغته مصر من سوء الحالة الاقتصادية ، ومدى ما بلغته من ضعف سياسي وعسكري.
2. وقف شيركوه على ما تتمتع به مصر من ثروة وفيرة ، وموارد بشرية هائلة ، تساعد من يستحوذ عليها في أمور عدة.
3. حقد شيركوه على شاور بعد أن ثبت غدره وعدم الوفاء بما التزم به[25].
4. إن الخلافة العباسية آنذاك حرصت على تشجيع أي محاولة من شأنها القضاء على الخلافة الشيعية في مصر ، ولهذا كتب الخليفة العباسي إلى جميع الأمراء يطلب منهم مساعدة شيركوه[26].

لما خرج شيركوه عقب حملته الأولى وعاد شاور إلى سيرته الأولى من الظلم وسفك الدماء ومصادرة الأموال ، حتى ثقلت وطأته على الخليفة العاضد الذي كتب إلى نور الدين محمود يستنجد على شاور ، وانه استبد بالأمر وظلم الرعية[27] ، فبادر نور الدين وشيركوه بالاستيلاء عليها بإرسال حملة سنة 562 هـ/1166م ومعه أيضا ابن أخيه صلاح الدين ومعهما جمعا من الأمراء[28].

تمكنت هذه الحملة من دخول مصر عن طريق ساحل البحر الأحمر من جهة الصعيد ونزل شيركوه بالجيزة وأقام بها نيفا وخمسين يوما وعسكر بالحوف الغربي حتى لا يتعرض لحصار مرة أخرى كما تعرض في بلبيس واستعد شاور للقتال بجمع المقاتلين وفى الوقت نفسه أرسل يستنجد بعمورى مرة أخرى فسارع عمورى على راس الجيش لملاقاة جيش شيركوه[29].

عز على شيركوه أن يستعين شاور بأعداء الإسلام ، فحاول أن يقنعه بان يكونا يدا واحدة ضد الفرنج ، غير أن شاور لم يكن يهمه سوى كرسي الوزارة ، فلم يستجب لشيركوه فبدا الفريقان يستعدان للقتال فاتجه شيركوه إلى الصعيد أما عمورى وشاور فقد عبرا النيل وتتبعا شيركوه، واشتبك الفريقان عند قرية البابين بالمنيا(قرب ديروط) وذلك سنة 562هـ/1166م[30].

وعلى الرغم من تفوق الفرنج وشاور من حيث العدد والسلاح فقد انتصر شيركوه في هذه المعركة وعادت فلول الفرنج وقوات شاور إلى القاهرة لتتجمع من جديد ، أما شيركوه فقد آثر أن يتوجه إلى الحوف الغربي استجابة إلى دعوة أهل الإسكندرية وليتخذها قاعدة له حيث رحب أهلها السنيون به لكراهيتهم للمذهب الإسماعيلي ، فترك صلاح الدين على رأس قسم من الجيش بالإسكندرية وسار هو على القسم الآخر من جيشه جنوبا لفتح بلاد الصعيد وجمع الأموال فسارع شاور وحلفاؤه الفرنج نحو الإسكندرية لمحاصرتها فدام الحصار حوالي أربعة شهور عانى خلالها صلاح الدين ورجاله كثيرا ، غير أن شيركوه سارع لفك هذا الحصار فاتجه نحو الشمال ليوهم شاور وحلفاؤه بمحاصرة القاهرة واضطر شاور والفرنج إلى رفع الحصار عن الإسكندرية والإسراع إلي القاهرة خشية أن يتجه

شيركوه في محاصرتها أو الاستيلاء عليها ، ولم يلبث شاور والفرنج أن أرسلوا إلى شيركوه يطلبون منه الصلح فأجاب طلبهم وعرض شاور على شيركوه أن يدفع له خمسين ألف دينار فأجابه إلى ذلك واشترطا أن يخرج الفرنج والنوريون من مصر،وأن تعاد الإسكندرية إلى تبعيتها للدولة الفاطمية[31] ، وافق الفرنج في الظاهر على ذلك غير أن عمورى عقد مع شاور معاهدة جانبية **كان من شروطها الآتي:**

1- أن يكون لهم بالقاهرة شحنه – حامية – صليبية.
2- أن تكون أبواب القاهرة بيد فرسانهم.
3- أن يؤدى شاور لعمورى أربعمائة ألف دينار مقدماً.
4- أن يكون للصليبيين مائتا ألف دينار سنويا من دخل مصر[32].

حملة شيركوه الثالثة على مصر:564هـ/1168م:

رحل شيركوه وعمورى عن مصر ، غير أن كل منهما كان يضع نصب عينيه ضرورة العودة للاستيلاء عليها ، وكانت للفرنج شحنه كما كانت أبواب القاهرة في أيدي الفرنج الذين استبدوا بالمصريين ، وأخذت الحامية الصليبية بالقاهرة تدرس أحوالها ورأت ضرورة عودة عموري للاستيلاء عليها ، وكاتبته في ذلك ، كما كاتبه جماعة من أعيان المصريين كانوا أعداء لشاور ، وبذلك تمهد الطريق أمام عمورى لغزو مصر ، فخرج عمورى على رأس الحملة التي جهزها سنة 564هـ/1168م واتجه إلي شرق الدلتا ثم وصل إلي بلبيس ، وتحصن أهلها داخل أسوارها وأبدوا مقاومة ، ولكنه تمكن من الاستيلاء عليها وانتقم من أهلها أشد انتقام لتصديهم له، واتجه عموري بعد ذلك فعسكر بقواته جنوب الفسطاط[33].

فزع شاور وأرسل إلى عمورى يسأله عن سبب مجيئه فجأة إلى مصر فأدرك سوء نواياه ، وأصابه الخوف والفزع وعمل على التصدي لهم فأتى بحامية الفرنج في مصر فقتل جماعة كبيرة منهم ، ثم بنى حصناً وحفر خندقا حول القاهرة وأمر بإخلاء الفسطاط من أهلها وإحراقها بقصد عرقلة زحف الفرنج نحو القاهرة[34] ، وظلت النار مشتعلة في الفسطاط أربعة وخمسين يوماً وأدرك شاور عجزه وضعفه وأن القاهرة لا محالة ستقع في أيدي الفرنج ، فلجأ إلى حيلة ، بأن أرسل إلى عمورى يذكر له مودته ومحبته ، وأن هواه معه وأنه يخشى علي البلاد من نور الدين محمود ، وعرض عليه الصلح مقابل مبلغا كبيرا من المال فأجابه عمورى بالموافقة على الصلح مقابل ألف ألف دينار(أي مليون دينار)[35] ، يحصل عمورى على جزء من هذا المبلغ مقدماً ويؤخر الباقي إلى حين الرحيل ورأى الفرنج عقد الصلح خوفاً من استيلاء نور الدين على مصر وأرسل إليهم شاور مائة ألف دينار وماطلهم في دفع الباقي خداعا ومكرا[36].

وكان الخليفة العاضد عندما رأى المصاعب تمسك ببلاده سير كتبه إلى نور الدين محمود مقابل منحه ثلث خراج مصر الذي وافق على إرسال حملة إلى مصر عين عليها قائده شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي والعديد من الأمراء ، ولما قرب أسد الدين شيركوه من الديار المصرية رحل الفرنج عنها،حيث خرج عمورى إلى بلبيس في 23 صفر سنة 564هـ/25ديسمبر1168م على أمل أن يباغت قوات شيركوه عند فاقوس وهي متعبة غير أن شيركوه تسلل إلى الجنوب من موضع عمورى متجنبا لقاءه حتى وصل إلى القاهرة فاستقبله أهلها مرحبين[37]

وبذلك فاتت الفرصة على عمورى وأحس بحرج موقفه فاضطر إلى الجلاء عن مصر راجعا إلى فلسطين ، ووصلت هذه الأخبار إلى نور الدين محمود فأمر بضرب البشائر في البلاد الإسلامية[38].

وصل شيركوه إلى القاهرة ودخل قصر الخلافة ، واجتمع بالخليفة العاضد ، وخلع عليه ، وأجريت عليه وعلى عسكره الجريات الكثيرة.

أدرك شاور أن بقاء أسد الدين شيركوه سيؤدي في النهاية إلى القضاء على نفوذه وسلطانه ، بل أن شاور أخذ يماطل شيركوه في دفع ثلث خراج مصر لنور الدين محمود ، وكذلك ماطله في منح المال والجرايات الممنوحة لعسكره ، وقرر شاور إقامة وليمة يدعو إليها شيركوه وقواده ثم يقبض عليهم فنهاه أبنه الكامل ، وقال له: **"والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرفن أسد الدين شيركوه"** ، فقال شاور: **"والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعاً"** فقال الكامل: **"صدقت ولئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج ، وليس بيننا وبين عودة الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على أسد الدين شيركوه"**[39].

انتهى الأمر بالتخلص من شاور ، وبالفعل تمكن صلاح الدين ومعه الأمير عز الدين جرديك من القبض عليه وقتله وكذلك ولده الكامل ، وبعد أن أرسل العاضد رسوله لشيركوه يأمره بقتل شاور وحمل رأسه إلى قصر الخلافة[40] .

لم يجد العاضد بين رجاله من يصلح للوزارة فاختار لذلك شيركوه ليكون وزيرا له ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش[41] ، فقبض على زمام الأمور في البلاد وأخذ يحقق بالتدريج أمل نور الدين محمود فبدأ يستبد بالسلطان دون الخليفة العاضد ولكن عاجلته المنية حيث توفى بعد شهرين من تولى هذا المنصب[42] ، فخلفه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي الذي تولى منصب الوزارة وتلقب بالملك الناصر وذلك سنة 564هـ/1168م[43].

لماذا اختار العاضد صلاح الدين وزيراً ؟

اختار الخليفة العاضد صلاح الدين لهذا المنصب دون غيره على الرغم من وجود أمراء عظام في الجيش النوري وقواد ذات كفاءة عالية مثل: عين الدولة الياروقى ، وقطب الدين ينال المنجي ، وسيف الدين على بن أحمد المشطوب الهكاري وشهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين الأيوبي.

وعلى الرغم من وجود هؤلاء الأمراء تم اختيار صلاح الدين لمنصب الوزارة للآتي:

- لحداثة سنه حيث أنه كان لا يتجاوز الثانية والثلاثون من عمره،ظناً من الخليفة العاضد أنه أقل رجال الجيش النوري خبرة بشئون الحرب والسياسة ، وبذلك يصير أداة سهلة وطيعة في يده أكثر مما كان عليه شيركوه ، ويستعين به في القضاء على بقية الأمراء النوريين في مصر وبذلك يكون قد تخلص من نفوذ نور الدين وخطر شاور جميعا.[44]
- اعترافا منه بالجميل لما قدمه عمه شيركوه ، ومشاركة صلاح الدين أيضا في القضاء على الفتن التي نشبت وتدخل بسببها الفرنج في مصر.

عمل صلاح الدين على تقوية مركزه عندما تولى الوزارة "حيث أنه لم يكشف عما بداخله سوى بعد أن صار وزيرا"[45]فعمل الآتي:

1- حجر على الخليفة العاضد بنفسه ، ومنعه من كل تصرف .
2- بدأ في استمالة قلوب الناس إليه بما يبذله من أموال وهدايا.
3- أنقص من إقطاع الأمراء المصريين وزاد من إقطاع الشاميين مما ساعد على ازدياد نفوذه وإضعاف نفوذ العاضد.
4- أخضع مماليك عمه شيركوه وأحكم قبضته على الجند.
5- أرسل له نور الدين محمود قوة جديدة من العسكر كان ضمنها أخيه شمس الدين تورانشاه بن أيوب.
6- تمكن من القضاء على الجند السودان الذين كانوا آخر سلاح أعتمد عليه العاضد[46] وبتولية صلاح الدين الوزارة الفاطمية تبدأ صفحة جديدة في تاريخ مصر.

الجفوة بين نور الدين محمود وصلاح الدين:

باشر صلاح الدين نفوذه في مصر بوصفه وزيرا للخليفة العاضد وفى الوقت نفسه تابعا لنور الدين محمود ونائباً عنه في مصر وكان يستوجب على صلاح الدين في ذلك الوقت أن يحدد موقفه مع نور الدين ، ويختار لنفسه أحد الطريقين ، إما أن يظل على ولائه له باعتباره ممثلا له في مصر ، وفى هذه الحالة عليه أن يتقبل أوامر سيده وقرار نقله في أية لحظه ، وإحلال غيره محله في مصر ، وإما أن يخرج على طاعته ويستقل بمصر وفى هذه الحالة يمكن أن تبقى له مصر إذا استطاع صد هجمات نور الدين.

ظل موقف صلاح الدين غامضا ، إذ أن نور الدين محمود اعتبره صراحة نائبا عنه ، على حين بعث صلاح الدين مباشرة إلى بغداد رسولا يحمل البشارة بسقوط الخلافة الفاطمية ، فصار يقرأها في سائر البلاد الإسلامية[71] ، ومن هنا بدأت الجفوة بين نور الدين محمود وصلاح الدين.

ومن مظاهر الجفوة بينهما أن نور الدين أرسل إلى نائبه صلاح الدين سنة 567 هـ/1171م يأمره بجمع العساكر والسير بها إلى حصن الكرك ومحاصرته ، ليجتمعا سويا لمنازلة الصليبيين والاستيلاء عليه[72] ، وتنفيذا لأوامر نور الدين محمود خرج صلاح الدين من مصر على رأس قواته ، وضيق الحصار على الحصن ، وكاد أن يفتحه ، ولكنه ما لبث أن رفع الحصار عنه عندما علم بمسيرة نور الدين إليه من دمشق لمساعدته ، وأرسل إليه كتابا يعتذر فيه عن القدوم وذلك بسبب أن الموقف في مصر غير مأمون العواقب ، وأنه يخشى انتفاض الفاطميين واضطراب البلاد أثناء غيابه ، ولذا فان الأمر يستدعى رجوعه إلى مصر ، فغضب نور الدين لذلك ، وعزم على دخول مصر وإبعاد صلاح الدين عنها[73].

أحس صلاح الدين أن علاقته بنور الدين تسير في طريق مسدود ولذلك عقد اجتماعا مع أهله وعشيرته وفيهم والده وخاله وسائر الأمراء واستشارهم فيما ينبغي عليه أن يفعله ليمنع نور الدين من القدوم إلى مصر ، فأشار عليه تقي الدين عمر ابن أخيه بالوقوف في وجه نور الدين ومحاربته[74]، ولكن أباه نجم الدين أشار عليه قائلا: " أنا أبوك وهذا شهاب الدين خالك ، أتظن من هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا؟" فقال: " لا والله لو رأيت أنا وهذا خالك أن نور الدين لم يمكننا إلا أن نترجل إليه ونقبل الأرض بين يديه ، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا " ، ثم خلا نجم الدين بابنه صلاح الدين وقال له: **"أنت جاهل قليل المعرفة تجمع هذا الجمع الكبير وتطلعهم على ما في نفسك فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك أهم الأمور إليه وأولاها بالقصد ولو قصدك لم تر معك من هذا العسكر أحد"** ، وأشار عليه أبوه بضرورة الامتثال إلي نور الدين ونصحه بأن يعتذر له ففعل ما أشار به والده عليه[75].

ونتيجة للنصيحة التي تلقاها صلاح الدين من والده أرسل في السنة التالية سنة 568هـ/1172م هدية إلى نور الدين محمود هي مجموعة من الحيوانات النادرة وذخائر وأمتعه انتقاها من مقتنيات القصر الفاطمي وطيب وعطر ومصنوعات أخرى ، فلما وصلت الهدية إلى نور الدين استقلها ، وعلى الرغم من ذلك فقد أظهر شكر صلاح الدين ، ووصف فضيلته ، وأشار علية بضرورة التعاون على تحصين ثغور الشام وشحنها بالجند والإمداد[76].

وكان السبب في هذه الجفوة أن نور الدين محمود ظل على توجسه من موقف صلاح الدين ومشاريعه وأراد أن يقف على حقيقة ما يجرى في مصر فأرسل وزيره موفق الدين خالد بن القيسوانى لعمل حساب مفصل لما استولى عليه صلاح الدين من قصور الخلفاء الفاطميين ، فقدم صلاح الدين البيانات المطلوبة وأحاطه علما بأموال الجند واقطاعاتهم والأموال التي تنفق على حكم مصر[77].

والجفوة بين نور الدين وصلاح الدين لم تكن مسالة خلاف شخصي ضيق بل مسألة جنوح من ناحية صلاح الدين لتأسيس دولة أيوبية سنيه بمصر أو اليمن أو بلاد النوبة ، بحيث تكون هذه الدولة مركز العمليات الحربية ضد الصليبيين وذلك بعد أن تخلص من جميع مشاكله الداخلية[78]

أما نور الدين محمود فأعتبر سوريا الموضع الأساسي التي ينبغي أن تجرى على أرضه منازلة الصليبيين ولم تكن مصر في نظرة إلا مصدرا للدخل ينفق منه على الجهاد[79]

ولذا رأى صلاح الدين ضرورة تكوين جيش جديد يبلغ من القوة ما يكفى لضبط أحوال أطرافها وتأمينها ، وأن ينفق كل ما لديه من الموارد لإتمام ذلك أولا[80].

أحس صلاح الدين أن نور الدين بدأ يتغير تجاهه ، واتضحت رغبته في المجيء إلى مصر بعد وفاة أبيه نجم الدين أيوب ، ويذكر ابن الأثير أن نور الدين قد شرع في تجهيز الجيوش لأخذ مصر من صلاح الدين بعدما رأى منه فتورا في غزو الفرنج من ناحيته[81].

كان نور الدين يعلم أن صلاح الدين لم ينفذ الغزو خوفا منه ومن الاجتماع به ، لأنه كان يؤثر وجود الفرنج في الطريق بينه وبين نور الدين ليمتنع بهم عليه ، ولذا قرر السير إلى مصر وبدأ يجهز جيوشه فأرسل إلى الموصل وديار بكر والجزيرة يطلب العساكر للغزاة ولكن أثناء ذلك توفى عن عمر يناهز ستة وخمسين عاما ، وعلى الرغم أن موته خسارة كبيرة للمسلمين ، إلا أن وفاته أزاحت عقبة كانت تعترض طريق صلاح الدين لتحقيق هدفه في تأسيس دولة مستقلة تحمل أسم أسرته في مصر[82]

صلاح الدين وتوحيد الجبهة الإسلامية:

ولما فرغ صلاح الدين من القضاء على الأخطار واطمأن على استقرار الأوضاع بمصر ، وجد الفرصة مواتية للخروج إلي الشام لوضع حد للأوضاع المتدهورة بعد وفاة نور الدين محمود للعمل على تحقيق الوحدة الإسلامية من الفرات إلي النيل أمام الصليبيين.

كان الوريث الأول لدولة نور الدين محمود هو ابنه الملك الصالح إسماعيل الذي لم يتجاوز عمره عند وفاة أبيه الحادية عشر ، مما جعله هدفا لمطامع الأمراء في السيطرة عليه[83] ، وكان سيف الدين غازي الثاني ابن أخي نور الدين قطب الدين مودود ابن زنكي وابن عم الصالح إسماعيل أتابكا على الموصل ، فعمل بعد وفاة نور الدين محمود على تفتيت الدولة النورية وذلك باستيلائه على حورن ، واللد وسروج ، والرقة ، وغيرها[84] ، وأعلن نفسه أميرا على الجزيرة وحدثته نفسه بضم حلب ودمشق ولذا نشب الصراع بين أقوى أثنين من أمراء نور الدين هما ابن الداية وابن المقدم بسبب الوصاية على الصالح إسماعيل.

وانتهى هذا النزاع بأن أحتل ابن الداية قلعة حلب بوصفها مركز الدولة النورية على حين تحفظ ابن المقدم على شخص الملك الصالح إسماعيل في دمشق[85] ، ثم أنتقل الملك الصالح إسماعيل إلى حلب بعد أن أجتمع الأمير سعد الدين كمشتكين الخادم بالأمير شمس الدين ابن الداية رغم الاتفاق بينه وبينهم على أن يسير إلى دمشق ويحضر الملك الصالح إسماعيل ، وكان مسير الصالح إسماعيل من دمشق إلى حلب في يوم 23ذى الحجة سنة 569هـ /25يوليو1174م[86].

أما صلاح الدين فقد صار لا سلطان عليه بعد وفاة نور الدين محمود وتأكد من سيطرته على مصر وأصبح الشخصية الكبرى في الدولتين النورية والمصرية فكان يتحين الفرصة للاستيلاء على الشام كي يتمكن من تكوين جبهة إسلامية تستطيع أن تواجه قوى الصليبيين ولذا كان عليه السيطرة على الموصل وحلب ودمشق وكانت الموصل يحكمها الملك سيف الدين غازي الثاني قطب الدين مودود.

وكانت حلب أكثر القواد فيها شأنا في حلب هو شمس الدين ابن الداية ، أما دمشق فكان قائد الجيش فيها هو شمس الدين محمد بن المقدم وتنافست هذه العواصم الثلاثة فيما بينهم لتحقيق هدف واحد هو ضم الصالح إسماعيل إليها لتصبح صاحبة السيطرة على بلاد الشام[87].

وكان هدف صلاح الدين في مصر أيضا هو توحيد مصر والشام في جبهة إسلامية واحدة يستطيع بهما مواجهة الصليبيين والقضاء عليهم ، ولذا رتب صلاح الدين أموره السياسية ، وكانت أبرز تحركاته في هذه المرحلة هو السعي إلى إضفاء الشرعية على كيانه السياسي ، وكان قد بعث إلى الخليفة العباسي المستضيئ بأمر الله في بغداد يعدد فتوحاته وجهاده ضد الفرنج وإعادته الخطبة إلى الخليفة العباسي في مصر واستيلائه على بلاد كثيرة من أطراف المغرب وعلى بلاد اليمن كلها ، وطلب من الخليفة تقليدا بحكم مصر واليمن والمغرب والشام ، وكل ما يفتحه بسيفه.

وفي سنة 570هـ جاءته رسل الخليفة في حماة ببلاد الشام بالتشريف والأعلام بالسلطة على مصر والشام وغيرها[88].

وكان صلاح الدين يرى أن التنافس بين أمراء المسلمين وقادتهم هدفه المصلحة الشخصية وأنها لن تخدم سوى أعداء الإسلام وليحقق صلاح الدين هدفه سارع بإعلان الولاء للملك الصالح من خلال ذكر أسمه في الخطبة بالديار المصرية ونقش أسمه على السكة وكتب إلى الأمراء النورية بالشام يهددهم بأنه سيأتي إليهم لحماية مولاه من أطماعهم ويذكر أبو شامة أن صلاح الدين كتب إلى الأمراء وقال : **" أن الملك العادل نور الدين لو علم أن فيكم من يقوم مقامي أو يثق إليه مثل ثقته إلي لسلم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته ولو لم يعجل عليه الموت لما عهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيري ، وأراكم قد تفردتم بخدمة مولاي وابن مولاي دوني وسوف أصل إلى خدمته وأجازى إنعام والده بخدمة يظهر أثرها وأجازي كل منكم على سوء صنيعه في ترك الذب - الدفاع - عن بلاده "**[89].

وشرع صلاح الدين في تنفيذ خطته للقضاء على الخلاف الذي نشب بين أمراء الشام ونتج عنه تفرق الكلمة وتشتيت القوى ، فعمل على جمع شمل المسلمين وتوحيد صفوفهم حتى لا يستغل ذلك الفرنج للاستيلاء على أراضى المسلمين.

كانت أولى خطوات صلاح الدين في توحيد الجبهة الإسلامية هو ضم دمشق بعد أن استغاث به قائد الحامية الإسلامية بها شمس الدين محمد ابن المقدم بسبب أطماع الفرنج في دمشق وأعمالها مثل بانياس[90].

قرر صلاح الدين المسير إلى الشام حيث خرج سنة 570هـ/1174م متجها إلى دمشق وأعلن في رسالة بعثها للأمير شمس الدين ابن المقدم قال فيها: **"آنا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كلمتهم وللبيت الأتابكى- أعلاه الله إلا ما حفظ أصله وفرعه أو دفع ضره وجلب نفعه والوفاء إنما يكون بعد الوفاة000"** [91]

تحرك صلاح الدين من القاهرة فوصل إلى بركة الجب أو بركة الحجاج شمال شرق القاهرة ، ووصلت إليه رسل ابن المقدم وصاحب بصرى يستحثونه على سرعة الحركة ، وصل صلاح الدين إلى صدر وآيلة ثم إلى بصرى ورحب به صاحبها ، ثم اتجه نحو دمشق فحاول بعض الرجال منعه إلا أن عساكره هزمتهم ، ودخل دمشق واخترق شوارعها حتى وصل إلى دار أبيه المعروفة بدار العقيقي ، واستولى على قلعتها وأنزل بها أخاه سيف الإسلام طغتكين[92] ، ولم يجد صلاح الدين من أهل دمشق مقاومة واجتمع عليه الناس وفرحوا به ، وأنفق صلاح الدين فيهم مالا جزيلا ، فأمر فنودي بإطابة النفوس ، وإزالة المكوس ، وإبطال ما أحدث نور الدين من ضرائب وأشياء أخرى[93].

الاستيلاء على حمص وحماة 570هـ/1174م:

لما أستقر ملك صلاح الدين لدمشق ، وقرر أمرها أستخلف أخاه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب ، وسار إلى مدينة حمص ، وكانت حمص وحماة وقلعة بعرين وسلمية وتل خالد والرها من بلد الجزيرة في إقطاع الأمير فخر الدين مسعود الزعفراني ، فلما مات نور الدين محمود لم يمكنه المقام بها لسوء سيرته في أهلها ، وكان بقلعة حمص وال يحفظها ، فلما نزل صلاح الدين على حمص راسل من فيها بالتسليم ، فامتنعوا ، فقاتلهم ، وملك البلد ، وأمن أهلها ، وامتنعت عليه القلعة[94].

ولم يرد صلاح الدين تضيع الوقت بالانتظار حولها ، فوكل بها من يحاصرها ، ويمنع وصول الميرة إليها ثم رحل إلى حماة وصاحبها الأمير عز الدين جرديك النوري الذي التقى بصلاح الدين في الرستين وسلمه مدينة حماة ، بينما أمتنع عن تسليم القلعة التي كان عليها أخوه حتى يستشير أقطاب الأمر بحلب ، فأجابه صلاح الدين إلى اقتراحه ، وذهب جرديك إلى حلب مشيرا على كمشتكين وحزبه من الحلبيين مصالحة صلاح الدين فاتهموه بالتآمر ، وقبضوا عليه وسجنوه ، فلما علم بذلك أخوه سلم القلعة إلى صلاح الدين فملكها[95]

ضم حلب والموصل إلى الجبهة الإسلامية:

كان على صلاح الدين أن يضم حلب والموصل ، حيث إن القضاء على الصليبيين لم يتحقق بقوات دمشق وحدها ، وما يجرى الاستغناء عنه من القوات المصرية التي تتولى الدفاع عن مصر ، كما أن الزنكيين الموجودين بحلب والموصل كانوا يشكلون خطرا جسيماً على جناحه إذا هاجموه ، ويترتب على ذلك أن صلاح الدين لم يستطيع حشد قوات الشام ومصر معا لقتال الصليبيين .

سار صلاح الدين إلى حلب وحاصرها في الثالث من جمادى الآخر سنة 570هـ/30ديسمبر 1174م ، فقاتله أهلها أشد قتال ، وركب الملك الصالح إسماعيل ، وجمع أهل البلد وقال لهم: **" قد عرفتم إحسان أبي إليكم ، ومحبته لكم ، وسيرته فيكم ، وأنا أتيتكم وقد خان هذا الظالم الجاحد إحسان والدي إليه بأخذ بلادي ولا يراقب الله والخلق"** ، كرر الملك الصالح هذا الحديث عدة مرات وبكى وأبكى الناس ، فبذلوا له أموالهم وأرواحهم واندفعوا إلى القتال دفاعا عنه ، وحفاظا على بلاده ، وأظهروا شجاعة نادرة في القتال مما اعجز صلاح الدين عن الاقتراب من حلب(96).

ولكنهم عجزوا عن زحزحته أو حمله على فك الحصار عن المدينة ، ولجأ كمشتكين إلى أساليب الخيانة والنذالة ، فراسل سنان صاحب الإسماعيلية الحشيشية يبذل له الأموال ليقتل صلاح الدين ، ويرفع الحصار عن حلب ، فأنفذ سنان جماعة من الفداوية تمكنوا من الاختلاط بعسكر صلاح الدين ، فاكتشف أمرهم الأمير ناصح الدين خمارتكين ، وقال لهم: **" يا ويلكم كيف تجاسرتم على الوصول إلى هذا المعسكر ومثلي فيه "** ، فخافوا غائلته فقتلوه ، وحاول أحدهم الوصول إلى صلاح الدين وطعنه لولا أن تصدى له طغرل أمير جاندرا وقتله وقتل الباقون بعد أن قتلوا عددا من عسكر صلاح الدين(97).

كما اتفقوا مع ريموند الثالث أمير طرابلس يطلبون منه مهاجمة بعض المراكز التي بيد صلاح الدين حتى يضطروه إلى رفع الحصار عن حلب(98).

وكان ريموند الثالث أمير طرابلس ، والوصي على عرش مملكة بيت المقدس عندئذ يدرك تماما أهمية تحالف الصليبيين مع حلب كما أدرك خطورة قيام وحدة بين القاهرة ودمشق وحلب ، ولذا أسرع إلى نجدة حلب ، والقيام بدور حامي الصالح إسماعيل ابن نور الدين محمود ، لا حبا له وخدمة لأمراء حلب ، وإنما ليسد الطريق في وجه صلاح الدين ، والعمل على الحيلولة دون قيام وحدة إسلامية في الشرق الأدنى(99).

سار ريموند إلى حمص ليهدد مؤخرة جيش صلاح الدين ، ولما علم صلاح الدين بذلك أمر برفع الحصار عن حلب أوائل فبراير سنة570 هـ/1175م ، وأسرع لنجدة حمص ، وفي الحال أنصرف ريموند إلى إمارته بعد أن حقق هدف أمراء حلب في صرف صلاح الدين عنهم ، وقنع بما أطلق له أمراء حلب من أسرى الفرنج وعلى رأسهم أرناط(100).

لم ينس صلاح الدين للحشاشين محاولتهم لاغتياله فأغار على مناطقهم فوصل السماق وعاد إلى دمشق.

وفي سنة 571هـ/1176م عبر سيف الدين غازي صاحب الموصل من الفرات بجيش كبير وانضم إلى قوات حلب الموالية للصالح إسماعيل والتي يقودها كمشتكين خارج حلب ، وجرت معركة بين صلاح الدين وبين المواصلة والحلبيين انتهت بهزيمة قوات التحالف هزيمة فادحة وأسر منهم عددا كبيرا ، وبقي صلاح الدين يمارس ضغوطه العسكرية على الحلبيين في المنطقة ، وفرض حصاراشديدا على حلب استمر حتى نهاية سنة571 هـ (101) ، وبداية سنة 572هـ/ 1176م ، وجرت مناوشات عسكرية انتهت باتفاق يقضي بأن تكون حلب وأعمالها للصالح إسماعيل ، وأن تكون لصلاح الدين مصر وبلاد الشام من مدينة حماة وما يليها جنوبا ، وتنازل صلاح الدين عن قلعة المزاز إلى أبنه صغيرة لنور الدين محمود ، ثم استدار صلاح الدين على طائفة الحشيشية وحاصر

مصياف عدة أيام ، ثم عاد إلى دمشق ، وجرت مناوشات مع الفرنج غير حاسمة ، ثم عاد صلاح الدين إلى القاهرة بعد أن ترك أخاه تورانشاه على رأس جيش قوي ببلاد الشام[102].

قضى صلاح الدين في مصر فترة تبلغ نحو الست سنوات (572-577هـ/1176-1181م) ينظم أمورها ويهتم بمنشآتها بعد أن تزوج من عصمة الدين خاتون أرملة السلطان نور الدين محمود[103].

كرس صلاح الدين جهوده لتحصين القاهرة ، ودعم دمياط والإسكندرية ، فضلا عن الحصون والقلاع ففي سنة (572هـ/1177م) أمر ببناء سور حول القاهرة والقلعة التي كان قد أمر ببنائها قبل خمسة أعوام والفسطاط والعسكر والقطائع ليحميها من الغارات المحتملة[104] ، وأولى اهتماما خاصا بالأسطول وأنشأ له ديوانا خاصا أسماه ديوان الأسطول[105].

هزيمة الرملة:

وفي سنة 573هـ/1177م سار صلاح الدين من مصر إلى ساحل الشام لمواجهة الفرنج وجمع معه عساكره وجنوده ، وعزم على شن هجوم قويا على سواحل فلسطين فوصل إلى عسقلان فسبى وغنم وقتل وأسر ، وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي أفرط فيها صلاح الدين في ثقته بنفسه ، ولما رأي جنده أن الفرنج لم يظهروا لهم ولا أجتمع لهم من يحمي البلاد من المسلمين طمعوا ، وأنبسطوا ، وساحوا في الأرض آمنين بعد أن تخلوا عن النظام الصارم الذي وضعه لهم صلاح الدين[106].

واصل صلاح الدين سيره متجها نحو الرملة عازما أن يقصد بعض حصون الفرنج لمحاصرتها فوصل إلى نهر تل الصافية قرب مدينة الرملة بفلسطين ، فأزدحم الناس للعبور ، وبينما هم على هذا الحال فاجأتهم القوات الصليبية بقيادة أرناط وأشرفت عليهم بإطلاعها وتكاثر الفرنج على صلاح الدين فمضى منهزما ، ونجا صلاح الدين من القتل بأعجوبة ، ومضى يسير قليلا ، ويقف قليلا حتى يلحقه العسكر إلى أن دخل الليل ، فسلك البرية وعاد إلى مصر ، وحلف ألا تضرب له نوبة حتى يكسر الفرنج[107].

وهكذا هزم صلاح الدين في أول تجربة له واحتكاك جدي مع الصليبيين في موقعة الرملة التي عرفتها المراجع الغربية بموقعة MON-GISART ، وكانت الهزيمة فادحة ويدل على ذلك ما ذكره ابن الأثير أنه قرأ كتابا كتبه صلاح الدين بخطه إلى أخيه تورانشاه يصف هزيمة عسقلان بعد وقوعها بسنيين يقول فيه **" لقد أشرفنا على الهلاك عبرة ، وما أنجانا الله سبحانه وتعالى منه إلا لأمر يريده سبحانه ، وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر"**[108]

ولا شك أن انتصار الصليبيين في موقعة تل الصافية " الرملة" دعم مركزهم ، وأعاد الثقة في نفوسهم ، فأخذوا يهاجمون المسلمين في شمال الشام ، ويدعمون مراكزهم في الجنوب حيث هاجموا حماة ، ثم منطقة سيزر ، أما في الجنوب فقد شرع بلدوين الرابع في تحصين مملكته ، فشيد قلعة جديدة قرب بانياس عند بيت يعقوب في مكان يعرف بمخاضة الأحزان[109] ، لزعم الصليبيين أن يعقوب عليه السلام اعتاد الانفراد فيه والبكاء على يوسف عليه السلام[110].

أما صلاح الدين فقد غادر مصر إلى الشام سنة 574هـ/1178م ، واشتبك مع الفرنج في قتال عنيف بالقرب من حصن مخاضة الأحزان ، وانهزم الفرنج بقيادة ملكهم ووقع في أيدي المسلمين عدد كبير من قوادهم وعلى رأسهم مقدم الداوية ، ومقدم الأسبتارية ، وحاصر صلاح الدين الحصن حصارا محكما حتى أفتتحه ثم هدمه ومحاه من الوجود

ونتيجة لهذ الانتصار سعى بلدوين ملك بيت المقدس لعقد هدنة مع صلاح الدين سنة 576هـ/1180م[111]

وقد تطورت الأحداث في الموصل وحلب واتخذت مسارا جديدا شد اهتمام صلاح الدين وهو في مصر ، ففي سنة 576هـ/1180م توفى سيف الدين غازي صاحب الموصل وخلفه أخوه عز الدين مسعود[112] ، وقد طلب عز الدين مسعود من صلاح الدين أن يكون معه من البلاد كما كان مع أخيه مثل "سروج - والرها والرقة - وحران والخابور- ونصيبين" ، ولكن صلاح الدين رفض ذلك لأن هذه الأماكن تابعة لصلاح الدين بتفويض من الخلافة العباسية ، وأنه لم يتركها لسيف الدين غازي إلا بشرط تعهده بمساعدة صلاح الدين بجيوشه وأوضح له صلاح الدين حاجته إلى قوات تلك الأماكن للاستعانة بها في حروبه ضد الصليبيين[113].

وفى سنة 577هـ/1181م توفى الملك الصالح إسماعيل صاحب حلب فجأة وكان قد بلغ من العمر تسعة عشر عاما ، وكان قد أوصى وهو على فراش الموت أن يخلفه في حكم حلب أبن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل وذلك لكثرة عساكره وبلاده وأمواله فوافق عز الدين مسعود ، وأسرع إلى حلب خوفا أن يسبقه إليها صلاح الدين فدخلها وأستولي على خزانتها وذخائرها ، وأقام بقلعتها ، ولكنه لم يستطع الاحتفاظ بحكم حلب والموصل معا وذلك لبعد المسافة بينهما ولذلك تنازل عن حلب لأخيه عماد الدين زنكى الثاني صاحب سنجار مقابل أن يأخذ سنجار عوضا عنها فوافق عماد الدين وتوجه إلى حلب سنة 578/1182واستقر بها[114].

هذه التطورات بالموصل وحلب لم تكن في صالح أهداف صلاح الدين فتأهب لتحقيق الوحدة بأن أمر أبن أخيه تقي الدين عمر صاحب حماة أن يتأهب بعسكره ، وأمر معين الدين عبد الرحمن صاحب الراوندان — وهى قلعة بالقرب من حلب — بأن ينضم إلى تقي الدين عمر ويعمل برأيه ، وكان ذلك سنة 577هـ /1181م ومن ناحية أخرى بعث صلاح الدين إلى الخليفة العباسي برسالة يذكر فيها غدر عز الدين مسعود صاحب الموصل ويذكر أن حلب ضمن البلاد التي قلدها له الخليفة العباسي المستضيئ بالله ، كما أشار إلى ما فعله الحلبيون من الإغارة على الراوندان التابعة له واستنجادهم بالصليبيين ومراسلتهم للحشيشية.

ولذلك قرر صلاح الدين التوجه نحو الشام ، فجمع الجيوش واستكثر من السلاح ، وترك مهمة الإشراف على أعمال التحصينات بالقاهرة إلى بهاء الدين قراقوش ، ثم غادر مصر إلى الشام وكان هذا خروجه الأخير من مصر وذلك سنة 578هـ/1182م[115].

وفى طريقه إلى الشام سلك طريق آيلة ، ولما وصلت الأخبار إلي الصليبيين بمسيرة صلاح الدين ، ومعه عدد كبير من التجار اجتمعوا بالكرك ليستولوا على القافلة —

إلا أن صلاح الدين شن غارته على معاقلهم في نواحي الكرك والشوبك ولم يخرج إليه منهم أحد ، وفي نفس الوقت أغار "فروخشاه" على حصن الثقيف ورجع بالأسري والغنائم ، ووصلت هذه الأخبار إلى صلاح الدين وهو في طريقه إلى دمشق[116].

ولما وصل دمشق استراح بها بضعة أيام ، ثم خرج وغار على معاقل الصليبيين في طبرية وبيسان ، وألتقي معهم في معركة تحت حصن كوكب انتهت بهزيمتهم وفروا إلى الحصن وعاد السلطان إلى دمشق[117] ، ثم غادر صلاح الدين دمشق للاستيلاء على بيروت ، وأرسل إلى أخيه العادل نائبه في مصر بخروج الأسطول المصري لحصارها ولما بلغه وصول الأسطول إلى بيروت هاجمها برا ولكنها قاومت هجماته ، فرأى أن أمرها يطول فانصرف عنها وعاد إلى دمشق[118].

ثم اتجه نحو شمال الشام وأعالي العراق ، إذ بلغه أن المواصلة كاتبوا الصليبيين ورغبوهم في مهاجمة الثغور الإسلامية ليشغلوا صلاح الدين عن قصد بلادهم وعندئذ شرع صلاح الدين في الزحف على حلب أولا وقبل أن يقترب منها آتاه مظفر الدين كوكبوري صاحب حران وأشار عليهم بعبور الفرات والاستيلاء على البلاد الواقعة شرقه قبل التوجه إلى حلب حتى لا تشغله عن غيرها فاستصوب صلاح الدين هذا الرأي ، وتم له الاستيلاء على حران والرها والرقة والخابور ونصيبين وأعلن صاحب حصن كيفا له الولاء وهكذا نجح صلاح الدين في تكوين حلف قوى من أمراء الجزيرة ضد إمارة الموصل ، ثم زحف بقواته على الموصل وأحكم حصارها ثم ما لبث أن شن هجماته عليها ، ولكنه لم ينل منها واستعصيت عليه بسبب مناعتها وحصانة أسوارها ، بجانب أن عز الدين مسعود كان قد تجهز لهذا الحصار[119].

ولكن عز الدين مسعود قد ساوره القلق تجاه صلاح الدين لتفوقه في السلاح والعدد ، وأرسل إلى الخليفة العباسي ليتدخل للصلح بين الطرفين ، ودارت المفاوضات بينهما إلا أنها انتهت بالفشل ، ودخلت أطراف أخرى لإتمام الصلح إلا إنها فشلت أيضا[120].

الاستيلاء على سنجار :

تأكد صلاح الدين من استحالة الاستيلاء على الموصل لمناعتها وحصانتها فتركها وسار إلى سنجار للاستيلاء عليها وهى تبعد عن الموصل قرابة80 كم وكان المواصلة بسنجار يقطعون على صلاح الدين الإمدادات وخطوط المواصلات ، مما جعله يزحف على سنجار ويضيق الخناق عليها واستمر في حصاره لها خمسة عشر يوماً ، ويذكر ابن الأثير أن بعض الأكراد الموجودين داخل المدينة راسلوا صلاح الدين واتفقوا معه في فتح أحد أبواب المدينة ليلا وتمكن من دخول المدينة سنة 578هـ/1182م ودخل قلعتها وهكذا تم له الاستيلاء على سنجار ورحلت حاميتها إلى مدينة الموصل[121].

بعد استيلاء صلاح الدين على سنجار حاول عز الدين مسعود التصدي لصلاح الدين ، فكون حلفا من شاه أرمن ، وقطب الدين وانضم إليهما دولة شاه ، وخرجوا جميعا لمواجهة صلاح الدين ، فلما علم صلاح الدين بذلك أرسل إلي ابن أخيه تقي الدين عمر يستدعيه فاتاه مسرعا ، وتقدم صلاح الدين بقواته ، فخاف عز الدين مسعود ومن معه من الحلفاء من مواجهة صلاح الدين وتفرقوا عائدين إلى بلادهم وبذلك أخفقت محاولات عز الدين مسعود لعرقلة زحف صلاح الدين نحو الموصل[122].

الاستيلاء على آمد:

وهذا جعل صلاح الدين يتشجع على ضم باقي البلاد في الجزيرة لنفوذه ، فتقدم نحو حصون "آمد" المنيعة وهي غاية في الحصانة ، ولما أحس الأهالي بتراخي أمير المدينة في الدفاع عنها تهاونوا في القتال ، وجنحوا للسلم ، فتسلم صلاح الدين المدينة وعهد بحكمها إلى صاحب كيفا ، وبسقوط آمد في أيدي صلاح الدين جاءته رسل ملوك الأطراف كل منهم يطلب الأمن لصحابه ، وأن يتخذه من جماعة أنصاره ، ومن هؤلاء صاحب ماردين ، وميافارقين ، فوافقهم صلاح الدين على طلبهم(123).

الاستيلاء على حلب :

وبعد أن فرغ من أمر آمد ، عبر الفرات قاصدا حلب وأعمالها وهو في طريقه إليها استولي على تل خالد وعينتاب وهما من أعمال حلب ، وذلك سنة 579هـ/1183م ، ولما حاصر حلب قاومته مقاومة عنيفة وقاتل أهلها ببسالة للدفاع عنها وظلوا صامدين ، ولما طلبوا من صاحب حلب المزيد من الأموال لسد نفقات الجند والدفاع ، أعتذر بقلة المال عنده ، فانصرفوا عنه فعندئذ مال إلي تسليم المدينة إلى صلاح الدين ودارت المفاوضات بين الطرفين واتفق على أن يتسلم صلاح الدين حلب مقابل أن يعوض عز الدين مسعود عنها بسنجار واشترط عليه صلاح الدين أن يعاونه في قتال الصليبيين ، ودخل صلاح الدين حلب سنة 579هـ/1183م ورفع عليها راياته الصفراء ، ونشر العدل ورفع الضرائب ، وعين عليها ابنه الظاهر غازي(124).

المناوشات مع الفرنج :

عندما وصل خبر استيلاء صلاح الدين على حلب للصليبيين أصابهم الخوف والفزع وأحسوا أن الدائرة وشيكة بأن تدور عليهم ، إذ كانوا يدركون تماماً أنه لو نجح صلاح الدين في ضم حلب ، فأن ممتلكاتهم بالشام تصبح في حالة حصار دائم ، وذلك لقربها من ممتلكاتهم وخاصة إمارة إنطاكية التي أرسل صاحبها بهيموند الثالث جماعة من أسرى المسلمين ، وحصل على عفو السلطان صلاح الدين وأمانه ، وتم له ذلك(125).

وكان صلاح الدين في ظروف تسمح له بالانتقام من صليبي مملكة بيت المقدس الذين أغاروا على أملاك المسلمين أثناء غيابه بالجزيرة ، وخاصة ما قام به أرناط صاحب حصن الكرك من غارات في شبه الجزيرة العربية والبحر الأحمر ، حيث قام بمحاولة جريئة استهدفت الاستيلاء على الحرمين الشريفين والاعتداء على قبر الرسول ﷺ ، وهدم الكعبة ، وكان ذلك في خريف سنة 578هـ/1182م حيث بنى عدة سفن ونقلها مفككه على ظهور الجمال حتى خليج العقبة وأعاد تركيبها وشحنها بالرجال والعتاد ، وبدأ يشن غاراته في البحر الأحمر على المواني المصرية مثل ميناء عيذاب المواجه لجدة ، وأستولي على مراكب التجار الموجودين وأسر بعض رجالها ، وقتل عددا كبير من المسلمين(126).

ضم الموصل للجبهة الإسلامية:

بعد أن أخفق صلاح الدين في الاستيلاء على حصن الكرك وعاد إلي دمشق ، وكانت الأحداث بالموصل تستدعى أن يتدخل صلاح الدين في شئونها حيث استمع عز الدين مسعود صاحبها إلى وشاية بعض أمراء دولته وقبض على نائبه مجاهد الدين صاحب النفوذ الفعلي في الموصل والبلاد التابعة له ، وصادر أموالهم مما جعل بعض الأمراء

ينفضون من حول عز الدين مسعود ، وأسهم بذلك في تدمير دولته بضياع الأماكن التابعة لها ، ولذا أرسل عز الدين مسعود إلى الخليفة العباسي سنة579هـ/1183م يطلب منه التوسط لتجديد الصلح بينه وبين صلاح الدين إلا أن المفاوضات تعثرت[127].

وبعد فراغ صلاح الدين من شن غاراته على نابلس وغيرها من المدن الصليبية سنة 580هـ/1184م قوى عزمهم على حصار الموصل ، وفى نفس الوقت طلب ريموند الثالث أمير إنطاكية عقد هدنة مع صلاح الدين مدتها أربعة سنوات ، فوافق صلاح الدين على ذلك ليضمن حماية مؤخرة جيشه ، ولم يلبث صلاح الدين أن حشد عساكره في حلب سنة 581هـ/1185م وغادرها قاصدا الموصل ليضع حدا لما يقوم به صاحبها ، فعبر نهر الفرات إلى حران فوصلها ومنها تحرك بجيوشه ونزل برأس عين ، وهناك قدم إليه رسول سلطان سلاجقة الروم يهدده إذا هاجم الموصل وماردين ، إلا أن صلاح الدين لم يعبأ بهذا التهديد ، وزحف نحو الموصل ، ونزل بموضع قريباً منها[128] .

ظل صلاح الدين محاصرا الموصل ، وكان الحر شديداً ، فأمر بإيقاف المناوشات العسكرية حتى يزول الحر ، ولكنه رفع الحصار عنها في المرة الثانية واتجه شمالا لوضع حد للفوضى التي سادت تلك المنطقة بعد وفاة حاكمها ، ثم عاد صلاح الدين لمحاصرة الموصل للمرة الثالثة ، ونزل بموضع على نهر دجلة بالقرب منها سنة 581هـ/1185م وقرر أن يقضى فصل الشتاء في هذا الموضع لمضايقة الموصل وإضعافها وهناك أرسل إليه عز الدين مسعود وفدا يطلب منه الصلح ، ولكن صلاح الدين رفض ما عرضه عليه عز الدين مسعود ، ورد الوفد دون نتيجة[129].

وعندئذ أرسل عز الدين مسعود إلى الخليفة العباسي يستنجده ، فلم يستجب ، فأرسل إلى العجم ، فلم يصله منهم أيضا نجدة ، فجرى الصلح بينه وبين صلاح الدين سنة 582هـ/1186م على أساس أن يتسلم صلاح الدين شهرزور وقلاعها وحصونها وجميع ما وراء نهر الزاب من الأعمال ، مقابل الإبقاء على عز الدين مسعود أتابكا للموصل وتوابعها ، وأن يخطب لصلاح الدين على منابرها ، وتضرب السكة باسمه ، وأن يتعهد عز الدين مسعود بمساعدة صلاح الدين بالجيوش والعتاد أثناء مواجهته للصليبيين ، واسترداد بيت المقدس[130].

وهكذا نجح صلاح الدين الأيوبي في بناء أعظم دولة متماسكة البنيان في مصر والشام والجزيرة (أعالي العراق) ، كانت القاعدة الصلبة التي حققت وحدة الجبهة الإسلامية تحت زعامته ، وهى الوحدة التي كان قد غرس بذورها عماد الدين زنكى ، وبلغ بها ابنه نور الدين محمود مكانة كبيرة ، ثم جاء صلاح الدين الأيوبي فأتم بناء صرحها ، ولم يعد أمامه سوى طريق الجهاد لتحرير أملاك المسلمين من أيدي الصليبيين.

موقعة حطين 583 هـ/1187م:

كان صلاح الدين قد عقد هدنة بينه وبين بلدوين ملك بيت المقدس ، وذلك سنة 579هـ/1183م[131] تجرأ البرنس أرناط صاحب حصن الكرك على نقضها ، ففي سنة 582هـ/1186م كانت قافلة تجارية للمسلمين تمر بالكرك في طريقها من مصر إلى الشام ، ولم يحترم أرناط الهدنة وأنقض على القافلة ، فنهبها وقتل من أفرادها العديد وأسر بعض أفراد القافلة ، بجانب أنه امتنع عن إجابة صلاح الدين إلى إطلاق سراحهم ويذكر أنه قال لبعض الأسرى : **" فليأت محمد ليخلصكم"** [132].

حاول ملك بيت المقدس جاي لوزتيان أن يلزم أرناط بإصلاح ما أفسده فلم يستجب أرناط لطلبه ، على أساس أنه مستقلا عنه ، وليس بينه وبين صلاح الدين هدنة ولما أصر أرناط على عصيانه ، نذر صلاح الدين دمه وأعطى الله عهدا إن ظفر به أن يستبيح دمه ، وبذلك انتقضت الهدنة القائمة بين صلاح الدين وملك بيت المقدس(133).

وهكذا صارت الحرب حتمية ، وهى حرب لم تكن مملكة بيت المقدس الممزقة على استعداد لمواجهتها ، بينما كانت الجبهة العربية الإسلامية بوحدتها وتماسكها مستعدة تماما لهذه المواجهة ، وأعلن صلاح الدين الجهاد(134) ، فكتب إلي نوابه وتابعيه في الموصل والجزيرة وإربل ومصر وسائر الشام بطلب جيوشهم لقتال الصليبيين(135).

خرج صلاح الدين من دمشق وتوجه إلى بصرى على رأس قوة كبيرة لحماية قافلة من الحجاج العائدين من بلاد الحجاز ، وكان ضمن هذه القافلة أخت صلاح الدين وابنها وجماعة من الخواص خوفا عليهم من غدر أرناط صاحب حصن الكرك الذي كان يتحكم في طريق العسكر المصري والحاج الشامي وبعد أن وصلت القافلة بسلام بدأت الفرقة المصرية التي وصلت للانضمام لصلاح الدين في الإغارة على أملاك الصليبيين في الكرك والشوبك وتلحق بها الخراب والتدمير ثم عاد صلاح الدين بعد شهرين(136) ، ثم تجمعت الجيوش العربية الإسلامية القادمة من دمشق وحلب وما بين النهرين ومصر وديار بكر لتشن هجومها على طبرية ، حيث قاد ابنه الأفضل هجوما على طبرية ، وفى معركة ضد فرسان الدواية والاسبتارية بالغرب من صفورية انتصر المسلمون انتصارا ساحقا في ربيع الأول سنة 583هـ/مايو 1187م بحيث قضوا تماما على القوة الصليبية التي اشتبكوا معها واستولوا على طبرية ، ولم تمتنع عليه سوى قلعتها(137) ، وكان هذا النصر باكورة البركات ومقدمة ما بعدها من ميامن الحركات(138).

ولما علم صلاح الدين بما أحرزه المسلمون من انتصار ، توجه إلى عشتر في حوارن ، وبلغت عدة جيوشه حوالي عشرين ألف جندي فمنهم فريق ذوي الأسلحة الخفيفة ، وفريق مزود بأسلحة ثقيلة وأخذ في تعيين مراكز الأمراء ، وطلب ألا يترك كل جيش مكانه ، ولا يتزحزح جندي من موضعه(139) ، وفى شهر يونيه من نفس السنة خرج صلاح الدين إلى فلسطين ، بعد أن أقام خمسة أيام جنوب طبرية ، أرتحل ونزل غرب البحيرة على سفح الجبل ، مستهدفا من وراء ذلك أن يترك الصليبيين مواقعهم عند صفورية ، والزحف إليه في اتجاهه غير أن الصليبيين ظلوا في مواقعهم ولم يتحركوا منها ، وكانوا قد عقدوا مجلسا للحرب لبحث الموقف فمنهم من رأى أن تقوم خطتهم على الالتزام بالدفاع المطلق عن صفورية ، لأن الجيش الذي يهاجم في حرارة الصيف الشديدة لن يكون الموقف في صالحه ولن يكون بوسع صلاح الدين الانتظار طويلا بقواته الضخمة ، وسوف ينسحب بعد فترة وجيزة ، وغير أن بعض الزعماء ومن بينهم أرناط رأوا ضرورة الزحف من صفورية على قوات صلاح الدين في طبرية، واتهموا ريموند الثالث كونت طرابلس بالتخوف من المسلمين ، وانتهى هذا المجلس بأن، أصدر الملك لوزتيان ملك بيت المقدس أوامره للجيش الصليبي بالتحرك صوب طبرية وعسكر الصليبيون في صفورية بجيش ضخم يقارب جيش المسلمين(140).

ومع صباح يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الآخر سنة 583هـ/ الرابع من يوليو سنة 1187م ، وكان يوم ساكن الهواء ، تحرك الجيش الصليبي إلى طبرية وفى

الطريق تحالف الحر والعطش مع مناوشات الجنود المسلمين وهجماتهم الخفية لإرهاق الصليبيين ، وبعد ظهر اليوم وصلت طلائع الجيش الصليبي إلى الهضبة التي تعلو حطين مباشرة ، وبهذا قد أساء الصليبيون اختيار معسكرهم وابتهج صلاح الدين تمام بما حدث[141].

أمضى الصليبيون ليلة حالكة السواد يؤرقهم اليأس وتضنهم أصوات الصلوات والتكبيرات المنبعثة من معسكر المسلمين القريب ، وكان الريح على الفرنجة فلما أمر صلاح الدين بإجرام النيران في الحشائش الموجودة في المنطقة حملت حر النار والدخان إليهم ، فازدادت أحوالهم سوءا[142].

وتحت جنح الليل حرك صلاح الدين جيشه ليحاصر الجيش الصليبي وعندما لاحت تباشير فجر اليوم التالي كان الجيش الصليبي محاصرا تماما بحيث لا تستطيع قطة أن تنفذ من هذا الحصار على حد تعبير أبن واصل[143].

وفى خلال المعركة حاول ريموند صاحب طرابلس أن يجد ثغرة ليحطم منها دائرة الحصار المضروب حولهم ، فلما أحس به الأمير تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين - دبر له مكيدة وتظاهر بالهزيمة وأفسح له طريق الخروج ، فلما بعد بفرقته عن الجيش الصليبي أسرع تقي الدين وانضم إلى جيش المسلمين وأغلق عليه الدائرة مرة أخرى فلما وجد ريموند نفسه وحيدا أسرع بالعودة إلى مقره في طرابلس[144].

وأستمر القتال بين الفريقين وشن المسلمون هجومهم الحاسم على الصليبيين ، وقتل الكثير من الصليبيين ، ولم تنج من فرسانهم سوى قلة قليلة ، وسرعان ما انهارت القوى الصليبية فأسر المسلمون منهم أعدادا كبيرة ، وكان من بين الأسرى الملك جان دي لوزيتان والبرنس أرناط وغيرهم من قادة الفرنج ومقدميهم وسيقوا جميعا إلي خيمة السلطان صلاح الدين[145].

وفى الخيمة السلطانية استقبل صلاح الدين الملك الصليبي جان دي لوزيتان وأخاه أمالريك وأرناط (رينالد دي شاتيون) وعدد آخر من بارونات الصليبيين وزعمائهم، وحياهم السلطان بكرم وأجلس الملك جي بجواره وحادثه ، ولما رآه يعانى العطش أمر له بجلاب ماء ورد مثلج ، فشرب ، ثم ناول أرناط القدح فشربه ، فقال صلاح الدين للملك جي: **"لم أذن لك في سقيه الماء حتى لا يوجب ذلك أمانا له"** ، حيث تقضى أصول الضيافة العربية أن إعطاء الطعام والشراب لأي أسير ، معناه أن حياته في أمان ولهذا تدخل صلاح الدين وقال للمترجم: **"قل للملك أنه هو الذي أعطى الماء لأرناط ليشرب لست أنا "**[146] ، ثم ألتفت السلطان صلاح الدين إلى أرناط وذكره بما أرتكبه من جرائم وحماقات وبما أقدم عليه من جناية بخسته وطمعه ، وذكره بقوله عندما غدر بالقافلة المتجه من مصر إلى الشام **"قولوا لمحمدكم يخلصكم "** وقال له: **"ها أنا أنتصر لمحمد ﷺ "** ثم عرض عليه الإسلام فرفض أرناط وأجابه بوقاحة ، فقام صلاح الدين وأستل النمجاه - وهى خنجر مقوس يشبه السيف الصغير - وقام إليه بنفسه فضرب رقبته ، فلما رآه الملك جي أرتعش وظن أن السلطان صلاح الدين سيفعل به كما فعل بأرناط ولكن السلطان صلاح الدين طمأنه وطيب قلبه وقال: **"لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ، وأما هذا**

فتجاوز حده فجرى عليه ما جرى" ، وأمر صلاح الدين بعدم إيذاء الأسرى من الصليبيين وتم إرسالهم إلى دمشق[147].

كان انتصار المسلمين في حطين انتصارا ساحقا حيث ذكر ابن الأثير ذلك بقوله "وكان من يرى الأسرى لكثرتهم لا يظن أن هناك قتلي ، فإذا رأى القتلى حسب أنه لم يكن هناك أسرى"[148].

وكان من نتائج حطين تدمير أكبر جيش صليبي وعندما قضي الجيش الإسلامي على الجيش الصليبي توجه صلاح الدين بجيشه لكي يستولي على الحصون والقلاع الصليبية.

الاستيلاء على عكا:

اتجه صلاح الدين للاستيلاء على المدن الساحلية لكي يؤمن البحرية مع مصر حتى يضمن وصول الإمدادات البشرية والغذائية منها لجيوشه في فلسطين ، ومن ثم اتجه صوب عكا ، ولم يفكر حاكمها جو سلين في شيء سوى سلامته الشخصية ، فأرسل أحد سكان المدينة لمقابلة صلاح الدين أمام أسوار المدينة ، وعرض عليه تسلم المدينة مقابل الأمان على أرواح سكانها وممتلكاتهم ، فأمنهم صلاح الدين وحملوا ما أمكنهم حمله من أموالهم ، وتركوا الباقي على حالها ودخلها المسلمون واستولوا على ما فيها من الأموال والذخائر ، واستنقذوا من كان بها من الأسرى المسلمين ، وكان عددهم أربعة ألف شخص ، وقام القاضي الفاضل بتحويل كنيستها إلى جامع ورتب فيه المنبر والقبلة وصلى فيه المسلمون أول صلاة جمعة بعد انتصار المسلمين في عكا ، وأقطع صلاح الدين عكا لولده الملك الأفضل نور الدين على ، وأعطى جميع ما فيها من أملاك الداوية للفقيه عيسى الهكارى ترضية له عما قاساه من أسرهم من قبل[149].

وأثناء مقام صلاح الدين في عكا أرسل ألوية من جيشه لإخضاع مدن الخليل ونابلس والناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعلبا والثقيف والطور ونهبوا ما فيها وسبوا نسائها وأطفالها ، وسير صلاح الدين ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر فنزل على تبنين ليقطع الإمدادات عنها وعن صور ، كما سير ابن أخته الأمير حسام الدين بن لاجين إلى نابلس فدخلها وحاصر قلعتها واستنزل من بها من الفرنج حتى استسلموا ومنحهم الأمان على أرواحهم[150].

وسار صلاح الدين إلى بيروت فوصلها يوم الخميس الثاني والعشرين من جمادى الأول سنة 583هـ/الثلاثون من يوليو 1187م فحاصرها ثمانية أيام حتى طلب أهلها الأمان فأمنهم وتسلمها يوم الخميس التاسع والعشرين من جمادى الأول في نفس السنة[151].

أما جبيل فكان صاحبها من جملة الأسرى الذين أرسلوا إلي دمشق مع الملك جي عقب حطين فتكلم مع نائب صلاح الدين في بدمشق في تسليم جبيل مقابل إطلاق سراحه ، فأحضره صلاح الدين إلى بيروت وأطلق سراحه بعد أن أطلق أسري المسلمين الذين بجبيل ودخلها صلاح الدين بالأمان دون قتال[152].

ثم أجتمع السلطان صلاح الدين بأخيه العادل وتقرر منازلة عسقلان ، فلم تلبث أن استسلمت في سبتمبر في نفس السنة وذلك مقابل إطلاق سراح الملك جي لوزيتان ، ومقدم الداوية[153].

سقوط بيت المقدس:

وفى اليوم الذي دخلت فيه قوات صلاح الدين عسقلان وصله سفراء من أهالي بيت المقدس للتفاوض حول شروط الاستسلام في القدس ، وفشلت المفاوضات لأن مندوبي أهل المدينة رفضوا تسليم المدينة التي يعتقدون أن المسيح مات فيها ، فأقسم صلاح الدين أن يستولي عليها بالسيف(154).

وكان سكان المدينة قد زاد عددهم بفضل أعداد اللاجئين إليها من المدن والقلاع الصليبية التي أستولي عليها صلاح الدين ، ولكن أعداد قليلة من هؤلاء اللاجئين هم الذين يستطيعون القتال ، اضطر "باليان" قائد الحامية الصليبية ببيت المقدس أن يجند كل صبى فوق السادسة عشر بشرط أن يكون من أبناء الطبقة النبيلة حتى أتمت الحامية الصليبية استعدادها بالقدس لمواجهة صلاح الدين(155).

اتجه صلاح الدين نحو القدس هدف المسلمين الأكبر في الجهاد ضد الصليبيين ورمز النصر في هذه المواجهة ، وعسكر الجيش الإسلامي أمام المدينة المقدسة وبدأت الفيالق الإسلامية تهاجم المدينة ، ولكن المقاومة العنيفة وحرارة الشمس جعلت الهجوم الذي استمر خمسة أيام لم يسفر عن شئ ، ونقل صلاح الدين معسكره ، وظن المدافعين عن المدينة أن الجيش الإسلامي رفع الحصار عن المدينة ، ولكن جيش صلاح الدين قد عسكر من جديد فوق جبل الزيتون الذي يطل على المدينة وبدأ الهجوم الإسلامي ، وحين أدرك الصليبيون عبث المقاومة ، ذهب قائدهم بنفسه إلى معسكر صلاح الدين يطلب تسليم المدينة ويسأل صلاح الدين عن شروطه(156).

وكانت شروط صلاح الدين لتسلم بيت المقدس كالتالي:

1- يدفع الصليبيين فدية عن أنفسهم بمعدل 10 دنانير عن الرجل ، وخمسة عن المرأة ، و2 دينار عن الطفل ، على أن يتم الدفع خلال أربعين يوما وبعدها يحق للمسلمين أسر من لم يدفع الفدية.

2- سمح صلاح الدين للمسيحيين الشرقيين من أهل الشام أو اليونانيين بالبقاء ، كما سمح صلاح الدين للبطريرك أن يخرج من المدينة ومعه كل أمواله وذخائره الكثيرة ولم يدفع سوى 10 دنانير فدية عن نفسه(157).

دخل صلاح الدين مدينة بيت المقدس 27رجب 583هـ/ 2اكتوبر 1187م ولم يجرح المسلمين حين استردوا بيت المقدس مدنيا واحدا ولم ينهبوا أي مبنى وأخذت الدوريات الإسلامية تطوف شوارع المدينة بأوامر صلاح الدين وترابط على أبوابها لمنع أي اعتداء على المسيحيين المدنيين(158).

وهكذا تحررت المدينة المقدسة من الأسر الصليبي بعد تسعون سنة ، حيث كانت قد سقطت في أيدي الصليبيين في يوم 20 شعبان سنة 493هـ / 14يونية 1099م(159).

لم يكن استرداد بيت المقدس هو نهاية المطاف في المواجهة الإسلامية الصليبية فقد كانت فلول الصليبيين تتجمع في صور التي كانت قد اكتظت فعلا بسكانها ، ولم يسمح بدخول صور سوي من يقدر على القتال من الصليبين ، أما بقية العزل الذين أطلق صلاح الدين سراحهم دون فدية فكان مصيرهم بائسا ، وأغلق حاكمها أبوابها في وجه الفارين إليها(160).

مدينة صور:

حرص صلاح الدين على أن يمضي في فتوحاته قدما ، فدرج على أن يجيز للحاميات التي تدافع عن المواقع الصليبية ، وأن تخرج في أمن وسلام إذا سلمت المدن التي تدافع عنها ، وصار كل من أستأمن من الصليبيين وممن طلبوا الأمان وسلموا مواقعهم دون قتال يطالبوا بالرحيل إلى صور ، وقد استقبلت هذه المدينة أعدادا ضخمة كما ذكرنا ، واستطاعوا أن يجمعوا صفوفهم فيما بعد ، وممن لجأ إليها ريموند كونت طرابلس إذ قدم إليها وأمتنع بها لحصانتها وقوة استحكاماتها[161].

نزل صلاح الدين على مدينة صور يوم الجمعة 9 رمضان سنة 583هـ/12 نوفمبر 1187م وأقام معسكره على مقربة من أسوار صور، وكانت المدينة على درجة كبيرة من الحصانة وظل صلاح الدين بمعسكره لمدة ثلاثة عشر يوما حتى شدد الحصار عليها كما حصرها عن طريق البحر وتمكن الفرنج من الاستيلاء على خمسة شواني للمسلمين وأسروا مقدمتهم مما فت في عضد المسلمين ، وكان لهزيمة الأسطول الإسلامي أثرها في رفع الروح المعنوية للفرنج فخرجوا من صور فتلقاهم المسلمون ، ودارت الدائرة على الفرنج وأُسر مقدم كبير لهم وقتله المسلمون[162].

غير أن صلاح الدين لم يشاء حمل جيشه على معاناة حصار بيروت الذي طال ولابد أن يطول ، فأشار الجند على صلاح الدين الرحيل ولا سيما أن الشتاء قد دخل وأشتد البرد ، وتعللوا بكثرة الجراح وقلة الإمدادات ، فلم يسع صلاح الدين إلا الرحيل فأمر بنقل الأثقال فحمل بعضها إلى صيدا وبيروت ، وأحرق الباقي لئلا يناله الفرنج ، وأتجه إلي عكا[163].

وقد أعتبر بعض المؤرخون أن صلاح الدين أخطأ خطأ كبيراً عندما سمح للصليبيين النزوح من المدن والحصون الداخلية والاتجاه للاستقرار في مدينة صور إذ كانت النواة لبدء الحملة الصليبية الثالثة وكانت سببا في استرداد بعض المواقع التي كان صلاح الدين قد حررها.

والواقع أن صلاح الدين أخطأ بترك عسكر الفرنج بصور تتقوى بحشود الوافدين إليها ، ولكن الذي دفع صلاح الدين لهذا التصرف هو حقن دماء الطرفين ، بجانب أنه كان يصل إلى تحقيق هدفه باستلام المدن المفتوحة دون تخريب ، واستلام حصونها كاملة كما أنه عمل على تطهير هذه المدن والقلاع من الفرنج لخطورتها باعتبارها الجيوب التي تتخلل أراضى المسلمين ظنا منه أن الحصون الساحلية من اليسير حصارها برا وبحرا ، ولكن جانبه الصواب في هذا الظن أيضا ، إذ تمكن عسكر الفرنج من تأسيس قاعدة صليبية قوية بها شكلت خطرا وبيلا للمسلمين ، وتصدت لهجوم صلاح الدين ولم يتمكن من الاستيلاء عليها.

وهنا نتساءل ما الذي كان يجب أن يفعله صلاح الدين تجاه أهالي تلك المدن؟ نرى أنه كان يجب أن يستبقيهم في المدن المفتوحة على أن يكونوا أشبه بأسرى الحرب أو يسمح لهم بالتجمع في مدينة داخلية بعيدة عن الساحل ويفرض عليهم مراقبة شديدة حتى لا يسهل لهم الاتصال بالفرنج في أوربا مثلما حدث في صور .

وهكذا ظلت صور وطرابلس وإنطاكية في الشمال في يد الصليبيين وبعض القلاع المتناثرة .

الفصل الثاني

الحملات الصليبية على مصر والشام

الحملة الصليبية الثالثة

الحملة الصليبية الرابعة

الحملة الصليبية الخامسة

الحملة الصليبية السادسة

الدولة الأيوبية بعد انتهاء الحملة السادسة

الفصل الثانى
الحملات الصليبية
الحملة الصليبية الثالثة

كان لسقوط بيت المقدس في أيدي المسلمين أثرا كبيرا في إثارة حماس أوربا من جديد ، حيث خرج بطريرك بيت المقدس الذي سمح له صلاح الدين بالخروج منها آمنا ليطوف في أوربا ومعه صورة عربي يضرب المسيح ليحث الصليبيين على الانتقام من المسلمين[1] ، وتبنى أيضا جوسياسي رئيس أساقفة صور الدعوة إلى حرب صليبية ، فوصل بلاط وليم الثاني ملك صقلية النورماني فاستجاب له وأرسل له أسطولا يحمل بضعة مئات من الفرسان إلى طرابلس[2] 0

أرسل البابا - جريجوري الثامن - إلى زعماء أوربا يستحثهم على إرسال حملة صليبية كبرى لنجدة الصليبيين في الشام ، والعامل الديني لم يكن المحرك الأساسي لهذه الحملة ، وإنما حركتها عوامل سياسية.

مضت سنتان ونصف السنة كفترة إعداد للحملة الصليبية الثالثة وتزعم حركة المقاومة في بلاد الشام كونرادي مونتفرات الذي هرب من القسطنطينية أثر تورطه في جريمة قتل ، وذهب إلى الشرق متجها إلى عكا ولكنه وجد المسلمين قد استولوا عليها فأتجه نحو صور ، وكان وصوله إلى صور بمثابة الروح الجديدة التي دفعت الصليبيين إلى الاعتراف بزعامته مقابل الدفاع عن مدينتهم[3] 0

تكللت سفارة جوسياسي بالنجاح ، حيث عظم على الفرنج الوضع في بلاد الشام فحشدوا حشودهم حتى النساء خرجن للقتال ومن لم يستطيع الخروج أستأجر من خرج عوضا عنه ، أو يعطيه مالا للمشاركة في الحرب ، ولما عظمت جموعهم واكتملت حشودهم انتهى الأمر بإرسال حملة صليبية نحو الشرق: هي الحملة الصليبية الثالثة.

مات البابا جريجوري الثامن قبل أن يرى نتيجة عمله ، وفى تلك الأثناء كان الملك الألماني فردريك بربروساو برفقته كبير أساقفة صور جوسياي الذي وصل إلى الغرب في طلب النجدة يعبران جبال الألب للقاء ملك فرنسا وملك إنجلترا[4] ، وأخيرا تم تكوين الحملة وكان يقودها ثلاثة من كبار ملوك أوربا في ذلك الوقت هم:

- فردريك بربروسا إمبراطور الدولة الرومانية - ملك ألمانيا.
- ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا.
- فليب أغسطس أو جست ملك فرنسا.

اتجهت الحملة الصليبية الثالثة نحو الشام على مراحل ومن طرق مختلفة:

سارت قوات الإمبراطور الألماني فردريك التي بلغت مائة ألف مقاتل عبر الطريق البرى الذي سارت عليه من قبل قوات الحملة الصليبية الأولى وذلك بمقتضى اتفاقات ومعاهدات عقدها الإمبراطور فردريك البالغ من العمر سبعين عاماً مع حكام المجر وبيزنطة ، وأسيا الصغرى[5].

وما كادت جيوشه تصل إلى حدود الإمبراطورية البيزنطية حتى تغير عليه الإمبراطور البيزنطي "اسحق انجيليوس" ، الذي لم يرحب بمقدم هذا الإمبراطور ومعه جيشه الصليبي ، بل كان يخشى جنود فردريك الذين نهبوا بلاده وخربوها أثناء مرورهم

بها ، وكان يرتاب في نوايا فردريك ، إذ لم تكن الثقة متبادلة بين الإمبراطورية ، ومن ثم أخذ "اسحق" يثير مختلف العراقيل في طريق الجيش الألماني فلم يزودهم بالعتاد ، وضيق عليهم الأقوات ، كما أمر بقطع الأشجار الضخمة ووضعها في الممرات والطرق والمسالك لتسدها وتشل تحركات الجيش الألماني وتقدمه في أراضى الإمبراطورية البيزنطية كما وضعت الخطط لاختطاف كل من يتخلف أو يخرج عن صفوف الجيش[6] ، فأنكر فردريك هذا العمل من قبل بيزنطة وكتب إلى ابنه في ألمانيا يطلب إليه حشد أسطول من موانى إيطاليا ، وأن يلتمس من البابا الموافقة على إثارة الحرب ضد إمبراطورية بيزنطة ، ولم ينقذ القسطنطينية من هجوم الألمان إلا خضوع الإمبراطور البيزنطي ، وتعهده بإطلاق سراح رهائن فردريك وأمده بالسفن اللازمة لاجتياز الدردنيل إلى أسيا الصغرى[7].

واصل فردريك سيره حتى وصل إلى بلاد الأرمن وأتخذ الجيش الألماني طريقة إلي الحدود التركية الأرمينية ، فنزل طرسوس وأقام بها أياما للراحة ، ثم واصل السير حتى وصل إلى سهل سلوقية وأستعد لاجتياز نهر سيليف selef فسار الإمبراطور العجوز في مقدمة الجيش فحاول أن يسبح في النهر لاستعادة نشاطه بالمياه الباردة ، فكان التيار أقوى منه بحيث جذبه بعيدا وغرق[8] 0

كانت وفاة فردريك خسارة فادحة لحقت بالجيش الصليبي قبل أن يصل إلى هدفه ، حيث بدأ في التمزيق ولم يستطع فردريك أمير سوابيا ابن الإمبراطور الراحل أن يمنع هذا الانهيار المادي والمعنوي بحيث تعذر على هذا الدوق المشاركة الفعالة في هذه الحملة ، وانتهى الأمر بالألمان بالمشاركة الرمزية في الحملة الصليبية الثالثة وخاصة أن هذه الجنود المتبقية من الجيش الألماني تعرضت في الطريق من إنطاكية إلى عكا للكثير من هجمات المسلمين وبخاصة من أهل حلب الذين أوقعوا بهم خسارة فادحة ، وأسروا عددا كبيرا منهم وبيعوا في الأسواق بالثمن البخس[9].

سار ابن فردريك بما تبقى من قوات أبيه من إنطاكية طالبا عكا على طريق اللاذقية ولم يصل إلي عكا سوى أعداد قليلة من هذا الجيش وصل عددهم حوالي خمسة آلاف جندي[10] ، وكان ابن فردريك ركب البحر من طرابلس إلي عكا ، فوصلها في رمضان 586هـ/أكتوبر1190م[11].

وبعد أن وصل دوق سوابيا ـ أبن فردريك - بشراذم الجيش الألماني إلي الأراضي المقدسة ، وبدأت الجيوش الصليبية تتزايد ثم وصل جيش فيليب أغسطس الفرنسي وريتشارد قلب الأسد ، وقد أبحر من غرب أوربا[12].

فقد أبحر فيليب أغسطس من صقلية في أسطول صغير لا يتجاوز ست بطسات كبار، فوصل إلي عكا ، أما ريتشارد ملك إنجلترا فقد أبحر من صقلية إلي قبرص ، وكان يتولاها أمير يوناني مستقل عن الدولة البيزنطية أسمه اسحق ، وأستقبل ريتشارد استقبالاً عدائياً فطلب ريتشارد بعض الإمدادات ، ولما وصلت إليه تمكن من الاستيلاء على قبرص بعد أن غدر بصاحبها ، فكان ذلك زيادة في ملكه وقوة للفرنج[13] ، حيث اتخذها الصليبيون قاعدة لهم لشن الكثير من الحملات الصليبية في بلاد المسلمين ووصل ريتشارد ساحل عكا بعد شهرين من وصول الجيش الفرنسي بقيادة فيليب أغسطس إليها ، وبدأت أحداث ومعارك الحملة الصليبية الثالثة التي استمرت على مدي عامين كانت عكا خلالها هي محور الصراع[14] 0

بدأ صلاح الدين ينتبه لخطورة الموقف مع تواجد الجيوش الصليبية وأخذ يجمع قواته مرة أخري ، وجاء هو بنفسه على رأس جيش كبير من بلاد الشام ، وحدثت معركة تمهيدية بين المسلمين والصليبيين أمام أسوار عكا وكان النصر فيها حليفاً للمسلمين ولكنه لم يكن نصراً حاسما[15].

سقوط عكا (587هـ /1191م):

ظلت الحرب قائمة أمام أسوار عكا بين المسلمين والفرنج ، وقد لجأ صلاح الدين إلي كل الوسائل الممكنة من أجل إيصال الإمدادات إلي أهل عكا ، ولكن مع بداية الربيع من سنة 587هـ/1191م بدأت المدينة تضعف ضعفا واضحاً أمام هذا الحصار وظهر الوهن في نفوس أهلها ، وفي الوقت الذي ارتفعت فيه روح الفرنج المعنوية بوصول فيليب أوغسطس ، وريتشارد قلب الأسد ، وتكاثر الفرنج على عكا برا وبحراً وأحكموا عليها الحصار ، حتى أن السفن المصرية لم تتمكن من توصيل الإمدادات إلي عكا ، وحاولت بطسة مصرية توصيل بعض الأطعمة إلي حامية عكا فاضطر بحارتها وعددهم 700 بحارا إلي إغراقها وغرقوا معها ، وبذلك ضاع كل أمل في إنقاذ عكا ، وفى نهاية الأمر لم يستطيع أمير عكا على بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب الصمود ، ولاسيما أن العدو تمكن من نقب أسوار عكا في مواضع مختلفة وتدفقوا من خلالها داخل المدينة[16].

وأرسل أهل البلد إلي صلاح الدين أن الأمر ضاق بهم وتيقنوا أنه متي أخذ البلد عنوه ضربت رقابهم عن أخرهم ، ومن ثم بدأت المفاوضات بين على بن أحمد الهكارى وبين رؤساء الفرنج وتم الأنفاق على الشروط الآتية:

1- أن تسلم المدينة للفرنج بما تحويه من آلات وعدد وأسلحة.
2- أن يدفع الأهالي مائتي ألف دينار من الذهب فدية لأسري المسلمين بها
3- أن يطلق سراح ألف وخمسمائة فارس من الفرنج ومائة فارس معروفة أسماؤهم.
4- أن يرد للفرنج صليب الصلبوت.
5- أن يدفع المسلمون أربعة عشر ألف دينار للمركيس صاحب الصور.
6- أن يخرج المسلمون من المدينة سالمين[17].

وتم بالفعل تسليم المدينة في 17 جمادى سنة 587هـ/12يوليو1191م بعد مقاومة عنيفة دامت نحو ثلاث سنوات وحزن صلاح الدين لسقوطها حزنا شديدا.

ولكن الفرنج خنثوا بعهودهم ولم ينفذوا شروط الصلح إذ رفضوا تسليم أسري المسلمين إلا بعد أن يأخذوا الفدية كلها ، فلما عرض عليهم المسلمون نصف الفدية مقدما ونصفها الثاني بعد الإفراج عنهم أصر الفرنج على موقفهم[18] ، فبدأ الشك يتسرب في نفوس المسلمين ، وأيقن صلاح الدين بأنهم يريدون المال ليتقووا به أولاً ويطلقون الفقراء من أسري المسلمين ويحتفظون بكبار رجال المسلمين ليطالبوا بفديات أخري عنهم ، ورفض صلاح الدين الإنفاق على هذا النحو، فأنتقم ريتشارد من صلاح الدين بقتل ثلاثة آلاف أسير من المسلمين الفقراء ، وأدي هذا التصرف الوحشي من جانب الفرنج إلي استئناف القتال من جديد[19].

نتائج سقوط عكا:

- كان لانتصار الفرنج في معركة عكا واستيلائهم عليها أثر كبير في رفع معنوياتهم بعد كسرهم في حطين.
- كما تسبب سقوط عكا في هبوط الروح المعنوية عند المسلمين فتخاذلت عزائمهم وتلاحقت هزائمهم.
- أصبحت عكا أهم قواعد الفرنج البحرية في الشام والمركز الصليبي الرئيسي لإمداد القوي الصليبية بالعتاد والأقوات.
- أعاد الصليبيون إليها جماعة فرسان الاسبتارية للدفاع عنها[20].

الموقف بعد سقوط عكا:

في المعسكر الصليبي دب نزاع بين الفرنج أنفسهم واشتدت رغبة فيليب أغسطس في العودة إلي فرنسا ، لاسيما أنه قام بالنصيب الأكبر في منازلة عكا واستردادها ويضاف إلي ذلك ما أحس به من المهانة من قبل ريتشارد الذي طغت شهرته على شهرة سائر الملوك والأمراء ، وليس له أمل في منافسة ريتشارد في مجد حربي إذا ما واصل القتال بين عكا وبيت المقدس.

هذا بجانب مصالح فيليب في فرنسا والتي اقتضت عودته ولهذه الأمور رحل فيليب إلي صور ولم يلبث أن غادرها إلي برنديزي بعد ثلاثة أيام ، وبرحيل فيليب أغسطس صار مستقبل الحملة الصليبية الثالثة في يد ريتشارد قلب الأسد[21] .

اتخذ صلاح الدين معسكره بعد سقوط عكا في تلال سفرعم التي تسيطر على طريقين هامين الأول يتجه شرقا إلي طبرية ودمشق والثاني يتجه نحو الجنوب الشرقي مجتازا الناصرة إلي بيت المقدس، بينما وضع ريتشارد خطته على أساس أن يهبط على الساحل حتى يافا وعسقلان بعد أن يقيم لها قاعدة حصينة يتوجه إلي بيت المقدس ، ووقع الاختيار على عسقلان لتكون أول ما يهاجمه من البلاد بعد سقوط عكا ، نظرا لأهمية اتخاذها قاعدة لمهاجمة بيت المقدس[22].

اضطر صلاح الدين أمام ذلك إلي هدم الحصون الساحلية وتخريبها مثل حصن الرملة وحصون عسقلان ، ثم رأى صلاح الدين أن الدفاع عن بيت المقدس الهدف الرئيسي للصليبيين وأهم وأجدى من الدفاع عن سواحل فلسطين ، فترك الساحل وأتخذ خطا دفاعيا في داخل البلاد وسار إلي بيت المقدس حيث بدأ في تحصين المدينة وتعمير أسوارها وحفر خنادقها ، وشارك صلاح الدين في هذه الأعمال مع أولاده وعساكره وقضاته والصوفية والزهاد[23] 0

وكان ريتشارد في هذه الآونة قد استولي على أرسوف587 هـ/1191م بعد أن أوقع بالمسلمين هزيمة نكراء فانسحبوا إلي الداخل للدفاع عن بيت المقدس بعد أن خربوا عقسلان والقلاع الساحلية وتقدم ريتشارد جنوبا فوجد القلاع كلها مخربة ، واشتبك مع المسلمين في يافا ، فقاوموه مقاومة ضارية حتى كاد يقع أسيرا وافتداه بعض الأجناد بنفسه فتخلص الملك وأسر ذلك الرجل[24] ، ثم تابع ريتشارد سيره جنوبا حتى قارب الحدود المصرية ، وقبل أن يتجه إلي بيت المقدس بلغته أنباء سيئة عن بلاده بأن أخاه كان يسعى لاغتصاب المملكة أثناء غيابه بتحريض من ملك فرنسا ، وكان المسلمون قد أخذوا يستعدون للقاء الفرنج بعد أن استعادوا قواهم وأحرزوا فعلا بعض الانتصارات ، فأدرك ريتشارد أخيرا أنه لا يمكنه أن ينتصر على قوم داخل بلادهم[25].

ومن الأسباب التي أدت إلي تراجع ريتشارد عن مواصلة زحفه إلي بيت المقدس انصياعه لنصيحة فرسان الداوية والاسبتارية واليار وقات بأنه إذا أقدم على شن هجوم على بيت المقدس تعرض للوقوع فريسة لجيش صلاح الدين ، ولذا اضطر ريتشارد ورجاله إلي الارتداد إلي الرملة التي كان صلاح الدين قد خربها ، ومنها إلي عسقلان المخربة أيضا ، حيث أقام بها أربعة شهور ، عمل خلالها بتحصين عسقلان حتى أصبحت أقوى حصن على ساحل فلسطين ، ولهذه الأسباب مجتمعة فاوض ريتشارد صلاح الدين في الصلح وأرسل إليه قائلا: **" قد أهلكنا نحن وأنتم والأصلح أن نحقن الدماء ، ولا ينبغي أن تعتقد أن ذلك عن ضعف منى ، بل أريد المصلحة .. ثم لا يجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم ، ولا يجوز لي أن أهلك الفرنج كلهم.."** ، فأستشار صلاح الدين الأمراء والقواد فوافقوه على الصلح مع ريتشارد ، وكتب صلاح الدين إلي ريتشارد قائلا: **"إنك إذا دخلت معنا في هذا الأمر فما جزاء الإحسان إلا الإحسان.."**[26] 0

واستمرت المفاوضات بين الطرفين حتى انتهت بتوقيع صلح الرملة في 22 شعبان سنة 588هـ/2 سبتمبر 1192م وأهم شروطه الآتي:

1. أن يحتفظ الفرنج بمنطقة الساحل من عكا إلي يافا.
2. تكون عسقلان بعد تخريبها وما يليها من الجنوب ضمن أملاك صلاح الدين.
3. يسمح للحجاج الصليبيين بزيارة بيت المقدس.
4. اشترط صلاح الدين دخول الإسماعيلية (الباطنية) في الصلح .
5. ينعقد الصلح لمدة ثلاثة سنوات وثلاثة شهور ابتداء من يوم الأربعاء 2 سبتمبر.
6. اشترط صلاح الدين دخول صاحب إنطاكية وطرابلس في الصلح[27].

قوبل صلح الرملة بالارتياح من الجانبين بعد أن حملوا جميعا تلك الحرب الطويلة التي لم تنته إلي نتيجة حاسمة وبعد أن أصبح الطريق إلي الحجاز مفتوحا أمام المسلمين ، والطريق إلي بيت المقدس مفتوحا أمام المسيحيين ، ويذكر أنه عند إعلان الصلح كان يوما مشهودا عم فيه الطائفتين الفرح والسرور لما نالهم من طول الحرب[28].

وبهذا الصلح يبدأ عهد جديد من العلاقات الطيبة بين المسلمين والفرنج ، فاختلط العسكر واختلطت التجارة ثم عاد ريتشارد إلي بلاده سنة 588هـ/9أكتوبر سنة 1192م[29] ، واكتشف أن جميع الطرق كان يسدها أعداؤه الأوربيون وعندما حاول الرجوع عن طريق ألمانيا قبض عليه وأودع في السجن رهن فدية طلبها هنري السادس ملك ألمانيا[30].

كان حصاد الحملة الصليبية الثالثة هزيلا بالقدر الذي خيب أمال الأوربيين والفرنج المقيمين في الشرق الإسلامي جميعا ، وسرعان ما تحولت الآمال الكبيرة التي عقدت على هذه الحملة إلي يأس واتهامات حادة للزعماء الصليبيين ، وذلك أن الفترة التي قضاها الأوربيون في الإعداد لهذه الحملة ولمدة عامين لم تكن لتقارن بتلك النتائج الهزيلة التي حققتها الحملة[31].

وعلى الجانب الإسلامي فقد صار صلاح الدين إلي بيت المقدس بعد عقد صلح الرملة ، وأمر بإحكام بنيان أسوارها وأقام المدرسة والرباط والبيمارستان وغير ذلك من مصالح المسلمين ثم رحل إلي دمشق مارا بنابلس وطبرية وصفد وتبنين وبيروت ، وفى بيروت زاره بوهمند صاحب أنطاكيه ، وتابع صلاح الدين رحلته حتى وصل إلي دمشق فوصلها في 25 شوال سنة 588هـ/1192م بعد طول غيبه استمرت نحو أربع سنوات

وأقام بها شهورا للراحة ثم مرض بالحمى مرضا شديدا استمر ثمانية أيام في شهر صفر سنة 589هـ وتوفى في يوم 27 صفر سنة 589هـ/4 مارس سنة 1193م وكان عمره 57 سنة[32].

الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين:

لما توفى صلاح الدين الأيوبي توارت عن الأنظار شخصية ظلت ملئ العين والقلب ولها هيبتها من جميع المعاصرين ، وقد أدت وفاته إلي انقسام دولته في الحال إذ لم يكن هناك مبدأ ثابت لتوارث العرش ، بحيث ينتج عن ذلك استقرار أو تناسق داخلي يشد أركان هذه الدولة الشاسعة إلي بعضها ، ولم يكن تاريخ الأيوبيين بعد وفاته سوي أحداث ومنازعات ومؤامرات وحروب بين أفراد الأسرة الأيوبية فكل منهم يطمع في توسيع رقعته على حساب غيره مما جعل الصراع بين المسلمين والصليبيين يأخذ طابعا جديد ، وما حصل عليه الصليبيون بالوسائل الدبلوماسية فاق ما حصلوا عليه بواسطة الحروب[33].

تقسيم الدولة الأيوبية:

جرت عادة صلاح الدين أن يبذل ويوزع ما يفتحه من البلاد على أقاربه ولم يكن يري في التولية أو العزل غير صالح الأمة ، وبالرغم من تجرده من الأغراض الشخصية إلا أنه رأي أن الوسيلة الوحيدة التي يتحقق بها هدفه هو أن يجعل السلطة كلها في يديه ، يعهد بها من يثق به من الأفراد ، وكان أقرب الناس إليه أخوته وأبناء أخوته ، وذلك لأن أولاده كانوا لا يزالون صغار السن.

ولما تم لصلاح الدين الاستيلاء على حلب سنة 579هـ/1183م رأي أن يعيد تنظيم دولته ، وذلك بعد أن أشتد ساعد أولاده ، فكتب وصيته الأولى سنة580 هـ/1148م التي قرأت في دمشق وتتضمن ولاية ابنه الملك العزيز عثمان لمصر بوصاية ابن عمه تقي الدين عمر، وولاية أبنه الأفضل وكان عمره 15 سنة للشام بوصاية من عمه الملك العادل صاحب حلب على أن تكون مدة الوصاية الوقت الذي يري المسلمون فيه أن أولاده أصبحوا قادرين على الاستقلال بالحكم على أن يبقى للوصيين ما بأيديهم من إقطاع[34].

على أن ما استشعره صلاح الدين من طموح أقاربه وتطلعهم إلي السيطرة والسلطان جعله يعيد النظر في وصيته قبل إقدامه على قتال الصليبيين سنة 583هـ/1186م ، بحيث قرر تعديل وصيته الأولى كالأتي:

- أن يتولى أبنه العزيز عثمان سلطانا على مصر ويكون العادل أتابكه ومربيه والقائم بتدبير أموره كلها.
- أن يتولى أبنه الظاهر حكم حلب التي كانت بيد أخيه العادل.
- ابنه الأفضل يتولى دمشق والساحل وبيت المقدس ، وبعلبك وصرخد و بانياس.

أما أخواته:

- الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب *أخو صلاح الدين* يتولى الكرك والشوبك والبلاد الشرقية والأردن وبعض مناطق أعالي الفرات ، هذه الإقطاعيات التي نالها الملك العادل لم تكن تتناسب مع مواهبه ومهارته العسكرية والسياسية والدبلوماسية[35].
- الملك العزيز سيف الإسلام ظهر الدين طغتكين بن أيوب في اليمن.

- المنصور ناصر الدين محمد بن الملك تقي الدين عمر يتولى حماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم الدين.
- الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه ابن تورانشاه أخو صلاح الدين في بعلبك.
- الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه يتولى حمص والرحبة وتدمر.
- وفي بصري الملك الظاهر خضر بن صلاح الدين بن أيوب وكان في خدمة أخيه الملك الأفضل أي تابعا له.
- وفي شيزر وأبو قبيس الأمير سابق الدين عثمان بن الدايه[36].
- وفي صهيون وحصن بزرية تولي الأمير ناصر الدين منكورس بن خمار تكين.
- وفي تل باشر تولي الأمير بدر الدين سلدرم بن بهاء الدين ياروق.
- وتولي الأمير عز الدين أسامة في كوكب وعجلون
- وتولى الأمير عز الدين إبراهيم بن شمس الدين بن المقدم في بعرين وكفر طاب وحصن أفامية[37].

لم تمض سنة واحدة على وفاة صلاح الدين حتى دب الشقاق بين أولاده وسائر أفراد أسرته وهي حرب الوراثة ، فحاصر العزيز دمشق ، وتدخل العادل والظاهر صاحب حلب في وقف النزاع بين الأخوين غير أن الحرب نشبت بينهم مرة أخرى وطارد الأفضل وعمه العادل أخاه العزيز داخل الأراضي المصرية حتى بلبيس[38] .

وكان السبب في هذا الصراع بين الأخوة هو محاولة تطبيق مبدأ اعتبار المملكة أرثا خاصا يقسم أنصبة متساوية بين أبناء المالك ، كما يرجع أيضا إلي حرص صلاح الدين على أن تكون أهم أقاليم المملكة لأبنائه دون غيرهم قبل أخيه وهو أقدر منهم على إدارة البلاد.

اغتم الملك العادل لوقوع المنازعات بين أبناء أخيه للاستحواذ على السلطة ، ولم يمضى على وفاة صلاح الدين سوى سبع سنوات حتى طوي العادل معظم أولئك الأبناء ، وحل محلهم على رأس دولة موحدة وأنتزع دمشق وما هو مضاف إليها من القلاع والحصون والأعمال من يد الملك الأفضل سنة 592هـ/1195م وأسكنه قلعة صرخد[39] .

وهكذا أتيحت الفرصة للملك العادل وهو رجل طموح الذي كان يرجو ، أن يخلف صلاح الدين فأخذ يتدخل ليحقق أهدافه الخاصة ، وقد وصف ابن واصل الملك العادل بأنه **"كان ذا مكر شديد وخديعة صبورا ذا أناة وتؤدة"**[40] ، فلم يشأ أن يتعجل الحوادث عقب وفاة أخيه صلاح الدين ، وأخذ يتصرف بأناة ريثما تتضح له الأمور ، فألتقي بالأفضل ابن أخيه وبالملك الظاهر صاحب حلب والمنصور محمد صاحب حماة وأسد الدين شيركوه صاحب حمص ، والأمجد صاحب بعلبك ، واتفق هؤلاء جميعا على منع العزيز من الاستيلاء على دمشق علما منهم أن العزيز أن ملكها أخذ بلادهم ، وعندئذ أدرك العزيز أنه لا قدرة له على مقاومة أولئك الأمراء جميعا ، فأنصرف عائدا إلى مصر بعد أن اجتمع مع عمه العادل ، فطيب العادل نفسه وأعطاه إحدى بناته ليتزوجها[41].

وهكذا أخذ العادل يبدو في صورة الشخصية الكبرى الحريصة على وحدة البيت الأيوبي والمحافظة على الكيان الإسلامي أمام الأخطار الخارجية[42]0

مصر في عهد العزيز عثمان:

حكم العزيز عثمان مصر ما يقرب من خمس سنوات (589-595هـ) ، وكان قبل ذلك يحكم مصر باسم أبيه ، تسلطن على مصر باتفاق الأمراء وأعيان الدولة في مصر[43].

ولد العزيز عثمان بالقاهرة ، اتسم بالعدل واستقامة الحكم ، وصفه ابن خلكان بقوله **" كان ملكا مباركا ، كثير الخير ، واسع الكرم ، محسنا إلى الناس"** [44] ، وعلى الرغم من أن مصر ظلت خلال فترة حكمه كما كانت أيام صلاح الدين - قلب الدولة الأيوبية - إلا أن أحوالها الاقتصادية تأثرت إلى حد كبير بسبب انخفاض النيل في سنتي (591-592هـ) ، وما ترتب على ذلك من نقص الغلال وانتشار الوباء فهلكت المواشي ، وكثر الزحام في الأسواق على الخبز لقلته ، وكثرت الطرحى من الأموات على الطرقات ، وزادت عدتهم بمصر والقاهرة في كل يوم عن مائتي نفس ، وبقى بمصر من لم يوجد من يكفنه ، وأكثرهم يموت جوعا[45] ، ويبدو أن انشغال العزيز عثمان بالنزاع مع أخيه الأفضل في ذلك الدور لم يساعد على سرعة وضع حد لتلك الأزمة التي كان لها تأثير كبير في أحوال البلاد[46].

وكان الملك العزيز عثمان قد توفى شابا وعمره لا يتجاوز 27سنة ، وكانت وفاته سنة 595هـ/1198م بسبب سقوطه من فوق جواده أثناء خروجه للصيد ، فحمل إلي قصره محموما ثم مات[47] .

وكان المنصور قد خلف والده العزيز ، ولم يكن قد تجاوز العاشرة من عمره فاتفق رأى أمراء الدولة على مكاتبة الملك الأفضل ليحضر إلي مصر ، وكان مقيما بقلعة صرخد مع أهله بعد إبعاده عن دمشق ، فلبى الأفضل وجاء إلي مصر وتولى الأتابكية للمنصور ، ثم اتفق الأفضل مع أخيه الظاهر صاحب حلب على استرداد دمشق من عمهما وقاما بحصار دمشق[48].

ولكن العادل استطاع أن يتغلب عليهما وسار من دمشق إلي مصر وعفا عن ابن أخيه الملك الأفضل وأعاده إلي قلعة صرخد مرة أخري[49] .

ولما أستقر الملك العادل بالقاهرة تولي أتابكية الملك المنصور غير أن ذلك لم يستمر أياما فقد أحضر الملك العادل أمراء الدولة وقال لهم **" أنه قبيح بي أن أكون أتابكا لصبي مع الشيخوخة والتقدم والملك ليس هو بالإرث وأنما هو لمن غلب وأنه كان يجب أن يكون لي بعد أخي الملك الناصر صلاح الدين غير أنى تركت ذلك إكراما لأخي ورعاية لحقه ، فلما كان الاختلاف ما قد عملتم خفت أن يخرج الملك من يدي ، ويد أولاد أخي فسست الأمر إلي آخره فما رأيت الحال يصلح إلا بقياس فيه ، والنهوض بأعبائه ، والرأي أن يمضى الصبي إلي الكتاب ، وأقيم له من يؤدبه ويعلمه فإذا تأهل وبلغ أشده ، نظرت في أمره وقمت بمصالحه"** [50].

وهكذا وصل الملك العادل إلي عرش السلطنة ، ونودي به رسميا سلطانا على مصر وبلاد الشام ، وأعترف به الجميع ما عدا الملك الظاهر غازي صاحب حلب ، وعلى الرغم من أن العادل نادي بأن الحكم ليس وراثيا إلا أنه لم ينادي بذلك إلا خدمة لمصالحه الخاصة ، بدليل أنه جعل الحكم وراثيا من بعده في أبنائه.

- فتولي ابنه الكامل محمد ملك مصر والأعمال الشرقية.
- وولي ابنه المعظم عيسي ملك دمشق وفلسطين والقدس والكرك والشوبك وصرخد.
- وابنه الأشرف موسى تولي خلاط وميافارقين[51].

- الملك الظاهر ابن صلاح الدين يتولى حلب واتباعها.
- الملك المنصور بن تقي الدين عمر تولي حماة وأعمالها والمعرة وسليمة وبعرين.
- الملك المجاهد أسد الدين شيركوه تولي حمص والرحبة وتدمر.
- الملك الأمجد بن فروخ شاه تولي بعلبك وأعمالها.
- الملك الأفضل بن صلاح الدين تولي سميساط وبلادها.

تشبه الملك العادل بأخيه صلاح الدين في تقسيم دولته قبل وفاته وفى اهتمامه بأبنائه دون غيرهم ، فقسم دولته بين أبنائه ، واحتفظ لنفسه بنوع من السيادة العليا حيث كان يتردد بين أولاده وينتقل من مملكة لأخرى ، وله الحرية المطلقة في تصريف الأمور، فضلا عن الأشراف العام على باقي الأمراء الأيوبيين ، وأقام نفسه سلطانا على الدولة الأيوبية كلها طوال فترة حكمه الذي استمر 18 سنه (597-615هـ/1200-1218م) ، وظلت الزعامة في سلالته دون غيره من أبناء البيت الأيوبي وعندما توفى الملك العادل سنة 615هـ/1218م أقتسم أبناؤه دولته الواسعة وفقا للوصية التي كتبها بنفسه[52].

وجاءت القسمة كما أردها:- إذا استقر الملك الكامل بمصر ، والملك المعظم بدمشق ومدن الساحل بالشام وبيت المقدس.
- واستقر الأشرف موسى في خلاط وأعالي الفرات.
- والعزيز عثمان في بانياس.
- المظفر غازي في ميافارقين.
- الصالح إسماعيل في بصري.
- الحافظ أرسلان في جعبد.
- المسعود بن الملك الكامل في اليمن.
- أما ما عدا هؤلاء من أبناء الملك العادل وسائر أبناء البيت الأيوبي فقد قنعوا بولاياتهم الصغيرة.

الحملات الصليبية واتجاهها نحو مصر

1. الحملة الصليبية الرابعة

لم تتمكن الحملة الصليبية الثالثة من تحقيق أهدافها ، وكانت نتائجها ضئيلة لا تتناسب مع حجمها وقوتها.

وقد جعل الغربيون هدفهم ضرورة الاستيلاء على مصر لأن مصر هي مفتاح بيت المقدس ، وأنه إذا أراد الغربيون أن ينعموا بحياة آمنة في بلاد الشام فعليهم السيطرة على مصر أولا[55].

وعلى الرغم أن هدف هذه الحملة كان الاستيلاء على مصر إلا أنه تضافرت عوامل عدة جعلت هذه الحملة تنحرف عن مسارها وتتجه جهة جديدة ، كان ضمن هذه العوامل مطامع البنادقة ومتطلبات سياستهم الاقتصادية.

أحداث الحملة:

رأى قادة الحملة التوجه إلي الشام مباشرة للاستيلاء على بيت المقدس من أيدي المسلمين وتحقيق ما عجزت الحملة الثالثة عن تحقيقه ، وتحمس هؤلاء القادة للإبحار مباشرة إلي عكا[56] ، إلا أن فريقا آخر من القادة رأي أنه من الأفضل توجيه الهجوم إلي

مصر مباشرة باعتبارها مركز القوى الرئيسي للمسلمين ، والتي أمدت صلاح الدين بالجند والمؤن لمحاربة الصليبيين ، فإذا فرغوا من الاستيلاء على مصر فإن ذلك يسهل لهم الاستيلاء على بيت المقدس ، وأمنوا الجبهة الجنوبية لفلسطين ، وانتهي الأمر بتوجيه الهجوم إلي مصر[57].

كان على الصليبيين أن يدبروا أمر نقل جنودهم إلي مصر ، واتفق زعماء الحملة مع البندقية ودوقها هنري داندولوDnadolo وعقدوا معه اتفاقا يقضي بنقلهم إلي الشواطئ المصرية على أن يدفعوا له مبلغ 85 ألف مارك مقابل ذلك ، وأخذ جنود الحملة يحتشدون في البندقية سنة 599هـ/1202م[58].

لم تكن البندقية تهتم سوي بمصالحها المادية مع علمها بعجز قادة الحملة عن دفع المبلغ المتفق عليه ، ولهذا حاول دوق البندقية أن يستغل عدم قدرة الصليبيين على سداد المبلغ المطلوب ، فاقترح عليه أن يقوموا بمساعدته في الهجوم على مدينة زارا الخارجة عليه وكانت تابعة له من قبل ، ثم انتزعها منه ملك هنغاريا[59].

وإذا تم الاستيلاء عليها يقوم بإعفاء الحملة من دفع رسوم نقلها على سفنه.

دفع دندولوا إلي هذا التصرف عوامل كثيرة منها:

- أنه كانت هناك منافسة تجارية وسياسية بين البندقية والقسطنطينية.
- كان دوق البندقية يخشى على مصالح البندقية التجارية مع مصر لو أن هذه الحملة اتجهت إلي مصر.
- كان لسياسة الملك العادل الحكيمة أثرها في تحويل هذه الحملة عن مصر والشام إلي القسطنطينية ، حيث أنه أرسل إلي البندقية سفارة في ذلك الوقت تحمل إلي رؤسائها بعض الهدايا لإبعاد الحملة عن مصر والشام.
- كان الملك العادل قد عقد معاهدة تجارية مع البنادقة منحهم فيها الكثير من الامتيازات التجارية في مصر مقابل أن تتعهد البندقية بمنع أي حملة تريد الوصول إلي مصر[60].

اقنع دندولوا الصليبيين بأنهم لن يستطيعوا الذهاب إلي الأراضي المقدسة خلال فصل الشتاء ، وأقنعهم بأن الاستيلاء على زارا سيوفر لهم الكثير من المؤن والزاد التي يحتاجون إليها في رحلتهم إلي الشرق[61].

تم للصليبيين والبنادقة الاستيلاء على زارا واقتسما الغنيمة ، وبعدها بدأ الصليبيون يتعجلون البنادقة للإبحار إلي مصر[62] ، غير أن الأمور تبدلت وذلك حينما نشب صراع بين أفراد الأسرة المالكة في القسطنطينية ، أطاح بالإمبراطور اسحق الثاني ، واستعان الإمبراطور بالبابوية ووعدهم بأنه لو استرد عرش والده فسوف يخضع الكنيسة الشرقية لسلطة البابوية[63].

ومن ناحية أخري طالب مساعدة الصليبيين على أن يساعدهم في حملتهم على مصر إذا نجحوا في إعادة عرش والده بأن يدفع لهم مائتي ألف مارك ، ويمون أسطولهم لمدة عام على نفقته ، وأنه سوف يرافقهم على رأس قوات مكونة من نحو عشرة آلاف رجل وينفق عليهم من ماله الخاص[64] ، كما وعد البنادقة بدفع مبالغ كبيرة لهم .

قبلت البابوية هذا العرض:

وافق البنادقة على غزو القسطنطينية ، لأن منافسيهم من الجنوية كانوا قد حصلوا على امتيازات تجارية كثيرة منها ، واعتبرت هذه الغزوة ثأرا لحرمانهم من الامتيازات التجارية في القسطنطينية[65] ، أزاح الصليبيون الإمبراطورية البيزنطية وأقاموا إمبراطورية لاتينية غربية في القسطنطينية ، وذلك سنة 606هـ/1209م ، ولكن حدثت بعض الأعمال بين الصليبيين والبيزنطيين التي أساءت العلاقات بينهما حيث اندلعت المشاحنات بين السكان الأصليين وبين اللاتين المقيمين بها.

واندلعت الحرائق في بعض جهات المدينة ، مما جعل الإمبراطور البيزنطي يجافي اللاتين في المعاملة ، ولهذا رد الصليبيين بطلب الإسراع في تسديد ما عليه من التزامات ، وهددوه بأنهم يحصلون على حقوقهم بالقوة[66].

وانتهي الأمر باقتحام الصليبيين والبنادقة القسطنطينية سنة 606هـ/1209م ، وما إن دخل الصليبيون المدينة ، حتى اندفعوا في جنون يقتلون كل من صادفهم من الأطفال والرجال والنساء ، وارتكبوا مذبحة مروعة استمرت ثلاثة أيام ، ثم قاموا بنهب جميع ما فيها من تحف وكنوز أثرية[67] ، واقتسم الصليبيون والبنادقة المدينة فيما بينهم وفازت البندقية بحي تجارى كبير في العاصمة ، واستولت على الكثير من الجزائر القريبة من الشاطئ وضمت إليها جزيرة كريت بطريق الشراء[68].

واستمر الوضع على ذلك من حلول إمبراطورية لاتينية في القسطنطينية محل الإمبراطورية البيزنطية أكثر من نصف قرن ، حتى تمكن ميخائيل الثامن البيزنطي من الاستيلاء على القسطنطينية سنة 660هـ /1261 وأنهي عهد الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية وأعاد سيطرة الإمبراطورية البيزنطية عليها.[69]

نتائج الحملة الصليبية:

- جلا واضحا أن السبب الديني للحروب الصليبية في هذه الحملة قد انعدم تماما حيث طغي عليه المصالح الاقتصادية.
- ترتب على قيام إمبراطورية لاتينية في القسطنطينية نتائج هامة بالنسبة للكيان الصليبي بالشام إذا جذبت هذه الإمبراطورية الكثير من المغامرين الصليبيين الذين فكروا في الرحيل من الشرق والذين أدركوا أن الحياة في القسطنطينية أقل خطورة وأكثر أمنا من بلاد الشام.
- زادت الحملة الصليبية الرابعة من العداء والكراهية بين أتباع الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية.
- ترتب عليها أيضاً حرمان صليبي الشام من معاونة إخوانهم من اللاتينية وبالتالي أضعفت مركز الصليبيين في الشام.

2. الحملة الصليبية الخامسة "حملة حنادى برين" (615هـ/1218م):

إزاء فشل الحملة الصليبية الرابعة في تحقيق هدفها باسترداد بيت المقدس ، قام البابا أنوسنت الثالث ومن بعده البابا (هونريوس الثالث) بالدعوى لحملة صليبية جديدة ، لتدارك الخطأ الذي وقعت فيه الحملة الرابعة.

وسرعان ما أخذت أفواج الصليبيين المتحمسين تفد من الغرب الأوربي إلي بلاد الشام تلبية لنداء البابوية ، وذلك في الوقت الذي آمن حنا دي برين - ملك مملكة بيت

المقدس في عكا - بفكرة غزو مصر وكانت خطته ضرورة غزو مصر عن طريق الإسكندرية أو دمياط ، وأيده في ذلك الفرنج وعلى رأسهم الإسبتارية والداوية في الشام ، فضلا عن الصليبيين الموجدين في قبرص[70].

ففي ربيع سنة615 هـ/24مايو 1218م وصل إلي الشام أسطولا يحمل جموعا من الألمان قادما من ألمانيا[71] ، وتمت المشاورة واختيرت دمياط على الفرع الشرقي للنيل لتكون هدفا للهجوم ، وبالفعل تحركت جموع الصليبيين تحت قيادة حنادي برين في أواخر سنة 615هـ/1218م قاصدة دمياط مفتاح النيل[72].

أحداث الحملة :

كانت دمياط تقع على مساحة ميلين - الميل=1848م - من مصب نهر النيل ، وتحميها من الخلف بحيرة المنزلة وكانت محصنة[73] تحصينا قويا ، إذ بنى المسلمون وسط مجرى النيل برجا حصينا لحمايتها ، ويتصل هذا البرج بسور المدينة بواسطة قنطرة وسلاسل حديدية تمنع سفن الأعداء من الاختراق ولولا هذا البرج وهذه السلاسل لكانت مراكب العدو لا يقدر أحد منعها ، حيث كانت السلاسل على درجة عالية من القوة وتمتد بعرض النيل ، ولذا جعل الصليبيون البرج هدفهم الأساسي في الهجوم[74].

وقد أستنفذ الهجوم على هذا البرج جهود المحاصرين عدة شهور، ولما علم الملك الكامل الذي كان ينوب عن والده العادل في حكم مصر بنزول الصليبيين قبالة دمياط بادر على رأس جيشه وعسكر جنوبي دمياط على الضفة الشرقية للنيل ، ليكون على صلة بالمدينة من جهة أخرى[75] ، ولذا أدرك الصليبيون أنهم وقعوا في خطأ بإنزال مراسيهم في الجهة الغربية بدلا من الضفة الشرقية التي عليها مدينة دمياط[76].

حاول الفرنج مهاجمة البرج إلا أنهم فشلوا في الاستيلاء عليه أثر أول هجوم حيث استبسلت حامية البرج في الدفاع عنه حتى قضي الصليبيون مدة ثلاثة أشهر في الهجوم دون فائدة ، كان الملك خلالها ينظم دفاعاته ويجمع جنده ، وداوم الفرنج قتال البرج ولجئوا إلي مهاجمته بكل المعدات الثقيلة حتى نجحوا في نهاية الأمر في اقتحامه أواخر أغسطس سنة 615هـ/1218م[77] ، ووقع في أيدي الصليبيين ما كان بالحصن من غنيمة ضخمة ، وقطعوا السلاسل لتدخل مراكبهم من البحر المالح إلي النيل ويتحكموا في البر[78].

وبسقوط هذا البرج صار الفرنج في وضع يمكنهم من تهديد مصر كلها[79] ، ولذا يقال أن الملك العادل لما وصلت له الأخبار بالشام بسقوط البرج أغتم ومرض وأسرع إلي دمشق لنجدته غير أنه توفى في الطريق[80] ، وكان عمره قد ناهز الخامسة والسبعين.

واصل الملك الكامل الجهاد وعمل على إعاقة تقدم الفرنج بإغراق بعض السفن الكبيرة في النهر لتمنعهم من النفاذ خلاله إلا أنهم تغلبوا على ذلك ووصلوا إلي موضع يقابل منزلة العادلية – معسكر الملك الكامل[81] ، وكان بإمكان الفرنج الاستيلاء على دمياط إذا ما واصلوا القتال ، غير أنهم ترددوا بعد الاستيلاء على الحصن وقرروا الانتظار حتى تأتى إليهم الإمدادات ، فعاد عدد كبير من الجنود إلي بلادهم[82].

وفى ذلك الوقت هاجم الملك المعظم عيسى ابن العادل أملاك الصليبين في الشام وأنزل هزيمة كبيرة بفرسان عكا[83] ، ودخل قيسارية وقام بتخريبها ، كما قام الأشرف موسى بمهاجمة إمارة طرابلس ، وتعاون الأخوة الثلاثة لمحاربة صليبي الحملة الخامسة[84].

وفى المعسكر الصليبي انتظر قائد الحملة حنادي برين وصول الإمدادات من أوربا ، ووصل علي رأس هذه الإمدادات الكاردينال بيلاجيوس Pelagius ، وذلك في منتصف سبتمبر سنة 615هـ/1218م ، وكان بيلاجيوس أسبانيا وأشتهر بخبرته الإدارية وحبه للعمل إلا أنه افتقر إلي الكياسة ، ولما كان بيلاجيوس مندوبا عن البابوية فينبغي أن ينفرد بالقيادة[85] ، وهكذا صار لبيلاجيوس كلمة مطاعة بين الصليبيين مما أدي إلي ازدواج القيادة ووقوع الاضطرابات في المعسكر الصليبي[86].

هذا بجانب تعرض الكثير من الجند الصليبيين للمرض خاصة الحمى التي حولت جلودهم إلي اللون الأسود ومات بسببها عدد كبير منهم ، ومما زاد الأمر سوء ارتفاع منسوب المياه في نهر النيل[87].

أدرك بيلاجيوس أن الجيش لا ينعشه إلا النشاط ، ففي 2فبراير سنة 616هـ/1219م حث الجيش الصليبي على مهاجمة المسلمين وتمكنوا من دخول العادلية – معسكر المسلمين بعد أن تركها المسلمون خاوية من الجند بما فيها من خيام وذخائر وأسلحة وأموال[88] ، وكان السبب في ذلك أن الملك الكامل أكتشف مؤامرة ضده تزعمها أحد أمرائه وهو عماد الدين أحمد بن المشطوب الذي دبر أمر اغتياله ليحل محله أخاه الفائز في الحكم[89].

ولذا هجر الملك الكامل معسكره ليلا إلي أشموم طناح ولحق به جنده وقواته بعد أن تركوا العادلية وأستولي عليها الفرنج في سهولة دون عناء أو مشقة ولم يصادفوا أي مقاومة[90].

وكان لحضور المعظم عيسي أثره في إخضاع المتآمرين حيث تم القبض على ابن المشطوب ، وتم إيداعه في السجن بالكرك ، ونفي الأمير الفائز إلي سنجار ، وأنقذ الكامل عرشه[91].

وبعد أن استقرت الأوضاع الداخلية في المعسكر الإسلامي تقدم الملك الكامل وأخيه الملك المعظم عيسى إلي الشمال لاحتلال موقع جديد عند فارسكور على بعد نحو ستة أميال جنوب دمياط[92].

لم يكن بوسع الكامل والمعظم طرد الصليبيين من العادلية ، لأن النهر والخلجان والقنوات جعلت من المستحيل تقدمهم نحوها ، مما جعلهم يعسكرون في فارسكور ، وفى دمياط أخذت حامية المدينة تقاتل باستبسال لمدة تسعة أشهر برغم[93] محاولات الصليبيين الاستيلاء عليها ، وفى نفس الوقت بعث الكامل والمعظم يستنجدا بكافة القوي الإسلامية ، وأبديا قلقهما من احتمال سقوط مصر في يد الفرنج ، وهذا يعنى تهديد ، جميع ممالك الإسلام[94].

ولذا وصلت بعض النجدات من حماة وحلب ، وفى نفس الوقت وصلت إمدادات للمعسكر الصليبي من فرنسا وقبرص ، وإزاء سوء أحوال حامية دمياط وقلة الأقوات ، وأن مصر أضحت مهددة بالمجاعة ، بجانب أن المعظم عيسي حرص علي أن يعود بجيشه إلي سوريا لجأ الكامل لإجراء مفاوضات مع الصليبيين ، فعرض عليهم تسليم بيت المقدس وعسقلان وطبرية وجبيله واللاذقية ، وجميع ما فتحه صلاح الدين ما عدا الكرك[95] ، غير أن الصليبيين رفضوا هذا العرض ، وردوا عليه بمهاجمة المعسكر الإسلامي عند

فارسكور ، ولكن المسلمين نجحوا في التصدى لهذا الهجوم وأنزلوا بالصليبيين خسائر فادحة[96].

ومع هذا قرر الكامل عرضه السابق ، ولكن الصليبيين رفضوا للمرة الثانية[97] وكان السبب في هذا الرفض هو الخلاف بين حنا دى برين والمندوب البابوي بيلاجيوس ، وهذا الخلاف ما لبث أن أمتد إلى الداوية والاسبتارية من جهة ، وبين الإيطاليين من جهة أخرى ، حيث وجدت المدن الإيطالية في احتلال مصر مكاسب اقتصادية أعظم من استرداد بيت المقدس[98].

ووسط هذه الشدة وبعد استبسال حامية دمياط في الدفاع عنها ومرور 18 شهرا منذ نزول الصليبيين مصر سقطت دمياط في أيدي الصليبيين في نوفمبر سنة 616هـ/1219م ، فوضعوا السيف في أهلها وأسروا الكثير منهم ، وبثوا سراياهم في القرى المجاورة ينهبون ويقتلون ، ووجدوا أن حامية المدينة قد أصابها المرض ، ولم يتجاوز عدد الأحياء من سكان المدينة ثلاث آلاف نفس حيث بلغ الضعف بعدد كبير منهم ، من فرط الجوع والمرض[99].

ظلت الحملة الصليبية بدمياط وقامت بعمارة المدينة وتحصينها وبالغوا في ذلك حتى أصبحت لا ترام[100] ، وأسكنوها جالية من الغربيين.

فشل الحملة:

كان للانقسامات التي نشبت بين القادة الصليبيين في دمياط أثرها في فشل الحملة في النهاية ، إذ أدعي بيلاجيوس لنفسه السيادة على الصليبيين ، وتجاهل رأي حنا دى برين وأدى ذلك إلي إلحاق الضرر بالمصالح الصليبية ، وفضل الكثير من الصليبيين العودة إلي أوطانهم بعد الاستيلاء على دمياط[101] ، وعلى رأسهم القائد حنا دى برين الذي عاد إلي عكا ، وترتب على ذلك أن أصبح الحل والعقد في يد بيلاجيوس رغم قلة خبرته ، ولذا قابع الصليبيين في دمياط بقية سنة 618هـ/1220م والنصف الأول من سنة 1221م وتجمدوا في المدينة ، وأدي هذا إلي تحرك المسلمين وازدياد نشاطهم حتى نجحت السفن الإسلامية في إغراق بعض سفن الأسطول الصليبي والاستيلاء على أعظم مراكبه - وهى مرمة.

فكر بيلاجيوس في الزحف نحو القاهرة بعد وصول لويس دوق يافا إلي دمياط على رأس قوة كبيرة ، وأرسل إلي حنا دى برين في عكا يستحثه على الوصول لمساعدة الصليبيين[102].

وصل حنا دي برين إلي دمياط لكي لا يتهم بالتقاعس وذلك في سنة 1221م وشرع الصليبيين في التحرك برا بمحاذاة النيل إلي القاهرة[103] ، وقدر عدد الجيش الزاحف نحو القاهرة بعشرين ألف جندي من الصليبيين ، ولذا استبد القلق بالملك العادل وأخويه وأصبح شغل الكامل الشاغل هو الحيلولة بين الصليبيين وبين الوصول إلي القاهرة ، ولذلك ترك موقعه في فارسكور وانتقل إلي موقع آخر قبالة طلخا على الضفة الشرقية لفرع دمياط[104] ، وهى البقعة التي شيدت فيها مدينة المنصورة وعسكر عندها حيث تصبح مقدمة جيشه محمية ببحر أشموم ، وهو يصل فرع النيل وبحيرة المنزلة ، ووصلت إلي الملك الكامل النجدات من الشام ، ولحق به أخواه المعظم عيسي والأشرف موسى عند المنصورة بجنودهما ، وترقبوا جميعا وصول الصليبيين[105].

وضع الصليبيين خطتهم للزحف تجاه القاهرة على السير بمحاذاة النيل على أن تظل الصلة بينهم وبين سفنهم في النيل من ناحية ، وبينهم وبين قاعدتهم في دمياط من ناحية أخري[106] ، ولكن الكامل أمر سفنه بالتقدم في النيل لتسد الطريق في وجه السفن الصليبية وتحول دون اتصالهم بقاعدتهم في دمياط ، وفى نفس الوقت كان الصليبيين يزحفون وسط مثلث يحيط به المياه من ثلاث جهات هي:بحيرة المنزلة شرقا وفرع دمياط غربا ، وبحر أشموم جنوبا[107].

وصل الصليبيين إلي رأس هذا المثلث وقت فيضان النيل وقسوة حرارة الجو ، حيث قبعوا في مواجهة المعسكر الإسلامي نحو شهر يفصلهم عنهم بحر أشموم ، وبمرور الأيام كان النيل يواصل ارتفاعه[108] ، أستغل المسلمون عدم معرفة الصليبيين بأرض مصر ، ففجروا النيل وقطعوا السد ، فاندفعت المياه حول الصليبيين ، وركب الماء أكثر الأرض التي هم عليها ، ولم يبق لهم سوي ممر ضيق يمكن لهم عن طريقه العودة إلي دمياط[109].

وكان الملك الكامل قد أعد العدة للانقضاض على الصليبيين أثناء مرورهم بهذا الممر نحو دمياط ، حيث كلف فرقة من جيشه مع آلاف العربان وأنزلهم عند شرمساح وراء خطوط الصليبيين ، ليحولوا بين الفرنج والعودة إلي دمياط ، فملكوا طريق الرجعة الذي يسلكه الفرنج ، وهنا أدرك الصليبيين الخطر عندما لم يتمكنوا من التقدم للأمام نحو القاهرة أو العودة للوراء نحو دمياط ، بجانب كثرة الوحل والمياه حولهم ، وأخذت المياه تتزايد عليهم وعند ذلك سارعوا بطلب الصلح للخروج من هذا المأزق[110].

وبعث بيلاجيوس إلي الملك الكامل وأخويه الأشرف موسى المعظم عيسي في طلب الصلح واستعدادهم لترك دمياط والجلاء عنها مقابل الأمان لأنفسهم ، وأن يسلموا دمياط بغير عوض[111].

بدأ الكامل يستشير أهله وأصحابه ، فأشار عليه البعض مواصلة القتال حتى يتم له النصر ، ويبيد الصليبيين دفعة واحدة ويخلص البلاد من شرهم[112] ، وأشار عليه البعض الأخر إلي إجابة طلب الفرنج في الصلح فغلب الرأي الثاني خوفا من أن يصل إلي الفرنج مدد جديد فيستأنفون القتال[113].

وفى نهاية الأمر تم الصلح على تسليم دمياط وعقد الصلح في 618هـ/1221م

وكانت شروطه الآتي:

- أن يسلم الفرنج دمياط للمسلمين دون مقابل.
- عقد الهدنة لمدة ثماني سنوات.
- إطلاق سراح الأسرى من الطرفين.
- أن يقدم المسلمين لملوك الفرنج رهائن من قادتهم إلي أن يتم الجلاء عن دمياط ويقدم الفرنج رهائن للمسلمين ، وعدتهم عشرون قائدا منهم الملك حنا دي برين ملك عكا ونائب البابا بيلاجيوس.

وقدم الملك الكامل أبنه الصالح نجم الدين أيوب وكان عمره 15 سنة ومعه جماعة من خواصه رهائن لتنفيذ الاتفاق[114].

لم يضيع الصليبيين الوقت وسلموا دمياط للمسلمين ، وذلك في 19 رجب سنة 618هـ/سبتمبر 1221م،وعادت المدينة إلي الملك الكامل ، وعندئذ أطلق الفرنج سراح الصالح نجم الدين أيوب ، ومن معه من الأمراء ، كما أطلق الملك الكامل سراح رهائنه ،

أبحرت السفن الصليبية إلي أوربا ، وعاد الملك حنا دي برين ورجاله إلي بلاد الشام[115] ، وفشلت الحملة الصليبية الخامسة وأضاع الصليبيون الفرصة في استعادة بيت المقدس والكثير من توابعها واضطروا للجلاء عن دمياط دون مقابل .

بعد أن قضوا في دمياط وعلى شاطئيها الغربي والشرقي ثلاث سنوات وأربعة أشهر وتسعة عشر يوما[116] ، ويذكر ابن العميد أنهم قضوا ستة واحدة وعشرة شهور وأربعة وعشرين يوما[117] انتهت الحملة الصليبية الخامسة بالفشل ، بعد أن أصبحت قريبة من النجاح فلو أنه كان هناك قائد عاقل يجمعون على اقتراحه لكان يحقق لهم احتلال القاهرة والقضاء على الحكم الأيوبي في مصر ، ومن ثم استعادة فلسطين.

الخلاف بين أبناء العادل:

أظهر أبناء العادل الثلاثة الكامل والمعظم عيسى والأشرف موسى تضامنا قويا بعد وفاة أبيهم ، وإلى هذا التضامن يرجع الفضل في التغلب على الحملة الصليبية الخامسة ، على أن هذا التحالف لم يلبث أن أنفرط عقده في نهاية سنة 620هـ ، وبداية سنة 621هـ ، وذلك نتيجة لأطماع المعظم عيسى وجشعه[118] ، لأنه أراد أن يتوسع ويضيف إلى أملاكه ولكنه بدلا من أن يتوسع على ويضيف إلى أملاكه ، ولكنه بدلا من أن يتوسع على حساب الصليبيين لجأ إلى العدوان على ممتلكات أخوته وأقاربه ، فهاجم حماة وأعمالها ، واستولى على بعض أعمالها ، وكانت ضمن ممتلكات ابن عمه الناصر صلاح الدين قلج أرسلان ، فغضب الأشرف والكامل لذلك ، وأرسل الكامل إلى أخيه المعظم عيسى يطلب منه الرحيل إلى حماة فتركها وهو غاضب[119] ، وكان ذلك بداية الخلافات بين المعظم عيسى وأخويه الكامل والأشرف.

كان الأيوبيين في حاجة إلى الاتحاد في ذلك الوقت ، غير أي وقت مضى ، وذلك لظهور خطر الخوارزمية بسبب التوسع المغولي بعد أن دمر جنكيزخان دولة الخوارزمية سنة 617هـ/1221م ، وأضطر جلال الدين منكبرتي للفرار إلى الهند ، ولما علم بعودة جنكيزخان إلى قراقورم ، رجع جلال الدين إلى فارس ، وأقام دولته مرة أخرى متخذا أصفهان عاصمة لها ، وبدلا من أن يعمل جلال الدين في ذلك الوقت على حماية الإسلام من خطر المغول ، قام بمهاجمة الخليفة العباسي في العراق ، وطارد جيوشه حتى قرب بغداد سنة 622هـ/1225م ، وبعد ذلك اتجه جلال الدين لمهاجمة إقليم جورجيا على مقربة من أملاك الأشرف موسى بن العادل الأيوبي ، الأمر الذي جعل الأشرف يهرع إلى دمشق طالبا معونة أخيه المعظم عيسى[120].

كان الأشرف موسى أكثر إحساسا بخطر الخوارزمية بسبب متاخمة أملاكه لهم، ولكن المعظم لم يأبه للخطر الخارجي ، وكان كل ما يهمه هو تحقيق أطماعه الشخصية على حساب أهل بيته ، فانتهز فرصة مجيء الأشرف موسى إليه وقبض عليه ، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن تعهد له بمساعدته في الاستيلاء على حمص وحماة ، ثم في مهاجمة أخيهما الكامل في مصر ، وقد تعهد الأشرف بكل ذلك ، ولكنه ما كاد يفلت من يد أخيه المعظم عيسى حتى أكد تحالفه مع أخيه الكامل وأخبره بما حدث[121].

على أن وجه الخطورة في النزاع الذي قام بين أبناء العادل هو استعانتهم بقوى خارجية ، فاستنجد المعظم عيسى بالخوارزمية ، في حين استنجد الملك الكامل بالإمبراطور فريدريك الثاني إمبراطور الدولة الرومانية في غرب أوربا.

وهكذا لم يلبث أن حاصر السلطان جلال الدين خلاط عاصمة الأشرف موسى سنة 623هـ/1226م ، كما أرسل جلال الدين إلى المعظم عيسى حلة لبسها ودخل بها دمشق ، وقطع الخطبة للملك الكامل[122] ، فاستعد الكامل للزحف على الشام ، مما أنذر باشتعال الحرب في العالم الإسلامي في سنة 624هـ/1227م.

4- الحملة الصليبية السادسة (635هـ/1237م):

انتهت الحملة الصليبية الخامسة على مصر بالفشل مما جعل الأنظار تتجه من جديد نحو البابوية والغرب الأوربي لإرسال حملة صليبية قويه تسند الصليبيين في الشام وتمكنهم من الصمود ولو إلى حين في وجه الأيوبيين في مصر والشام.

وإذا كانت الحملات السابقة قد حركتها روح الكراهية والعداء للمسلمين والرغبة في الانتقام فإن الحملة الصليبية السادسة خلت تماما من هذه الروح ، فبدت وكأنها زيارة ودية قام بها الإمبراطور الألماني لصديق له في الشرق[123] ، إذا لم تعتمد هذه الحملة على قوة حربيه كبيرة من الجنود والفرسان .

ومن أسباب الحملة الصليبية السادسة الآتي:

- ساءت العلاقة بين الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وبين أخويه الملك الكامل محمد ، والملك الأشرف موسى ، مما جعل المعظم عيسى يستعين بالسلطان جلال الدين الخوارزمي على أخويه وهذا أصبح خطرا يهدد الكيان الأيوبي[124].
- أرتاع الملك الكامل من هذا الاتفاق ولم يجد وسيلة يرد بها على هذا التحالف إلا أن يطلب المعونة من جهة خارجية ، فأستقر رأيه على الاتصال بالإمبراطور فردريك الثاني إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة الذي عرف بميله وتعاطفه مع المسلمين وعلاقته الودية مع الملك الكامل[125].
- ومن الأسباب أيضا أن فردريك كان قد نذر إجابة لطلب البابا القيام بحملة صليبية إلى الشرق مما جعل البابا يلح عليه على الوفاء بوعده.
- أن فردريك وكان قد تزوج من إيزابيلا بنت الملك حنا دى برين وريثة المملكة الصليبية الرمزية ، ولما توفيت إيزابيلا ظل فردريك يطالب بمملكة بيت المقدس كإرث لزوجته ، ولذا بدأ يفكر جيدا في الخروج على رأس حمله إلي الشرق[126].
- أيضا أن البابا جريجورى التاسع أصدر قرارا بحرمان فردريك من رحمة الكنيسة مما جعله يقوم بهذه الحملة حتى يظهر في صورة المدافع عن المسيحية.

لماذا استعان الكامل بفردريك ؟

- لان الملك الكامل خشي أن يتحرك الصليبيون بحملة جديدة ضد مصر ، فأراد أن يجنب نفسه هذا الخطر ، فكاتب الإمبراطور فرد عليه معاهدا متبادلا معه الهدايا[127].
- أراد الكامل أن يحمى مصر ، ويتفرغ لأخيه المعظم عيسى حتى يعزله عن دمشق ويضم الشام إلى سلطانه.
- كان الكامل قد أراد أن يكون له السلطان المطلق في الدولة الأيوبية كما كان من قبل لأبيه العادل وعمه صلاح الدين ، وأن يكون بقية الأمراء تحت سلطانه ويخطب على منابر بلادهم باسمه.

أحداث الحملة:

أخذ فردريك يماطل في القيام بحمله نحو الشرق وذلك للآتي:

- عدم توافر الحافز الذي يدفعه إلى تلك الخطوة ، والدخول في حرب ضد المسلمين.
- علاقته الودية مع الملك الكامل وتوافقهما في الميول والطباع والاتجاهات[128].

ونتيجة للهجوم العنيف من البابا على فردريك اضطر فردريك إلى الخروج إلى الشرق حتى يفوت على البابا فرصة التشهير به من ناحية ، ولكي يخفف حدة النزاع بينهما

من ناحية أخرى ، ويذكر أن القوة التي صاحبت فردريك تكونت بصفة أساسيه من نحو ستمائة فارس وعشرين سفينة ، وكان قد سبقه فرقتين من اللاتين إلى عكا[129].

كانت الظروف في بلاد الشام قد تبدلت ، حيث توفى الملك المعظم عيسى في دمشق سنة 625هـ/1227م واقتسم الأخوان أملاكه في البيت الأيوبي ، وعلم فردريك بإقرار الأمور في البيت الأيوبي حتى أحس بحرج موقفه ، ولا سيما أنه جاء على رأس قوة صغيرة لا تكفي الدخول في الحرب ، بالإضافة إلي أنه خرج من بلاده محروما من رحمة الكنيسة ، وأدرك تماما أنه لا يصلح موقفه سوي استعادة بيت المقدس[130].

ورغم ذلك كانت البابوية لا تريد نجاح فردريك في تحقيق هدفه لأن ذلك يعد منحه شرفا ونصرا في الحروب ضدها ، وحرضت الكامل على عدم تسليم بيت المقدس للإمبراطور ، ولما أحس فردريك بذلك لجأ إلي كل السبل لإجراء المفاوضات مع الكامل ، ليتخلص من ذلك الموقف ، وأقنع الكامل بأنه ماله غرض في القدس ولا غيره وإنما حفظ مكانته عند الفرنج ، وحفظ عرشه من كيد البابوية[131].

رفض الملك الكامل تسليم بيت المقدس لأن ذلك سوف يؤذي مشاعر المسلمين في كل مكان ويؤدي إلي معارضة شديدة لسياسته ، ولهذا تعثرت المفاوضات ، وشغل فردريك نفسه بتحصين مدينة يافا[132] ، ولما طالت المفاوضات أصدر البابا قرار الحرمان مرة ثانية ضد فردريك عندئذ لجأ فردريك إلي استعطاف الكامل ليمنحه بيت المقدس فيعجل عودته إلي بلاده بعد أن ساءت أحوالها[133].

ونتيجة لتأثر الملك الكامل باستعطاف فردريك،وهو الرجل الذي اشتهر بتسامحه مع الصليبيين وعلاقات المودة التي يرتبط بها مع الإمبراطور فردريك وافق الملك الكامل على عقد اتفاقية مع الإمبراطور في ربيع الأخر سنة 626هـ/فبراير 1228م عرفت هذه الاتفاقية بمعاهدة يافا وأهم شروطها الأتي:

1- أن تسلم بيت المقدس لفردريك بشرط أن يبقيها على حالتها من الخراب ، ولا يجدد أسوارها ، وان يكون المسجد الأقصى وقبة الصخرة في يد المسلمين لا يدخلها الفرنج إلا للزيارة فقط.
2- أن يأخذ الفرنج جميع القرى الواقعة على الطريق من يافا إلي بيت المقدس وهى(بيت لحم الناصرة تبنين - صيدا اللد - الجليل)
3- أن يطلق سراح الأسرى من كلا الجانبين.
4- أن يتعهد فردريك بمحالفة الملك الكامل ضد جميع أعدائه مسيحيين ومسلمين.
5- أن يضمن فردريك عدم وصول إمدادات صليبية إلي إمارتي إنطاكية وطرابلس.
6- أن يستمر العمل بهذه المعاهدة لمدة عشرة سنوات.
7- أن يمنع الإمبراطور نزول أي حملة صليبية جديدة على شواطئ مصر أو الشام[134]

وهكذا تم توقيع هذا الاتفاق بين الملك الكامل محمد وبين فردريك الثاني ، وكان أغرب ما في هذا الاتفاق هو تنازل المسلمين عن بيت المقدس للفرنج وهكذا حققت الحملة الصليبية السادسة ما لم تستطع الحملات الصليبية الضخمة أيام صلاح الدين أن تحقق شيئا قريب منها ، وذلك على الرغم من طابعها السلمي.

ما هو رد فعل كل المسلمين والفرنج على معاهدة يافا ؟.

أولا:

- ثار الفرنج على فردريك لأنهم كانوا لا يرغبون في مسالمة المسلمين ، كما أنهم حزنوا لأن بيت المقدس لم يتم استرداده بقوة السلاح.
- زاد غضبهم لاحتفاظ المسلمين بأماكنهم المقدسة ، وبتأديتهم شعائرهم ظاهرة.
- أعلنوا أنه لا قيمة لاسترداد بيت المقدس دون استرداد الحصون القوية القريبة منه مثل الأردن والكرك ، لأن ذلك لا يبقى بيت المقدس طويلا في يد الصليبين ، ويتمكن المسلمون من استرداده بسهولة وقت ما شاءوا.
- غضب فرسان الداوية لبقاء المعبد في أيدي المسلمين ، وصرحوا بأنهم مع فرسان الأسبتارية لن يتعاونوا مع فردريك عدو البابا ولذا لم يطلب أحد من الصليبيين رفع قرار الحرمان عن الإمبراطور برغم ما حققه لهم من مكاسب(125).
- أما العالم الإسلامي ، فقد رأي في هذه الاتفاقية كارثة حقيقية لم يستطيع أحد في العالم الإسلامي أن يوافق على ما أدعاه السلطان أنها خدمة للمسلمين.
- امتلأت مساجد القاهرة ودمشق وبغداد وغيرها من المدن الإسلامية بالخطباء الناقمين على السلطان المتخاذل الذي ضحى بالمصلحة الإسلامية في سبيل مصلحته الخاصة ، ووصلت الأخبار بتسليم القدس للفرنج في البلاد الإسلامية وغيرها فتعرض الكامل لموجه عارمة من التأنيب واللوم من جانب العلماء ورجال الدين ، بل وصل الأمر إلي اتهامه بالخيانة.
- أعلن الناصر داود صاحب دمشق الحداد ، وأشتد البكاء وكثر العويل واشتدت الغطايم بحيث أقيمت المأتم(136).

وأيا ما كان الأمر فأنه لما تم عقد الاتفاقية أستأذن فردريك السلطان الكامل في زيارة القدس ، فأذن له وأمر السلطان القاضي شمس الدين قاضي نابلس بملازمة الإمبراطور ليكون في خدمته ، فسار معه إلي المسجد الأقصى وطاف معه على ما فيه من المزارات(137) ، ولما خرج الإمبراطور من المسجد الأقصى رأى قسيسا وبيده الإنجيل وقد قصد دخول المسجد فصاح به الإمبراطور وزجره وأنكر مجيئه وقال: "ما الذي أتي بك ها هنا ، والله لئن عاد أحد منكم يدخل إلي ها هنا بغير إذني لآخذن ما في عينه ، نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده وإنما تصدق على وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الأنعام منه ولا يتعدى أحد منكم طوره"(138) ، فأنصرف القس وهو يرتعد خوفا ومضى الإمبراطور إلي عكا ومنها عاد إلي بلاده في أخر جمادى الأخرى سنة 626هـ/أول مايو سنة 1228م ، واستمر مصافيا الملك الكامل متودد له والمراسلة بينهما متصلة إلي أن توفى الملك الكامل بعد تسع سنوات من معاهدة الصلح مع فردريك وذلك في سنة 22رجب سنة 635هـ/مارس 1237م عن عمر يناهز ستين سنة ودفن بدمشق.وانفرط بذلك عقد الدولة الأيوبية للمرة الثالثة(139).

عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب
(637-647هـ/1239-1249م):

كان الملك الصالح أبو الفتوح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد شخصية قوية أعادت للأذهان شخصية جده العادل الأول ، وكذلك شخصية أبيه الكامل محمد ، وكان

للصالح من الأولاد أربعة ، أكبرهم الملك المغيث فتح الدين عمر ، ويليه المعظم غياث الدين تورانشاه ، ثم الملك القاهر ، وأصغرهم أبنه من شجرة الدر خليل الذي ولد بالقاهرة بعد تولى الصالح نجم الدين السلطنة في أواخر سنة 637هـ/1239م ، ولقب بالمنصور وشاء القدر أن يموت ثلاثة منهم في حياة أبيهم ولم يبق على متن الحياة حتى وفاة الصالح سوى ابنه تورانشاه[149].

شهد عهد الصالح نجم الدين أيوب حدثين خطيرين: الأول حركة المغول نحو الشرق الأدنى ، والثاني حملة لويس التاسع على مصر.

فالمغول كانوا قد قضوا على الدولة الخوارزمية ، وتشتت عسكر الخوارزمية في أنحاء البلاد الإسلامية يعرضون خدماتهم الحربية على كل من يرغب في استخدامهم من ملوك الدول الإسلامية المجاورة ، وقد اتصلت طائفة منهم بالملك الصالح نجم الدين أيوب في الشام ومصر فأفاد من خدمتهم في الشام بصفة خاصة.

ومن الحروب التي خاضها الخوارزمية مع الصالح عندما وصلت حملة صليبية صغيرة كان من بين رجالها البارزين سيمون دي منتفرات ، وذلك عندما اتفق الناصر داود صاحب الكرك والصالح عماد الدين إسماعيل صاحب دمشق - عم الصالح نجم الدين وأخو الأشرف موسى بن العادل الأول على محاربة الصالح نجم الدين وتحالفا مع الفرنج ضده ، ووعداهم بتسليم بيت المقدس إليهم بالإضافة إلي طبرية وعسقلان[150] ، فخرج الصالح نجم الدين من القاهرة وبعث إلي فرقة الخوارزمية وعدتهم نحو عشرة آلاف فارس يستدعيهم إلي الديار المصرية ، وبفضلهم تمكن الصالح من مهاجمة التحالف الأيوبي الفرنجى ، وهزيمتهم في المعركة التي جرت في حيرميا والتي اشتهرت باسم معركة غزة وكان من أهم نتائجها أن استولى الصالح على بيت المقدس سنة 642هـ/1244م ، والكثير من المدن التي كانت بيد الناصر داود مثل غزة والخليل ، والأغوار وبيت جبريل،ولم يبق بيد الناصر داود سوي الكرك والبلقاء والصلت وعجلون[151].

بعد ذلك قام الجيش المصري باحتلال دمشق ، ولما منع الصالح نجم الدين الخوارزمية من دخولها خوفا من نهب المدينة غيروا ولائهم وحاصروا دمشق وساعدوا أعداء الصالح وعاثوا في المناطق القريبة نهبا وتخريبا حتى لقوا هزيمة شنعاء سنة 644هـ/1246م أنهت وجودهم كقوة مقاتلة[152] 0

سير الصالح نجم الدين أيوب عسكرا كبيرا تحت قيادة الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ لمحاربة الناصر داود صاحب الكرك فألحق فخر الدين الهزيمة بالناصر ومعه الخوارزمية ، واستولى على جميع البلاد التابعة له كما ذكرنا ، واستولى في العام التالي 645هـ/1247م على طبرية من يد الفرنج ثم استولي على عسقلان وهدم حصونها[153].

وهكذا تمكن الصالح نجم الدين أيوب من إعادة الوحدة السياسية إلي السلطنة الأيوبية في مصر والشام ، ولكنه كان عليه التفرغ لمواجهة الخطر الثاني الذي أصبح يهدد مصر ذاتها والمتمثل في الحملة الصليبية السابعة.

5- الحملة الصليبية السابعة(646هـ/1248م) حملة لويس التاسع على مصر:

كان لاسترداد القدس على يد الصالح نجم الدين أيوب سنة 642هـ/1244م ، وتصفيته لقواعد الفرنج في السواحل صدي قوى في أوربا يشبه صدي استردادها في المرة الأولى علي يد صلاح الدين الأيوبي ، فبدأت الدعوة من جديد لحملة صليبية كبري علي مصر لاسترجاعها ، وكان أكبر المتحمسين لها الملك لويس التاسع القديس ملك فرنسا[154] 0

حاول لويس التاسع قبل إعداد الحملة أن يزيل ما بين البابا انوسنت الرابع والإمبراطور فردريك الثاني من خلاف ، ولكنه لم يوفق في مهمته ، بل أن البابا دعا في نفس المجلس "مجمع ليونلكنسى" الذي تقرر فيه إرسال الحملة إلي مصر سنة 643هـ/1245م إلى إرسال حمله صليبه أخرى ضد فردريك باعتباره خارجا علي الكنيسة ومحروما منها ، وكان ذلك من العوامل التي أدت إلى توثيق العلاقات الودية بين فردريك والصالح نجم الدين أيوب ، فأرسل فردريك إلى الصالح رسولا في السر يحمل إليه أنباء خروج حملة لويس التاسع في طريقها إلى مصر[155] 0

لم يكن هدف هذه الحملة استرجاع بيت المقدس فقط ، وإنما كانت تهدف أيضا إلي تكوين حلف وثني / مسيحي بين المغول والصليبيين ضد الدولة الأيوبية في مصر والشام ، ووضع المنطقة العربية الإسلامية بين شقي الرحى ، وقد يؤدى هذا كما تصور الأوربيون إلي القضاء على الإسلام ، ويساعد على انتشار المسيحية في هذه المناطق حيث فكر البابا أنوسنت أن تهاجم الحملة المنطقة العربية الإسلامية من سواحل البحر المتوسط ، بينما القوات المغولية تهاجم المنطقة من الناحية الشرقية ، وبذلك تخلو المنطقة من الإسلام والمسلمين[156] 0

الاستعداد للحملة:

استغرقت استعدادات لويس التاسع للحملة ثلاث سنوات بدأت بعقد مجمعا كبيرا في باريس ، وخطب لويس التاسع في الحاضرين داعيا إياهم إلي حمل الصليب وتمكن بفصاحته من إثارة غيرتهم الدينية.

لم تكن البحرية الفرنسية تملك من السفن ما يكفى لنقل حملة حربية كبيرة عبر البحر المتوسط ، ولذلك طلب لويس من جمهورية جنوا ، ومدينة مرسيليا تأجير سفنها لذلك الغرض وعقد معهما اتفاقيات بهذا الشان أما البندقية فقد رفضت تزويده بما يحتاج إليه من سفن خوفا على مصالحها التجارية مع مصر والشام ، وأرسل لويس إلي جزيرة قبرص جماعة من رجاله لشراء وإعداد ما يحتاجه الجيش من الأطعمة والمؤونة حتى يجدها عند مروره بالجزيرة جاهزة ، والتي تعتبر القاعدة التي تلتقي عندها الجيوش الصليبية الذاهبة إلي الشرق[157] 0

وأخيرا رحل لويس التاسع في 4 جمادى الأول سنة 646هـ/25 أغسطس سنة1248م ، وأبحر من ميناء مرسيليا أسطول ضخم يزيد على 1800 سفينة تحمل ثمانية آلاف مقاتل معهم عدتهم وأسلحتهم ومؤنهم وخيولهم ، وكان يقود هذه الحملة الملك لويس التاسع بنفسه ومعه زوجته الملكة مرجريت وأخويه شارل كونت انجو وروبرت كونت ارتوا ، وأما شقيقة الثالث الفونسو كونت بواتيه فقد بقى في فرنسا بعض الوقت لجمع نجدات وإمدادات أخرى ليلحق بالجيش الفرنسي فيما بعد ومعه أيضا عدد كبير من الأمراء والنبلاء الذين اشتركوا في الحملات السابقة[158] 0

وقد جمع لويس التاسع في شخصيته كثيرا من صفات ريتشارد قلب الأسد ، مثل الحزم والشجاعة والقوة والفدائية والصمود ، وفوق هذا إخلاصه لهدفه حتى أطلق عليه القديس ، ولكنه أفتقد بعد النظر وسلامة التقدير العسكري للكثير من المواقف ، يضاف إلي هذا كله أنه كان يستمع لكثير من توجيهات أخيه برغم اعتراض بعض قادة الحملة على بعض التصرفات[159] 0

خط سير الحملة:

بدأت الحملة سيرها من باريس إلي ميناء ايجور جنوبي فرنسا ومر لويس في الطريق بمدينة ليون حيث كان يقيم البابا أنوسنت الرابع ، ومنحه البابا صك الغفران على آثامه ، ثم غادر لويس ليون إلي إيجور ، ومن إيجور اتجه قاصدا قبرص فرست سفنه في ميناء ليماسول حيث نزل الملك لويس والملكة مرجريت بها في ضيافة هنري الأول لوزنيان ملك قبرص ، وقضي بها بضعة أيام ، وهناك وفد عليه نائب مقدم طائفة الفرسان الاسبتارية ، ومقدم طائفة الداوية ، وكثير من الشخصيات العامة[160] 0

عقد لويس مجلسا لكبار قادته فاتفق الحاضرون على أن مصر هي الجديرة بالهجوم ، وأن الاستيلاء عليها هو الكفيل بحل المسألة الصليبية على خير ما يتمنى العالم الصليبي الأوربي الغربي ، لأن مصر هي المركز الاستراتيجي الحامي لظهر العمليات الحربية الإسلامية ضد الصليبيين ، وهى المورد الوفير لتغذية هذه الحركات الحربية الإسلامية بالمال والرجال ، كما أن الهجوم على مصر والاستيلاء على دمياط بالذات يعد محوا للعار الذي لحق بالصليبيين بالجلاء عنها من قبل زمن الملك حنا دي برين 0

أن دمياط لها قيمتها يستطيع لويس من خلالها استخدامها للمساومة إذ ما تمت الهدنة بين الطرفين مثل المبادلة ببيت المقدس مثلما حدث أيام الملك الكامل أثناء الحملة الخامسة.

أن دمياط لها مكانتها التجارية والاستيلاء عليها سوف يضمن مكافأة الجمهوريات الإيطالية التي أسهمت في الحملة بسفنها ، وسوف يغرى جمهورية البندقية التي لم تساهم في إعداد الحملة بأن تشارك في العمليات الحربية الصليبية فيما بعد نظرا لما سوف تحصل عليه من مصالح في دمياط إذا تم الاستيلاء عليها[161] 0

كان بقاء لويس في قبرص بعض الوقت من الأخطاء التي وقعت فيها الحملة ، لأنها لو اتخذت طريقها إلي مصر مباشرة دون تلكأ لفاجأت الجيش المصري قبل أن يتخذ أهبته للحرب ، ثم أقلعت الحملة من قبرص متجهة لدمياط ، ولكن رياحا عاتية اعترضتها في طريقها ، فاضطرت نحو 700 سفينة إلي الانفصال عن الأسطول الفرنسي والجنوح إلي عكا وسواحل الشام ولم يصل مع لويس سوى ثلث عدد فرسانه فقط[162] 0

وأخيرا وصل لويس التاسع على رأس حملته أمام دمياط على أنه كان قد أرسل كتابا قبل وصوله إلي السلطان الصالح نجم الدين أيوب يحوي عبارات التهديد والوعيد ، واستعراض القوة بهدف التأثير على الروح المعنوية للمسلمين وجاء فيه قوله **"لقد عرفتك وحذرتك من عساكر حضرت في طاعتي ، تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون إليك بأسياف القضاء.."** ، ولكن السلطان لم يخشى تهديد لويس بل رد عليه بكتاب شديد اللهجة من إنشاء البهاء زهير يقول فيه **"ولو رأت عيناك أيها المغرور حد سيوفنا وعظمة حروبنا وفتحنا منكم الحصون والسواحل وتخريبنا ديار الأواخر منكم**

والأوائل ، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ، ولابد أن تزل بك القدم في يوم أوله لنا وآخره عليك[163] **، فهناك تسئ بك الظنون ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، فإذا قرأت كتابي هذا فكن على أول سورة النحل" أتي أمر الله فلا تستعجلوه" وكن على أخر سورة ص "وليعلمون نبأه بعد حين" وتعود إلي قول الله تعالى "كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين" وإلى قول الحكماء إن الباغي له مصرع وبغيك يصرعك وإلى البلاء بقلبك ، والسلام"** 0

وكان الصالح نجم الدين أيوب آنذاك مريضا مرضا خطيرا ، أصيب به في الصالحية سنة 646 هـ/1248م ، ومع ذلك فقد رحل إلي دمشق وهو مريض ، وهناك بلغه خبر تحرك الصليبيين نحو مصر فعاد إليها ونزل بأشموم طناح في محرم سنة647 هـ/1249م وأمر بجمع الأقوات والأسلحة في دمياط[164] ، ونظرا لأنه لم يعد في وسعه أن يتولى القيادة وإدارة دفة الحرب ، فقد أرسل وزيره الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ على رأس جيش كبير ليعسكر في البر الغربي قبالة دمياط ، حتى يكون في مقابلة الصليبيين عند وصولهم إلي دمياط[165] 0

وبعث الصالح نجم الدين أيوب إلي الأمير حسام الدين الهذباني نائبه في القاهرة بتجهيز الشواني من دار الصناعة في مصر ، ووصلت مراكب الفرنج إلي دمياط وتمكنت من النزول على الشاطئ الشرقي للنيل بعد مقاومة عنيفة من جانب المسلمين ، بقيادة الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، ثم استمرت المناوشات بين الطرفين ، واستشهد من المسلمين بعض كبار الأمراء[166] ، وكان مع هذه القوة جماعة من بني كنانة المشهورين بالشجاعة والفروسية تولوا الدفاع عنها[167] 0

أخطأ الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ حينما قرر فجأة الانسحاب من غرب دمياط إلي الجانب الشرقي للنيل ، حيث توجد مدينة دمياط ، وزاد الأمر خطورة أنه ترك الجسر الذي عبر عليه الجيش المصري الذي كان يربط بين جانبي النيل دون تحطيمه ، بل ترك مدينة دمياط وانسحب جنوبا إلي أشموم طناح حيث معسكر السلطان كما أن بني كنانة الذين أعتمد عليهم الصالح نجم الدين في الدفاع عن المدينة تركوها مثلما فعل الجيش ، ونظر أهل دمياط فوجدوا الجيش الذي خصص لحمايتهم قد غادر المدينة ، فخافوا على أرواحهم وخرجوا أثناء الليل تاركين ديارهم وأموالهم ولم يبق بالمدينة أحد ، وفروا إلي أشموم طناح مع المعسكر[168] ، ويذكر المقريزي: **" أنهم ساروا إلي القاهرة ، فنهبهم الناس في الطريق ولم يبق لهم ما يعيشون به ، فغدت هذه الفعلة من الأمير فخر الدين من أقبح ما يشنع به"**[169] 0

غضب السلطان غضبا شديدا لتراجع العسكر من المدينة وتركها غنيمة سهله للفرنج ، وأشتد حنقه على الكنانية فأمر بشنق ما يزيد على خمسين أميرا منهم ، أما الفرنج المرابطين على الجانب الغربي اكتشفوا في الصباح أن دمياط خالية فعبر جنود الحملة الصليبية النيل إلي دمياط على الجسر الذي تركه الأمير فخر الدين فوجدوا أبواب المدينة مفتوحة ، ولا أحد يحميها ، فخشوا أن تكون مكيدة فتمهلوا قليلا حتى تيقنوا أنه ليس في المدينة أحد للمقاومة ، فدخلوا المدينة واستولوا على ما فيها من الآلات الحربية والأسلحة العظيمة والعدد الكثيرة والأقوات والأزواد والذخائر والأموال والأمتعة وغير ذلك[170] 0

أمر الملك الصالح نجم الدين بالانسحاب من أشموم طناح إلى مدينة المنصورة فحمل في حراقة ، حتى وصل إلى قصره بالمنصورة يوم الثلاثاء 24 صفر سنة 647هـ/8 يونيو 1249 م فشرع الجند في ترميم دورها وأبنيتها ، ونصب بها الأسواق وجددت أسوارها وخاصة المطلة على النيل ، كما وصلت إليها السفن المحملة بالعدد والمقاتلة ، ووفدت إليها كتائبه من المتطوعة وطوائف العوام والعربان[171] 0

وما أن تأكد الصليبيون من حقيقة النصر السهل الذي أحرزوه دون أن يبذلوا جهدا من أجل تحقيقه ، حتى أخذوا يدعمون وجودهم في المدينة الأسيرة[172] 0

ولم ينتهز لويس التاسع فرصة استسلام دمياط دون قتال لكي يواصل الزحف نحو القاهرة للقضاء على المقاومة الإسلامية، وإنما أنصرف إلى إضفاء الطابع الصليبي على المدينة ، وأخذ يوزع الغنائم على باروناته وجنوده ، وحول مسجد المدينة إلى كاتدرائية كاثوليكية ، وظن لويس أن الأمر كله سوف ينتهي بسهولة مثلما تم الاستيلاء على دمياط ، فأرسل يستدعى زوجته[173] ، وظل بالمدينة ما يقرب من ستة اشهر ينتظر وصول بقية سفنه التي جنحت بها الريح نحو شاطئ سوريا[174] ، وكان لفترة الانتظار الطويلة نتائجها السلبية في المعسكر الصليبي على حين كانت لها ثمارها الإيجابية في المعسكر المصري ، وتململ المصريين من البقاء خلف تحصيناتهم القوية ، وبدءوا يتحركون إلى الهجوم ، وصارت العمليات العسكرية خلال هذه الفترة بين المسلمين والصليبين أقرب إلى العمليات الفدائية ، حيث شارك في هذه العمليات أبناء الشعب المصري بكل فئاته ، وبجانبهم المتطوعون من المسلمون والقوات الأيوبية التي قدمت من الشام[175] 0

ولم يمر يوم واحد دون أن يعود الجنود المسلمين بعدد من الأسرى الصليبين ويسلمونهم للسلطان وعندما يتم أسر عدد كبير من هؤلاء كان موكب الأسرى يطوف في الشارع فتتصاعد الحماسة ويزداد أعداد المتطوعين[176] 0

ومن ناحية أخرى قدمت الشوانى المصرية بالعدد الكاملة والرجال ، وقامت بدورها المعهود في الدفاع عن البلاد وبدأت تنصب الكمائن للسفن الصليبية التي تنقل المؤن والإمدادات للصليبين وتستولي عليها أو تدمرها[177] 0

بدأ لويس يستعد للتحرك من دمياط ، ولا سيما بعد وصول أخيه الفونسو كونت بواتييه ، فعقد مجلس الحرب لتقرير خطة الزحف نحو القاهرة ، وكشفت المناقشات عن انقسام شديد في الرأي بخصوص خطة الزحف ، فأقترح بطرس كونت بريتانى ومعه غالبية البارونات ومعظم قوات الجيش أن يكون المسير نحو الإسكندرية أولا ومنها إلى القاهرة[178] ، وأشار الكونت أرتو أخي الملك لويس ـ برفض الاقتراح ، وقرر أن يسير إلى القاهرة مباشرة والاستيلاء عليها إذ أن سقوط القاهرة سيتبعه سقوط بقية المدن المصرية بحكم أنها حاضرة الدولة الأيوبية ، وأنضم لويس التاسع إلى أخيه الكونت أرتو في الرأي وقرر المسير إلى القاهرة[179] .

وإذا نظرنا إلى الرأيين لنعرف ما هو الأصوب فيهما والمفيد للصليبيين لوجدنا أن الرأي الأول يعد اقتراحا طيبا للآتي:

- إن ميناء الإسكندرية أكبر حجما من ميناء دمياط ، ويستطيع أن يأوي عددا كبيرا من سفنهم

- إن ميناء الإسكندرية أقرب إلى أوربا وموانى فرنسا من ميناء دمياط ولذا يمكنهم من الحصول على الإمدادات بسرعة وسهولة من أوربا.

استجاب الملك لويس لرأى أخيه ، ولم يتعظ من الفشل الذي انتهت إليه الحملة الصليبية الخامسة ، وحملة حنا دى برين ، فكان هذا القرار حلقة جديدة من سلسلة الأخطار التي انتهت بفشل الحملة كما سنرى.ولم يكد لويس التاسع يشرع في الزحف نحو القاهرة على رأس جيشه حتى توفى الملك الصالح نجم الدين أيوب في المنصورة ، وفى دمياط بقيت حامية صليبية كبيرة ، كما بقيت زوجة الملك لويس التاسع وهى الملكة مارجريت البروفنسإلية[180] 0

ولاشك أن وفاة السلطان الأيوبي جاءت في وقت عصيب أشد ما تكون الحاجة إليه ، حيث كان سلطانا كفأ جدد شباب الدولة الأيوبية وقال عنه أبو المحاسن: **" كان مهيبا عزيز النفس عفيف طاهر اللسان لا يرى الهزل ولا العبث ، شديد الوقار كثير الصمت ..**"[181]

توفى السلطان بعد أن عهد بالسلطنة من بعده لأبنه المعظم تورانشاه ، الذي كان شابا حديث السن قليل الخبرة ، ويبدو أن السلطان الصالح نجم الدين أيوب رتب كل أمور الحكم مع زوجته شجر الدر وهو على فراش الموت ، فقد تولى الأمير حسام الدين بن أبى على الهذبانى نيابة السلطنة بمصر ، وتولى الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ القيادة العامة بالمنصورة ، وأخفت شجر الدر نبأ وفاة السلطان وأعلنت أن الأطباء منعوا الزيارة عنه[182] ، ولم يعلم بهذه الخبر سوى الأمير فخر الدين قائد الجيوش ، والطواشي جمال الدين مسحن وكان صاحب النظر في شئون القصر والحاشية ، وأعلنتهما وأوصتهما بكتمان الخبر عن الدولة والناس حتى يحضر تورانشاه أولا من ولايته بحصن كيفا لاستلام مقاليد الأمور[183]

وفى نفس الوقت أرسلت شجر الدر إلي تورانشاه تحثه على الرحيل من ولايته بأطراف العراق والقدوم إلي مصر ليعتلى عرش السلطنة بعد أبيه ، وفى هذه الفترة تم إرسال جثمان الملك الصالح نجم الدين أيوب في تابوت على ظهر سفينة ليلا إلي قلعة الروضة حيث دفن في هدوء[184] ، وظلت الأوامر والمكاتبات السلطانية تخرج من المعسكر السلطاني وعليها توقيع السلطان ، وقد قيل أن السلطان قام بتوقيعها قبل وفاته وظل السماط السلطاني يمد كالعادة ، كما أن الأمراء يدخلون السماط ويأكلون وينصرفون كل يوم كالمعتاد ، وكانت شجر الدر تبرر تغيب السلطان بقولها:**" السلطان مريض ، ما يصل إليه أحد**"[185]

وعلى الرغم من اتخاذ كافة الاحتياطات لإخفاء خبر وفاة السلطان الصالح أيوب ، إلا أن الأخبار لم تلبث أن تسربت إلى الفرنسيين[186] ، وكانوا في طريقهم إلى القاهرة متخذين الضفة الشرقية لفرع دمياط بحذاء النيل طريقا لهم ، حتى وصلوا إلى نقطة تفرع بحر أشموم من فرع دمياط ، واصل لويس السير حتى وصل إلى قرية فارسكور يوم الخميس 24شعبان سنة 647هـ/12ديسمبر سنة 1249م ، دون أن يلقى الفرنسيين في طريقهم أي مقاومة عسكرية ماعدا صعوبات الزحف الحربي في شمال الدلتا وهى الأوحال والمستنقعات[187] 0

وصلت قوات الفرنج المنصورة ، فعسكرت شمالي بحر أشموم طناح ، وأصبح هذا البحر حاجزا بين معسكرهم ومعسكر المسلمين وبدأ كل فريق يستعد للمعركة الحاسمة

، وأهتم الصليبيون بتحصين معسكرهم فحفروا حوله خندقا ، وبنوا سورا ونصبوا أمامه المجانيق ، وأتت شوانيهم ووقفت إزاء النيل ، أما المصريون فقد كانوا مطمئنين إلى حصانة مدينتهم ، فأخذوا يناوشون الفرنج ويتحيلون في اختطافهم وأسرهم[188] 0

رأى لويس التاسع أنه لا يمكنه التغلب على المصريين إلا إذا ألتحم معهم في معركة ، ولا يمكن أن يتحقق له ذلك طالما بحر أشموم طناح بينه وبينهم ، ففكر في بناء جسر، ولكن ما يكاد الفرنج يبنون منه بضعة أمتار حتى تتساقط عليهم قذائف المصريين فيرتدوا على أعقابهم ، فاضطر الفرنج إلى إقامة برجين مشحونين بالمقاتلين ورماة السهام ، ولكن المصريين بمهارتهم الحربية تمكنوا أن يفسدوا على أعدائهم عملهم ، فكان الفرنج كلما أتموا من جسرهم مترا هدم المسلمين أمتارا أمامه في البر المقابل ، فيتسع المجرى من جديد[189] 0

استدعى الملك لويس التاسع إليه بارونات الجيش وقادته وعقد مجلس حربيا لبحث ما ينبغي اتخاذه من خطة جديدة بعد أن اتضحت استحالة تشييد جسر للعبور إلى معسكر المنصورة ما دام الجيش الأيوبي قادر على توسيع مجرى بحر أشموم طناح من الناحية الجنوبية ، ومادامت قذائف المسلمين قادرة على إحراق المعدات الصليبية لتشييد هذا الجسر[190] ، وبينما المناقشة تجرى حضر إلى المعسكر الصليبي أحد البدو الخائنين دل الفرنج على مخاضة في بحر أشموم طناح تعرف باسم "***مخاضة سلمون***" وهى قريبة من المعسكر الصليبي ، وهنا رتب لويس خطته على أساس عبور مخاضة سلمون وأستقر الرأي على أن يعبر الملك لويس التاسع وأخوته الثلاثة والفرسان والخيالة الصليبية وطائفة الفرسان الداوية هذه المخاضة فجر يوم الثلاثاء الموافق 4 ذي القعدة سنة 647هـ/ الثامن من فبراير سنة 1250م في ثلاث وحدات كبرى ، وصدرت تعليمات مشددة من الملك لويس التاسع بأن تقف كل مقدمة الجيش الصليبي بعد عبورها مخاضة سلمون في موضعها حتى تصل إليها تعليمات جديدة وحتى تعبر القوة الرئيسية من الفرسان تحت قيادة الملك لويس[191] .

وبالفعل داهمت القوه الصليبية المعسكر الإسلامي فجأة ، وسقط قائد القوات الأيوبية "الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ" جريحا بسيوف الداوية الذين أحاطوا به من كل جانب حين خرج من الحمام للقتال دون أن يلبس ملابس القتال وعدته كاملة ، وبدا وكأن الهزيمة سوف تنشب مخالبها القاسية في الجيش الأيوبي[192] ، وذلك حين استولى الصليبيين على معسكر المسلمين بقرية جديلة[193].

قرر الكونت آرتو بعد أن استولى على جديلة ، اقتحام مدينة المنصورة نفسها والاستيلاء على القصر السلطاني ، فأصدر أوامره بدخولها ، وكان الأمير بيبرس البندقداري الذي صار السلطان بيبرس فيما بعد قد أعد خطة ماكرة للقاء الصليبيين في رحاب المدينة التي اقتربوا منها ، ووافقت شجرة الدر التي كانت تدير المعركة آنذاك على الخطة ، وهذه الخطة تدل على مهارته وكفاءته الحربية ، إذ قسم جيشه إلي ثلاثة أقسام.

القسم الأول: عبارة عن جبهة تشبه قوسا من الفرسان والخيالة بلغت عدتها أربعة آلاف.

القسم الثاني : المكون من المشاة والرماة .

القسم الثالث : وكان عبارة عن جموع احتياطية هائلة لمساعدة الفرسان والمشاة إذا اقتضت الضرورة لذلك[194] .

أما الجيش الصليبي فكان تنظيمه على أساس ميمنة وقلب وميسرة كان في الميمنة أخو لويس - شارل كونت انجلو وفى القلب كان الملك لويس ، وفى الميسرة كان الفونسو كونت بواتيه[195] .

دخل فرسان الصليبيين المدينة الصامتة وأخذوا يتجولون في شوارعها الخالية في زهو وخيلاء بحثا عن الغنائم والأسلاب ، وإذا هم على ذلك الحال ، إذ بالمماليك البحرية وأهل المنصورة يحملون على الفرنج حمله عنيفة زلزلت صفوفهم وأزاحوهم عن باب القصر ووضع الأهالي المتاريس الخشبية والحجرية والطينية في الشوارع لعرقلة فرسان الصليبيين المذعورة ، كما قذفتهم الأهالي بشتى القذائف المنزلية من فوق أسطح البيوت ومن خلال النوافذ والشرفات[196].

وأنقشع غبار المعركة عن عدد كبير من قتلى الفرنج حيث قتل من شجعانهم نحو ألف وخمسمائة ، وقضى المماليك على فرقة الفرسان بأكملها ، وكان ارتو في مقدمة القتلى[197] .

وبفضل بيبرس وفرسانه عاد الفريقان الصليبي والإسلامي إلى ما كانا عليه كل منهما على بر وبحر أشموم طناح بينهما.

وبعد هذه المعركة بعدة أيام قدم الملك المعظم تورانشاه بن الصالح نجم الدين أيوب إلى مصر في 15 ذي القعدة سنة 647هـ/27 فبراير سنة 1250م ، ونزل في الصالحية ، ثم رحل إلى تلبانة ومنها سار إلى المنصورة ، فتلقاه الأمراء المماليك ونزل في قصر أبيه وجده ، وتم إعلان وفاة السلطان الصالح نجم الدين أيوب رسميا وسلمت شجرة الدر مقاليد الأمور للسلطان الشاب الذي تولى قيادة الجيوش بنفسه ، ووضع خطة لإجبار الصليبيين على التسليم ،حيث أمر بحمل عدة سفن مفككة على ظهور الجمال تم تركيبها وإنزالها في بحر المحلة وراء معسكر الفرنج ، وشحنها بالمقاتلين ، وذلك لقطع طريق الإمدادات الصليبية القادمة من دمياط إلي موقع معسكرات الفرنج ، وهاجمت هذه السفن الأسطول الصليبي وأسروا عدد من سفنه ، وساء حال الصليبيين[198] ، واشتد الغلاء عندهم وأخذوا في مراسلة الملك المعظم تورانشاه يطلبون منه الهدنة ، وعرض رسل لويس التاسع أن يسلموا دمياط للمسلمين ويأخذوا عوضا عنها مدينة القدس وبعض المدن الساحلية ، فرفض المسلمون هذه الشروط وفضلوا الحرب ، وفى فارسكور دارت معركة عنيفة بين المسلمين والصليبيين انتهت بكارثة كبيرة على الصليبيين حيث قضت على الجيش الصليبي تماما ، فقتل منهم نحو عشرة آلاف إنسان وغنم المسلمون من الخيل والبغال والأموال ما لا يحصي لكثرته[199].

وفر لويس التاسع مع عدد من أكابر قواده إلي قرية تدعي منية أبي عبد الله ، وتعرف اليوم بقرية ميت الخولي عبد الله ، وتم أسر الملك لويس التاسع نفسه في هذه القرية ، وطلب الأمان هو ومن معه من القواد فحملوا إلي المنصورة ، وقيد الملك بقيد من حديد ، وأعتقل بدار القاضي فخر الدين إبراهيم بن لقمان - كاتب الإنشاء - وأعتقل معه أخيه شارل كونت انجلو ، وألفونسو كونت بواتيه ، وقد أحسن تورانشاه إلي لويس وأخويه وكبار بارونات في أسرهم ، وخصص لهم من يقوم بخدمتهم[200].

بقي لويس في الأسر إلي أن تقرر أن يفتدي نفسه بتسليم دمياط ودفع مبلغ من المال في سبيل إخلاء سراحه مع أخويه وبارونات بالإضافة إلي الجلاء الكامل عن دمياط ،

فوافق الملك لويس التاسع على هذا الاقتراح ، وتم عقد معاهدة الصلح بين الطرفين لمدة عشرة سنوات وفقا للشروط الآتية:

1- أن يسلم الملك الفرنسي مدينة دمياط للمسلمين فدية عن نفسه مبينا أن مقامه من الشهرة بحيث لا يصلح أن تقدر فديته بمال.
2- أن يدفع الملك لويس مبلغ من المال قدره ثمانمائة آلف بيزنط (وهى عملة ذهبية بيزنطية) فدية عن باقي الأسري الفرنسيين وعوضا عن الخسائر والمصاريف التي تكبدها المصريون منذ استيلاء الفرنج على دمياط.
3- أن يطلق سراح لويس وجميع الأسري المسلمين الذين تم أسرهم خلال هذه المعركة ، وكذلك الذين تم أسرهم في الأراضي المقدسة في عهد العادل والكامل والصالح أيوب وكان عددهم عشرة ألف ومائة وعشر أسير[201].
4- أن يعمل الصليبيون على حفظ الأمن وإقرار السلام في جميع البلاد التي يحتلونها في فلسطين.
5- أن يتعهد سلطان مصر بإطلاق سراح جميع الأسري من الفرنسيين منذ وصولهم إلي الشاطئ المصري .
6- إخلاء سبيل جميع الأسري الصليبيين الذين أسرهم المسلمون منذ معاهدة يافا سنة 626هـ/1228م.
7- أن يتعهد السلطان بحراسة جميع عتاد الفرنسيين وأثقالهم الموجودة بدمياط بعد رحيلهم عنها إلي أن تسنح الفرصة لنقلها إلي بلاد الفرنج.
8- أن يمنح جميع المرضي من الصليبيين وغيرهم ممن سيبقون في دمياط لبيع ما يمتلكون أمانا مماثلا ، على أن يرحلوا أما عن طريق البحر أو عن طريق البحر متى شاءوا دون أن تقام في وجوههم عقبات أو عراقيل.

هذا وقد أقسم الطرفان بالمحافظة على الهدنة وعدم الإخلال بها[202] ، وهكذا فشلت الحملة الصليبية السابعة ، وكان للمماليك البحرية فضل كبير في هزيمتهم ، وقد برز زعماؤهم من أمثال فارس الدين أقطاى ، وعز الدين أيبك ، وبيبرس البندقداري خلال المعارك التي أظهروا فيها شجاعة وقدرة عسكرية فائقة.

الفصل الثالث

قيام دولة المماليك

تعريف المماليك تربية المماليك
نهاية الدولة الأيوبية
عهد المعز أيبك والأخطار التي واجهته
سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت
عهد الظاهر بيبرس وجهوده ضد الصليبيين والمغول

الفصل الثالث
قيام دولة المماليك

تعريف المماليك:

المماليك جمع مملوك وهي أسم مفعول من الفعل ملك ، والمملوك عبد يباع ويشتري ، ويقصد بالمماليك جموع الرقيق الأبيض الذين كانوا يجلبون أطفالا من أسواق النخاسة ويشتريهم السلاطين والأمراء والخلفاء لتكوين فرقة خاصة في جيوشهم وأطلق عليهم الرقيق لأن الرقة ضد الغلظة ، والمملوك يرق لسيده الذي لا يغلظ عليه[1]

ويختلف لفظ الرقيق عن العبيد ، فالرقيق من أباء وأمهات أحرار ولكنهم أسروا في الحروب ، وتم بيعهم في أسواق النخاسة ، أما لفظ العبيد فهي تعنى العبودية ، فالعبد يولد من أباء وأمهات عبيد ، ويتميز المملوك غالبا باللون الأبيض ، بينما العبيد فكانوا يتميزون باللون الأسود[2].

وعلى الرغم من اختلاف الرقيق في الجنس لأنهم كانوا يجلبون من عناصر مختلفة مثل الترك والمغول ، والصقالية ، والأسبان ، والقفجاق ، والقوقاز خلال عصر المماليك البحرية ، على حين كان معظمهم من الجراكسة خلال عصر دولة المماليك الثانية الجراكسة[3] إلا أن الغربة وأسلوب التربية الذي خضعوا له جمع بينهم وجعل منهم طبقة واحدة[4].

وكان الإكثار من المماليك أحد السمات المميزة للعصر المملوكي ، ويرجع ذلك لعدة أسباب منها حاجة السلاطين إليهم في حسم النزاعات التي تنشب فيما بينهم حول السلطة ، بجانب حاجتهم إلي تكوين جيش يتمكنوا بواسطته من صد أي هجوم خارجي قد تتعرض له البلاد ، أو إخماد الفتن والثورات الداخلية.

ما هي أسباب رواج تجارة الرقيق؟

1- يأتي في مقدمة هذه الأسباب كما ذكرنا حاجة السلاطين إلي تكوين جيش خاص بهم للاعتماد عليه[5]

2- عدم تكاثر المماليك لأنهم كانوا يأتون البلاد صغارا ولا يتزوجون مما يستدعى زيادة عددهم عن طريق الشراء[6]

3- التوسع التجاري في الرقيق خلال هذه الفترة ، حيث اشترت الطبقات الاجتماعية الثرية وخاصة التجار أعدادا كثيرة من المماليك للقيام بالخدمة في تجارتهم ، بجانب الخدمة في بيوتهم[7]

4- كثرة الحروب التي شهدتها المناطق التي يأتي منها الرقيق من جراء الاجتياح المغولي لها مما تسبب في كثرة الأسرى من الأطفال وغيرهم[8]

5- كان الفقر سببا آخر في رواج تجارة الرقيق فأهالي القوقاز وفارس والقفجاق والترك وغيرهم يعتمدون في حياتهم على الترحال والتنقل مما يدفعهم في بعض الأحيان إلى بيع أولادهم[9] .

وكان التجار يأتون بالمماليك في أغلب الأحيان عن طريق البحر ، حيث كانت عاصمة أذربيجان ـ الدربند ـ أحد الموانى الهامة على بحر قزوين لتجارة الرقيق الواردة

من الأراضي الشمالية[10] ، أو من الهند عن طريق البحر الأحمر ، أو من جنوب أسبانيا إلي سبته ومنها إلي مصر ، وغيرها من الطرق البحرية العديدة[11]

كما كان التجار يدخلون القاهرة عن طريق ثغري دمياط والإسكندرية ، بينما كان البعض من تجار الرقيق يأتون عن طريق البر[12] ، وكان للرقيق المجلوب أسواق عديدة في القاهرة مثل سوق خان الخليلي ، وخان مسرور ، ودار البركة أو بركة الرقيق بالفسطاط[13] ، وكانت هناك أسواق للرقيق في المدن الأخرى مثل الإسكندرية[14]

وقد حددت أسعار المماليك في أسواق النخاسة وفقا لعدة أمور منها الجنس الأصلي للمملوك ، وسنه وقوة بدنه وجمالها إذا كانت فتاة وقبل شراء الرقيق كان يتم فحصهم للتأكد من سلامة أبدانهم ثم يزايدون على أثمانهم ، ومن خلال المزايدات على الرقيق يتضح أن التتري كان أعلاهم سعرا حيث كان سعره يتراوح ما بين130 - 140دوكه ، ويليه الجركسى وكان سعره ما بين 110 - 120 دوكه ، ثم الإغريقي 90دوكه ، والألباني والسلافي ما بين 70 - 80 دوكه ، أما العبد الأسود فكان سعره يتراوح ما بين 150 - 200 درهم[15] ، وإذا كان بالمملوك عيب أحجم المشترون عن شرائه وانحط سعره[16].

تربية المماليك:

كان لكل سلطان من السلاطين جيش من المماليك الذين يعتمد عليهم في تدعيم سلطانه أو في صراعاته ضد الآخرين ، ولذا كانت هناك عناية خاصة بتربية المماليك فكان السلطان إذا اشترى عددا من المماليك يقوم بإرسالهم أولا إلي الأطباء لفحصهم ، وبعد الاطمئنان على سلامتهم البدنية يتم تسكينهم في المعسكرات الخاصة بهم والتي كانت تعرف في ذلك الوقت باسم " الطباق" وفى داخل هذا الطباق يتم إنزال المملوك في طبقة من بني جنسه[17] ، ويخصص لكل طائفة فقيه لتعليمهم اللغة العربية والخط والقرآن الكريم والفقه وشيئا من الحساب وملازمة الصلوات والأذكار ، ولذا كان لابد من جلب المماليك صغار السن حتى يمكن تربيتهم وتدريبهم بسهولة[18] ، فإذا شب الواحد من المماليك وسار إلي سن البلوغ بدأ تعليمه فنون الحرب والفروسية في ميادين خصصت لهم[19].

وقد أهتم السلاطين اهتماما بالغا بتربية مماليكهم ، فعينوا لهم مؤدبين من أكابر الأمراء بالإضافة إلي الفقهاء ومعلمي الفروسية ، وقام هؤلاء الأمراء بفحص أحوال المماليك ومراقبة حركاتهم وسكناتهم وعقاب الخارج على آداب الدين والدنيا عقوبة صارمة ، ويتم ذلك بمعرفة الطواشية[20] ، وكان الطواشية ذوي حرمة وافرة وكلمة نافذة ويعد شيخ الطواشية من أعيان الناس وكانت له سطوه ومهابة بحيث أنه كان لا يجترئ أحد أن يمر من بين يدي الطواشي وحيثما وقع بصره عليه أمر بضربه[21] .

وبلغ من اهتمام بعض السلاطين بتربية مماليكهم انهم أشرفوا عليه أشرفا مباشرا ، فأحضروهم إلي حضرتهم بين الحين والأخر ليقرءوا أمامهم وليمتحنوهم بأنفسهم ، وكثيرا ما ذهب السلطان ومعه أكابر أمرائه إلي طباق المماليك ليفاجئهم بزيارته ويتفقد أحوالهم[22] وعلى أية حال فإن هذا النظام الصارم في تربية المماليك كان من نتائجه الآتي:

- أن الجمع بين التربية الدينية والتدريب العسكري جعل المماليك في الفترة الأولي من دولتهم يتميزون بالحماسة والغيرة على البلاد والدفاع عن المقدسات الإسلامية.

- وأيضا رابطة الخشداشية "الزمالة" التي كانت تربط بين المماليك كانت من أقوي الروابط القائمة على الولاء الشخصي في الدولة وذلك لأن هؤلاء المماليك جلبوا أطفالا ، ولم يعرفوا لهم آباء ولا أمهات ولا إخوان ، ثم عزلوا عن المجتمع في معسكرات صارمة القوانين ، وعاشوا حياتهم الباكرة حتى سن الشباب سويا ، لم يكونوا يجدون الأمان والطمأنينة سوي مع بعضهم البعض ، ولهذا تميزت الفرق المملوكية بالطائفية القائمة على الولاء الشخصي ، فالمماليك كانوا دائما ينسبون إلي السلطان الذي اشتراهم ، فالمماليك المعزية نسبة إلي المعز أيبك، والظاهرية نسبة إلي الظاهر بيبرس ، والناصرية نسبة إلي الناصر محمد بن قلاوون[23]

وليس للمماليك أن يخرجوا من الطباق إطلاقا ولا سيما ليلا ، وكان عليهم أن يذهبوا إلى الحمام يوما في الأسبوع ، وكان يصرف لهم مرتب قليل قد يصل إلي ثلاثة أو عشرة دنانير في الشهر[24].

وكانت الدراسة في الطباق بين أربعة أو خمسة عشر شهرا ، وإن كانت أحيانا تمتد إلي عدة سنين[25] ، فإذا انتهت الدراسة أعتق المملوك ، ويكون الإعتاق بالجملة ، ويقام له احتفال خاص يحضره السلطان والأمراء ، وذلك بناء على شهادة تسمي " إعتاق" فيتسلم المملوك سلاحا وفرسا ولباسا خاصا وإقطاعا يبقي له مدي الحياة وحينئذ يسمي عتيقا[26].

وكان المماليك المتخرجون من الطباق يقسمون أقساما لكل جماعة منهم نقيب ، حيث جري تقسيمهم على النظام العشري الذي كان معمولا به عند التركمان بشمال فارس ، ومنه كان المماليك يقسمون كالآتي:

- **أمراء الخمسات**: وكانوا قلة في مصر ، وربما كان أكثرهم من أولاد الأمراء الذين توفوا ، ومنح الأبناء هذه الرتبة رعاية لآبائهم[27].
- **أمراء العشرة**: ويكون لكل منهم أمره عشرة فرسان من المماليك وربما كان للواحد عشرون فارسا ، ولكنه يظل أمير ، ومن هذه الفئة يكون صغار الولاة ، وأرباب الوظائف الصغرى[28]
- **أمراء الطبلخانات**:[29] ويتراوح عدد فرسانهم ما بين 40,30 فارسا وقد يصل عدد فرسانهم إلي سبعين أو ثمانين فارسا[30].
- **مقدم ألف**: وهو أمير مائه ، وله الحق في قيادة ألف فارس ، وأصحاب هذه الرتبة هم أعلى أمراء المماليك قدرا ، ويكون منهم أصحاب الوظائف الكبرى ، وأتابك العسكر ، ونائب السلطنة[31].

وقد كانت لغة المماليك هي اللغة التركية ، وهى لغة مملوءة بالفارسية والعربية ومع ذلك فقد أتقن الكثير منهم العربية نظرا لتعليمهم في الطباق ، وأصبح بعضهم فصيح اللسان[32] ، وأدت هذه التربية إلي زيادة نسبة الصراعات الدموية في سبيل الوصول إلي الحكم نظرا للإحساس بالمساواة وعدم الأفضلية " الخشداشية ".

ومن أهم نتائج هذه التربية المملوكية هو الإحساس المتبادل بين المماليك والرعية في مصر والشام بأن المماليك أغراب يحكمون البلاد على أساس من التفويض الشرعي " تفويض من الخليفة العباسي ".

وكان لشعور المماليك عن بقية أفراد المجتمع أثر في جعلهم يعيشون كطبقة منفصلة واحتفظوا بشجاعتهم ولم يختلطوا بعناصر أخري في المجتمع ، وقد امتازوا بالتفوق العسكري وممارسة الجندية التي رتبوا لها خصيصا[33].

والمعروف أن الأمراء ومماليكهم لم يحاولوا الزواج من أهل البلاد من المصريين ، بل اختاروا زوجاتهم وجواريهم من بنات جنسهم[34].

كذلك رسم السلاطين للقضاة والشهود أن لا يعقد أحد منهم قران مملوك من مماليك السلطان إلا بإذنه[35] ، ولم يحدث عكس ذلك إلا عندما رخص السلطان الظاهر برقوق للمماليك في سكني القاهرة والاختلاط بأهلها وفى ذلك يذكر المقريزي " فنزلوا من الطباق من القلعة ، ونكحوا نساء أهل المدينة ، وأخلدوا إلي البطالة."[36].

وقد دأبت الحكومة المملوكية على تحذير الناس من انتقال مملوك من المماليك عن طريق البيع لكاتب أو عامي ، ومن كان عنده مملوك فليبعه ، ومن عثر أن عنده مملوكا بعد ذلك فلا يلوم إلا نفسه ، وكان ذلك في عهد الناصر محمد بن قلاوون سنة 710هـ/1310م[37].

وهذا يدل دلالة واضحة على أن عامة الناس كانوا يمتلكون المماليك حيث يذكر المقريزي **" أن الخوف كان يستولي على قلوب الناس عند إذاعة مثل هذا التحذير فيبيعون مماليكهم ويخفون بعضهم"**[38].

وهذه العوامل عامة أدت إلي شدة ترابط المماليك بعضهم البعض وجعلتهم يحتفظون بأخلاقهم وطباعهم على مر السنين،دون أن يتأثروا بأخلاق أهل البلاد وعوائدها،وكانت من أشد الروابط الأستاذية ورابطة الخشداشية.

وخلال القرن العاشر الهجري أختل نظام المماليك الاجتماعي والحربي ، وأهملت الأسس التي قامت عليها تربيتهم وتنشأتهم الأولي ذلك أن المماليك الأجلاب لم يعودوا يأتون إلي مصر صغار السن بل جاء بعضهم بعد بلوغ سن الرشد ، ثم أن السلاطين لم يقوموا بتسليمهم للفقيه والمؤدب لتربيتهم بالآداب الإسلامية الأولي ، بل تركوهم وشأنهم كما سمحوا لهم بالنزول من طبقاهم وتهاونوا معهم في أخطائهم ، وظهرت خطورتهم أواخر العصر المملوكي فيما عرف بثورات الأجلاب[39] ، وسوف نذكر أمثلة كثيرة منها.

وترتب على ذلك أن فقد المماليك روح النظام والولاء والطاعة تلك الروح التي ميزت أسلافهم وحلت محلها روح التمرد والعصيان وصار المماليك شيعا وأحزابا في وقت واحد ، ففي عهد السلطان المؤيد شيخ كان هناك المماليك الأشرفية والظاهرية والمؤيدية[40] وأخذت كل طائفة من هذه الطوائف تتجسس على الأخرى ، وأكثر المماليك من التعرض لحريم الأهالي وأولادهم ، حتى أصبحوا عنوانا للسلب والنهب والإجرام ، وسبب الفوضى والاضطرابات في البلاد ، حتى آلت حالتهم إلي أسوا صورة[41] ، ووصفهم أبو المحاسن بقوله : **" ليس لهم صناعة إلا نهب البضاعة يتقوون على الضعيف ويشرهون حتى في الرغيف ، جهادهم الإخراق بالرئيس وغزوهم في التبن والدريس"**[42].

هذا عن المماليك من حيث أسلوب تربيتهم ومدي الاهتمام بهم وما آلت إليه حالتهم أواخر عصرهم ، حتى صاروا في النهاية إلي الانحدار والتدهور ، وفقدت كلمة المملوك الكثير من معناها ، وأصبح لا يقصد بها إلا الدلالة على التواضع والطاعة[43].

نهاية الدولة الأيوبية وقيام الدولة المملوكية:

كانت معركة المنصورة ضد جيوش الحملة الصليبية السابعة بمثابة ميلاد لدولة سلاطين المماليك ، حيث برزت خلال هذه المعركة قوة جديدة أثبتت قدرتها على التصدي للصليبيين وقيادة المنطقة العربية الإسلامية في مواجهتهم ، هذه القوة هي فرسان المماليك ، فقد جاءت الدولة المملوكية امتدادا للدولة الأيوبية في بناءها ، وطبيعتها العسكرية وأيضا الأسس الاقتصادية التي قامت عليها(44).

وكانت أحداث الحملة الصليبية السابعة التي انتهت سنة 648هـ/1250م وما حققه فرسان المماليك البحرية من انتصار مثل فارس الدين أقطاي ، وعز الدين أيبك ، وركن الدين بيبرس البندقداري..وغيرهم هي البداية الحقيقية لدولة المماليك(45).

وعلى الرغم من الانتصار الذي حققه المسلمون على الصليبيين في تلك الحملة فإن السلطان الأيوبي توران شاه أرتكب بعض الحماقات التي مهدت الطريق أمام نهاية الدولة الأيوبية ، وقيام الدولة المملوكية ، ومن أفعاله الأتي:

- فشل في توحيد المسلمين للقضاء على الخطر الصليبي تماما.
- بدأ يدبر للتخلص من "شجرة الدر" وكبار أمراء المماليك حيث نقم على زوجة أبيه شجرة الدر ، وهددها بالاستيلاء على أموال أبيه ، وكان يحسد المماليك على المكانة التي حققوها لأنفسهم بفضل شجاعتهم في معركة المنصورة .
- أعرض عن المماليك وأظهر لهم الجفاء ، على حين أغدق المناصب والعطايا على رجاله الذين جاءوا معه(46).
- لم يعمل توران شاه بوصية أبيه في المماليك ، إذ قال له في وصيته **" وتوصي بالمماليك غاية الوصية فهم الذين كنت أعتمد عليهم وأثق بهم ، وهم ظهري وساعدي ، فتلطف بهم وطيب قلوبهم ، وتوعدهم بكل خير ، فتكرمهم وتحفظ جانبهم فهذه وصيتي إليك ، فاعمل بما فيها ولا تخالف وصيتي"**(47).

وقد وصف أبو المحاسن هذا السلطان بقوله: **"..كان سيئ التدبير والسلوك ذا هوج حقه.."**(48) ، كما ذكر أنه كان يسكر في الليل ثم يمسك بسيفه ويطفئ به الشموع الموضوعة أمامه واحدة بعد أخرى ويقطعها وهو يقول: **" هكذا أفعل بالبحرية "** ومع كل شمعة يطفئها بسيفه كان ينطق باسم واحد من زعماء المماليك البحرية فعرفوا نواياه وأضمروا له السوء(49).

ولهذه الأسباب مجتمعة تلاقت مخاوف شجرة الدر ومخاوف زعماء المماليك وغضبهم ، واستقر رأيهم على ضرورة التخلص منه وتم قتله على يد كبار زعماء المماليك ، وذلك يوم الاثنين الموافق 27المحرم سنة 648هـ/2مايو1250م ، بعد أن ضربه أحد أمراء المماليك بالسيف فقطع بعض أصابعه ، وفر إلي برج خشبي يحتمي به فأضرم المتآمرون النار في البرج فنزل يجري صوب النيل والنشاب تأخذه ، فرمي بنفسه في الماء ، وتعلق بذيل الفارس أقطاي فما أجاره وقطعوه قطعا(50) ، ويقول المقريزي " ..أنه مات جريحا حريقا غريقا" (51).

شجرة الدر:

بعد مصرع توران شاه وجد قتلته أن الأمور ليست مؤهلة لأن يتولي أحدهم منصب السلطنة ، ولذا اختاروا شجرة الدر سلطانة على مصر، على أن يكون عز الدين أيبك أتابكا للعسكر، وخطب لها على المنابر بمصر والقاهرة[52].

ويعتبر المؤرخون توران شاه آخر السلاطين الأيوبيين والسلطانة شجرة الدر التي خلفته أول سلاطين المماليك مستندين في ذلك إلي أنها كانت بحكم أصلها من المماليك ، حيث كانت جارية تركية وقيل أرمينية ، اشتراها الصالح نجم الدين أيوب ثم أعتقها وتزوجها[53].

بينما يرى البعض الآخر من المؤرخين أن شجرة الدر آخر سلاطين الدولة الأيوبية ونحن نؤيد هذا الرأي القائل بأنها سلطانة أيوبية لعدة أمور مثلها:

1- أنها لم تتولى السلطنة باعتبارها من المماليك ، وإلا كان المماليك اختاروا أحد أمراءهم الطامعون في الحكم خلال تلك الفترة مثل بيبرس ، وأقطاي ، وأيبك ، وقلاوون ..وغيرهم

2- تم اختيارها لمنصب السلطنة باعتبارها زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب المفضلة ، والتي كانت تتمتع بالاحترام والنفوذ خلال حياته ، وباعتبارها أم أبنه المحبوب الخليل.

3- كانت توقيعاتها على المناشير باسم أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح.

4- ذكر اسمها على السكة وفى الخطبة على المنابر بهذه الصيغة ، وكانت دائما تنسب نفسها إلي البيت الأيوبي.

تولت شجرة الدر السلطنة وهى أول ملكة حكمت مصر في العصر الإسلامي ، وقبضت على زمام الحكم بيد من حديد مما جعل ابن إياس يصفها بأنها: **"امرأة صعبة الخلق،شديدة الغيرة ، ذات شهامة زائدة ، وحرمة وافرة ، سكرانة من خمر التيه والعجب "**[54]0

وجهت شجرة الدر جهودها الأولي للتخلص من بقايا الحملة الصليبية السابعة ، ودارت المفاوضات بين الجانبين وانتهت بالاتفاق على فدية قدرها(800000) دينار يدفع الملك الأسير منها قبل رحيله والباقي بعد وصوله عكا ، وجمعت الملكة مرجريت المبلغ المطلوب لدفع نصف الفدية ، ثم أبحرت مع ابنها الذي ولدته في دمياط وأسمته "جان تريستان" أي وليد الأحزان[55] ، وتم تسليم دمياط وفى اليوم التالي أبحر لويس التاسع إلي عكا ، وكان ذلك في صفر 648هـ/ مايو 1250م[56] ، وأخذت السلطانة شجرة الدر تتقرب إلي الخاصة والعامة من أهل الحكمة والرعية[57] ، ولكن على الرغم من ذلك فإن المصريين عموما أنفوا من قيام امرأة في السلطنة ، وقاموا بمظاهرات واضطرابات عديدة في القاهرة[58] ، هذا فضلا عن أن توليتها كانت مسألة لا يقرها الشرع ، ولا تستسيغها التقاليد الإسلامية.

خاف المماليك على دولتهم الناشئة من المنافسة الأيوبية ، فكتبوا للخليفة العباسي يطلبون منه تأييد سلطنة شجرة الدر ، غير أن رد الخليفة العباسي رفض المساندة الشرعية لشجرة الدر وكتب إليها قائلا " إن كانت الرجال قد عدمت عندكم أعلمونا حتى نسير إليكم رجلا"[59] .

ولما وصل خطاب الخليفة المستعصم إلى القاهرة أدرك أمراء المماليك والسلطانة أنهم يحاولون السباحة ضد تيار جارف لا يستطيعون مقاومته ، وبعد ثمانين يوما اقتنع أمراء المماليك بخطأ تصرفهم ، وقالوا: **" لا يمكننا حفظ البلاد والملك لأمرأة ، ولابد من إقامة رجل للملكة تجتمع عليه الكلمة "**[60] ، فأشاروا على شجرة الدر بأن تتزوج الأتابك أيبك التركماني ، وتتنازل له عن العرش ، فقبلت ذلك ، وخلعت نفسها ، وتولى أيبك عرش البلاد تحت أسم السلطان المعز "عز الدين أيبك"[61].

لم يكن أيبك أكبر الأمراء المماليك سنا ، أو أقدمهم أو أقدرهم أو أقواهم مكانة ونفوذا ، إذ كان يوجد من هم أقدر منه مثل فارس الدين أقطاي ، والظاهر بيبرس ، وهذا كان ظنا من الأمراء أنه ضعيف النفوذ والشوكة ، يمكن لهم عزله متى شاءوا[62]، إلا أنه كان غير ذلك حيث كان يتصف بالديانة والصيانة والعقل والسياسة ، وأنه أنقذ دولة المماليك من خطر محقق[63].

السلطان المعز أيبك (648-655هـ/1250-1257م):

هو عز الدين أيبك التركماني الصالحي ، تولى عرش البلاد تحت أسم السلطان الملك المعز عز الدين أيبك ، وهو من المماليك الصالحية ، ترقى في خدمة الصالح نجم الدين أيوب حتى وظيفة الجاشنكير في بلاط السلطان ، وفي سلطنة شجرة الدر صار أيبك قائدا للجيش ، أي أتابكا للعسكر ، ثم تولى سلطنة البلاد خلفا لشجرة الدر ، وأثناء سلطنته واجهته بعض المشاكل والصعاب التي تغلب على معظمها ، منها تهديدات الأيوبيين والصليبيين في الخارج ، وثورات الأعراب ، وخطر زملائه المماليك في الداخل ، وسوف نتناول هذه الصعاب بشيء من التفصيل.

أولا : الخطر الأيوبي والصليبي:

لم يركن الأيوبيون إلى الاستكانة إزاء ضياع السلطة من أيديهم وانتقال الحكم إلى المماليك ، وكان هذا الخطر ممثلا في الأمراء الأيوبيين في الشام وعلى رأسهم الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق ، ولذا لجأ المماليك إلى حيلة يتحايلون بها على تهدئة بني أيوب ، وهدم معارضتهم وذلك بإقامة أمير من ذرية بني أيوب إلي جانب المعز عز الدين أيبك في الحكم[64] ، وهو الأشرف موسى بن يوسف بن المسعود بن الكامل بن العادل ، وكان طفل عمره ست سنوات ، فصار يخطب على المنابر باسمهما ، وضربت لهما السكة على العملة[65].

ولكن ملوك الأيوبيين بالشام وعلى رأسهم الملك الناصر لم تدخل عليه هذه الحيلة ، لأنهم كانوا يعلمون تماما أن الأشرف موسى لم يكن له من الأمر سوى الأسم ، على حين كانت الأمور جميعها بيد أيبك[66] ، وعندئذ قام أيبك بإعلان أن البلاد تحت سلطة الخلافة العباسية صاحبة السلطان القديم عليها ، وأنه نائب الخليفة المستعصم بها[67] وبهذه المحاولة حاول عز الدين أيبك هدم المقاومة الأيوبية ، ومن جانب آخر أخذ يستعد لمحاربة الملك الناصر يوسف ، الذي أتفق مع الملك لويس التاسع المقيم في عكا أن يقف بجانبه مقابل تسليمه بيت المقدس الذي كان تحت إمرة الأيوبيين في ذلك الوقت[68].

ولم علم أيبك بهذه المفاوضات أرسل إلي الملك لويس التاسع تهديدا بقتل أسري الصليبيين في مصر إن قام بأي عمل عدائي ضده ، ولذا وقف لويس موقف الحياد ليستغل نزاعهما لصالحه[69].

أعد أيبك جيشا عدته ألف فارس بقيادة فارس الدين أقطاي الجمدار ، الذي خرج من القاهرة وتجمعت قوات المماليك في الصالحية ، ووصل إليهم عز الدين أيبك وفى نفس الوقت وصل الملك الناصر بقواته إلي كراع القريبة من العباسة ، وبدأ الاشتباك بين الفريقين في معركة عامة في 10 ذي القعدة سنة 649هـ/3فبراير 1251م[70] ، وتناوب الفريقان النصر والهزيمة حتى انتهي الأمر بانتصار المماليك ، وفر الناصر ومن معه من أبناء البيت الأيوبي إلي الشام ، بعد أن فقدوا عدد كبيرا من القتلى والأسري[71] وقرر أيبك أن يواصل زحفه نحو الشام للقضاء على مراكز المقاومة الأيوبية ، حيث أعد جيشا بعد ذلك بشهر عدته ثلاثة آلاف ، وأرسله إلي غزة تحت قيادة أقطاي ، واستولي على نابلس وبعدها عاد للقاهرة وفى نفس الوقت جهز الناصر جيشا سيره إلي غزة ، وعسكرت قواته في تل العجول على مقربة من غزة ، وخرج عز الدين أيبك ومعه الأشرف موسى ، وفارس الدين أقطاي ، ومعهم سائر المماليك البحرية ونزل بالصالحية على مقربة من العباسة[72] .

استمرت جيوش المماليك في الصالحية ، وجيوش الأيوبيين في غزة كل منهما تتحفز بالأخرى لمدة ثلاثة سنوات إلي أن أنقذ الموقف الخليفة العباسي المستعصم عندما توسط بين الفريقين ، وترددت الرسل بينهما ، وتمكن رسوله نجم الدين أيوب عبد الله بن محمد الحسن البادراتي " نسبة إلي مدينة بادران بأصبهان" من عقد الصلح بين الفريقين وذلك سنة 651هـ/1253م وتم الاتفاق على الآتي:

1- أن يتنازل الناصر للمعز عن غزة والقدس.
2- أن يعترف الناصر للمعز بحكم مصر.
3- أن تظل البلاد الشامية في يد أصحابها من أبناء البيت الأيوبي[73]

اختلف الفريقين فيما بعد وتجدد الصلح بينهما سنة 654هـ/1256م وكان تدخل الخليفة العباسي بهدف توحيد الجهود لتكوين جبهة إسلامية أمام خطر جديد أشد ممن خطر الصليبيين ، وهو الخطر المغولي الذي اجتاحت جحافله الحدود الشرقية للدولة الإسلامية وقضت على الدولة الخوارزمية[74].

وهكذا انتهت العقبة الأولى في تأسيس الدولة المملوكية الناشئة وهي تهديدات البيت الأيوبي.

العوامل التي ترتبت على انتصار المماليك على الأيوبيين:

- كان لانتصار المماليك في هذا اللقاء على الأيوبيين أثر كبير في تثبيت مركز عز الدين أيبك ورسخت قدمه في الحكم.
- كان لتدخل الخليفة العباسي أثره في تثبيت حكم المماليك حيث يعد ذلك اعترافا صريحا باستقرار حكمهم في مصر[75].
- امتداد نفوذ المماليك على بعض المناطق في الشام مثل جنوب فلسطين بما في ذلك غزة وبيت المقدس[76].

- أيضا كان لهذا الانتصار أثره في قيام المعز بعزل شريكه في الحكم الأشرف موسى واستقل تماما بملك مصر[77]
- جدد المماليك اتفاقية الصلح التي كانت عقدت بينهم وبين لويس التاسع وعدلوا في شروطها لكي يضمنوا عدم تأييد الصليبيين للناصر يوسف والأيوبيين[78]

ثانيا: ثورة الأعراب سنة 651 هـ/1253م:

إنه من المعروف تاريخيا أن مصر بعد الفتح الإسلامي استوطنتها العديد من القبائل العربية ، واستقرت شفى معظم أنحاء الصعيد[79] ، وقد احترفت هذه القبائل الزراعة وكانت تتمتع بمركز اجتماعي أعلى مرتبة من الفلاحين بسبب المساعدات التي كانوا يؤدونها للدولة في وقت الحرب ، ولاسيما إبان الحروب الصليبية0

وكان تعسف أمراء المماليك في جمع الضرائب بجانب إساءتهم معاملة الأعراب والإجحاف في تحديد أثمان المحاصيل الزراعية واحتكارها[80] أحد أسباب ثورة العرب ، وكان هناك سبب آخر وهو أن العرب أغضبهم استبداد المماليك بالحكم واعتبروا أنفسهم أحق منهم ، وأنفوا حكمهم ، ووصفوا المماليك أنهم خوارج على البلاد ووصفوا السلطان أيبك بأنه مملوك مسه الرق[81] .

ولذا ترجع ثورتهم إلي عوامل سياسية واقتصادية في آن واحد وهي الثورة التي نشبت بزعامة شريف علوي من بني ثعلب اسمه حصن الدين ثعلب بن تغلب الجعدي الذي أعلن أن ملك مصر يجب أن يكون للعرب وليس للعبيد الأرقاء[82].

وفى ذلك يذكر المقريزي أن حصن الدين قال: ***"نحن أصحاب البلاد وإنا أحق بالملك من المماليك ، وقد كفي إنا خدمنا بنى أيوب ، وهم خوارج خرجوا على البلاد"*** [83].

أما عن أحداث هذه الثورة ، فقد تجمع العرب وهم كثرة من الخيل والمال والرجال إلي الأمير حصن الدين ثعلب وهو بناحية دهروط حربان - ديروط الحالية - وأقبلوا إليه من الصعيد والوجه البحري وأطراف البحيرة والجيزة والفيوم ، وحلفوا له ، وبلغ عدد فرسانه 12 ألف فارس غير حشود هائلة من الرجالة[84]

وتمكن حصن الدين ثعلب من إقامة دولة عربية مستقلة في مصر الوسطي ، وفى منطقة الشرقية بالوجه البحري ، وكانت قاعدة هذه الدولة ذروة الشريف بنواحي الفيوم ، وتقع بين النيل وترعة المهني التي هي الآن بحر يوسف[85].

اتصل حصن الدين بالملك الناصر يوسف الأيوبي في الشام يطلب مساعدته في محاربة أيبك ، ولكن الناصر يوسف لم يكن في وسعه محاربة أيبك في ذلك الوقت نظرا لإجراء مفاوضات الصلح بينهما[86]

وإزاء اتساع نفوذ حصن الدين ثعلب اضطر السلطان أيبك أن يرسل حملة تأديبية للقضاء على هذه الثورة ، وأسند قيادتها إلي فارس الدين أقطاي لمهارته الحربية وعلى الرغم من قلة عدد المماليك حيث بلغت عدة حملة أقطاي خمسة آلاف فارس[87] إلا أن العرب لم يتمكنوا من الصمود أمام فرسان المماليك ، فولي حصن الدين ثعلب منهزما ، وفر هو والكثير من فرسانه ، وهاجم المماليك الأعراب بالشرقية وهاجموا عرب الغربية والمنوفية ، وأوقعوا بهم خسائر كبيرة وبعث حصن الدين يطلب الأمان من السلطان أيبك

، فأمنه هو ومن معه وبلغ عدتهم 2600 فارس ومشاة ، ثم أمر المعز بشنق الجميع واستثناء حصن الدين الذي أرسله إلي سجن الإسكندرية وحبس به[88].

واتبع أيبك مع العرب سياسة البطش والقهر ، وأمر بزيادة ما يقرر عليهم من الأموال والهدايا من الخيل والإبل[89] ، أما حصن الدين ثعلب فعاش فيما بعد حرا طليقا ولم يتمكن أيبك ومن جاء بعده من القضاء عليه إلى أن خدعة السلطان بيبرس وقبض عليه وشنقه[90].

وهكذا تخلص الملك المعز أيبك من عقبة الأعراب الذين حاولوا القضاء على حكم المماليك في مصر ، إلا أن خطر العربان ظل باقيا حتى نهاية حكم المماليك.

أما العقبة الثالثة التي اعترضت حكم أيبك ، وهددت كيان الدولة الناشئة فهي خطر زملائه المماليك البحرية ، وزعيمهم فارس الدين أقطاي ، حيث كان لهم الفضل في التغلب على الخطر الخارجي والمتمثل في الأيوبيين والصليبين ، وكذلك الخطر الداخلي المتمثل في ثورة الأعراب ، ولذا أرتفع شأن أقطاي بعد نجاحه في الداخل والخارج ، واستولي على أمور الدولة ، ولم يبق للمعز حل ولا عقد إلا به ، وفى ذلك يذكر المقريزي أنه في سنة 652هـ/1254م **" فيها استفحل أمر فارس الدين أقطاي الجمدار وانحازت إليه البحرية بحيث كان أقطاي إذا ركب من داره إلي القلعة شغل بين يديه جماعة بأمره ، وكانت أصحابه تأخذ أموال الناس ونسائهم وأولادهم بأيديهم ، فلا يقدر أحد على منعهم ، وكثر ضررهم "**[91].

ولذا أخذا المعز يعمل على تقوية نفسه ، فأنشأ فرقة المماليك المعزية ، كما عين مملوكة قطز نائبا للسلطنة بمصر ، ثم لم يلبث أن أخرج المماليك البحرية من ثكناتهم بجزيرة الروضة[92].

وعلى الرغم من ذلك كان المعز يغضي عن تصرفات أقطاي لكثرة خشداشيته البحرية ، وأخذ أقطاي يرنوا إلي السلطنة ، ولقبه زملاؤه " بالملك الجواد " ، وعملوا على تزويجه من إحدى أميرات البيت الأيوبي[93] ، وهي ابنة الملك المظفر تقي الدين محمود ملك حماه والأكثر من ذلك أنهم تآمروا على قتل أيبك ليخلوا الجو لأقطاي[94]

ثم حدث أن طلب أقطاي من أيبك أن يأذن له في الإقامة مع عروسه بقلعة الجبل - مقر الحكم الرسمي - لكونها من بنات الملوك وهنا استشعر المعز منه بما عزم عليه ، وبدأ يدبر للخلاص منه قبل أن يشتد بأسه ويفكر في عزله وتولي السلطنة مكانه ، ولما تحقق أن بنت صاحب حماة في طريقها إلى القاهرة عمل على معاجلته ، فاستدعاه للقلعة بحجة استشارته في أمر من الأمور ، فلما وصل إلي القلعة أمر أيبك بغلق أبوابها ومنع مماليك أقطاي من الصعود معه ، وكان قد رتب له المعز جماعة للفتك به[95] ، بينهم الأمير قطز المعزي وبهادر ، وسنجر ، فلما أمر بقتله وثبوا عليه وضربوه بالسيف حتى الموت ، وكان ذلك يوم الأربعاء 3شعبان سنة 652هـ/1254م[96] ، ولما أشيع الخبر بمقتله هم سبعمائة من خشداشيته وعلى رأسهم بيبرس البندقداري ، والأمير قلاوون الألفي ، وسنقر الأشقر ، وبرامق وغيرهم لنجدته ووقفوا تحت القلعة ظنا منهم أنه قبض عليه ، فلم يشعروا إلا ورأس أقطاي قد رمي بها المعز إليهم من سور القلعة[97] فتفرقوا بأجمعهم وخرجوا في الليل من القاهرة ، وكانت أبوابها مغلقة فأحرقوا باب القراضين أحد أبوابها الشرقية ، فسمي بعد ذلك بالباب المحروق إلي اليوم[98]

بعد مقتل أقطاي خشي خشداشيته من بطش أيبك وأن الدائرة سوف تدور عليهم فهرب الكثير منهم إلي ملوك البيت الأيوبي في الشام مثل الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق ، والمغيث عمر بالكرك ، ومنهم من آثر البقاء في أغوار الأردن والبلقاء والكرك والشوبك والقدس يقطع الطريق ويأكل بسيفه ، ومضي مائة وثلاثين منهم إلي سلطان سلاجقة الروم بآسيا الصغرى[99]

أما من بقي في القاهرة من أصحاب أقطاي فقتل بعضهم وحبس البعض الأخر وصادر أملاكهم وأموالهم ، ونودي في القاهرة والفسطاط بتهديد من أخفي أحدا من البحرية[100]

وترتب على مقتل أقطاي وفرار زعماء البحرية إلي الشام أن خاف غائلتهم المعز ، فكتب إلي الملك الناصر يحذره منهم ومن غدرهم ، فانتهز الناصر هذه الفرصة وطالب أيبك أن يعيد إليه المدن التي كان قد انتزعها منه في فلسطين ليقيم فيها المماليك البحرية ، وبذا يكون قد أرضاهم وأبعدهم عن مصر ، فاستجاب لطلبه ورد له هذه المدن[101]

ولما استتب الأمر للمعز أيبك بعد ثباته وصموده في وجه العقوبات التي واجهته بعث رسولا إلي الخليفة المستعصم العباسي سنة 653هـ/1255م يلتمس منه تشريفه بالتقاليد والخلع والألوية أسوة بمن تقدمه من سلاطين بني أيوب[102]

كما سعي أيبك إلي التحالف مع أمير مجاور من أمراء المسلمين وهو بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وأعلن أيبك برغبته في الزواج من ابنته(103) ، ولكن مشروع الزواج هذا جر على المعز الوبال الكثير ، حيث كان بداية الخاتمة لعهد أيبك ، حيث أثار شعور الغيرة في قلب شجرة الدر ، الذي أسائها جحود أيبك ، وبدأت تتزعم حركة المعارضة الداخلية والخارجية لسلطنته ، ودبرت مؤامرة لقتله ، ونجحت في تحقيق ذلك في أبريل سنة 655هـ/1257م[104].

وفى ذلك نجد أن المعز أيبك نجح في القضاء على جميع الأخطار التي واجهته وكان خطر زوجته هو الخطر الوحيد الذي لم يستطع ايبك رده ودفع حياته ثمنا لطموحاته ، وعرضت شجرة الدر السلطنة على بعض الأمراء ، فرفض أن يتولاها أحد في هذه الظروف ومنهم الأمير جمال الدين العزيزي ، والأمير عز الدين أيبك الحلبي.[105]

وانقسم أمراء المماليك إلى جزئين، حزب المعزية ونادوا بنور الدين على ابن سيدهم أيبك خلفا لأبيه ، والحزب الآخر هم البحرية ونادوا بالأمير علم الدين سنجر ، وانتهى الأمر بالاتفاق على مبايعة الملك المنصور نور الدين على بن المعز أيبك ، وقبض على علم الدين سنجر ، وسجن في القلعة ، ودبرت مؤامرة أخرى انتهت بقتل شجر الدر والقوها من سور القلعة إلى الخندق وبقيت أياما ثم دفنت بتربتها بالقرب من مشهد السيدة نفيسة[106] ، وهكذا انتهت حياة ايبك وشجر الدر.

السلطان الملك المنصور نور الدين على بن ايبك (655-657هـ/1257-1259م).

بعد مقتل عز الدين أيبك تعصب المماليك المعزية لابن سيدهم المدعو نور الدين على الرغم من صغر سنه حيث كان عمره 15سنه[107] ، فأقاموه سلطانا في ربيع الأول سنة 655هـ/1257م ، ولقبوه بالملك المنصور، وعلى الرغم من اعتراض المماليك

البحرية على سلطنته ومطالبتهم بتولية أتابك العسكر الأمير علم الدين سنجر ، إلا أن ذلك الأمر لم يتم حيث تم القبض عليه من قبل المعزية وسجنوه

ونظرا لصغر سن المنصور على فقد تم اختيار أحد الأمراء المعزية ليكون أتابكا له ، وهو سيف الدين قطز نائب السلطنة زمن المعز أيبك ، فأصبح قطز هو صاحب السلطنة الحقيقي في الدولة المملوكية ، وتولى المنصور على السلطنة ثلاث سنوات ثم عزله سيف الدين قطز[108]

أهم الأحداث في عصر المنصور على :

1- أطماع الأيوبيين:

تحركت من جديد مطامع بنى أيوب فى الشام ، وأولهم الملك المغيث صاحب الكرك ، حيث خرج على رأس جيش لغزو مصر بتحريض من بعض أمراء المماليك البحرية ، وسعي بمعونتهم في الاستيلاء عليها ، وذلك بعد ستة أشهر من تولي نور الدين على السلطنة وذلك في ذي القعدة سنة 655هـ/1257م[109] ، وتصدي لهم نائب السلطنة قطز ، وأنزل بهم الهزيمة عند الصالحية ، فعاد المغيث عمر مهزوما إلي الكرك[110] ، ثم عاود الملك المغيث الكره للاستيلاء على مصر مرة أخري في ربيع الأول سنة 656هـ/1258م ، وخرج قطز أيضا لمواجهته وهزمه أيضا[111].

2- الخطر المغولي:

وفى ذلك الوقت كان من عوامل الخطر الخارجي ما هو أدهى وأعظم ، وهو الخطر المغولي الذي اجتاح أسيا الإسلامية ، ووصلت الأخبار إلي مصر بأن هولاكو حفيد جنكيز خان المغولي استولي على بغداد في صفر سنة 656هـ/فبراير 1258م قلعة الإسلام وحاضره العباسيون واستمر في تخريبها أربعين يوما ، وقتل الخليفة العباسي وأفراد أسرته ، وأكابر دولته بعد تسليم بغداد بعشرة أيام[112].

وكان نتائج سقوط بغداد الأتي:

- فقد المشرق الإسلامي استقلاله.
- أصبحت الوحدة الإسلامية للمسلمين من الأمور المستحيل تحقيقها.
- منيت الثقافة الإسلامية بخسارة كبيرة حيث أتلف المغول آلاف الكتب والمخطوطات النادرة ، بجانب قتلهم الكثير من العلماء والأدباء.
- سقوط الخلافة الإسلامية بمقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله.
- انتقل مركز الزعامة الفكرية إلي القاهرة.

وعلى الرغم من الاجتياح المغولي فقد ظل ملوك الشام من بقايا البيت الأيوبي يجرون وراء مطامعهم الشخصية ، حتى أن الملك الناصر صاحب دمشق لم يتورع عن إرسال ولده الملك العزيز إلي هولاكو ومعه هدايا يطلب منه أن يمده ببعض قوات التتار لينتزع مصر من المماليك مقابل خضوعه لهذا الطاغية ، غير أن هولاكو كان يريد مصر لنفسه ، وأخذ يعد العدة للاستيلاء على الشام تمهيدا للسيطرة على مصر ، وطالب الناصر يوسف بالخضوع دون قيد أو شرط[113] ، فتحول الناصر من طلب ملك مصر إلي طلب النجدة منها وأرسل يستنجد بالمماليك ، ووعده قطز (الذي كان قد أعتلي السلطنة آنذاك) أن يساعده[114].

وكانت جيوش التتار تقترب من دمشق فاستولت على ديار بكر وآمد وغيرها ، وفى شهر صفر سنة 658هـ/1260م استولى هولاكو على حلب بعد سبعة أيام من التخريب وسفك الدماء[115] ، وذلك بعد أن دافعت حاميتها دفاعا باسلا لم يشهد المغول مثله ، واستشهد صاحبها الملك الكامل محمد الأيوبي[116] ، وأمام هذا الخطر رأي بعض أمراء الأيوبيين في الشام أن يخضعوا للغزاة حرصا على كيانهم ، ومن هؤلاء الملك الأشرف موسى سليل أسد الدين شيركوه الذي كان يملك تل باشر[117]

ولما بلغ الملك الناصر سقوط حلب بادر بترك دمشق والفرار جنوبا ، ودخل التتار دمشق دون قتال[118] ، وكان لسقوط دمشق في يد التتار دويا هائلا ، واضطربا شديدا وأشاع الفزع في قلوب أهل الشام وسار الناصر باتجاه الحدود المصرية حتي غزة على أمل أن تصله الإمدادات.

وآثرت قوات الناصر يوسف المرابطة بالقرب من غزة الانضمام الى الجيش المصري بقيادة سيف الدين قطز[119] ، وهرب الناصر في قلة من أتباعه بحثا عن ملجأ وعلم القائد المغولي كتبغا بمكان الناصر يوسف ، فأرسل مجموعة من فرسانه تمكنت من القبض عليه وأخذ أسيرا إلي هولاكو ومعه ولده العزيز وأخوه غازي[120]

وسار الملك المنصور صاحب حماة إلي مصر ومعه أولاده وحريمه ، ولكنه ارتد عنها قرب الحدود ، وتقدم التتار من دمشق إلي بعلبك فخربوا قلعتها وتوغلوا في جنوب الشام[121].

رأي هولاكو أن تتابع جيوشه زحفها نحو الغرب ، غير مقتصرين على الفتوحات التي تمت ، فأخذ يعد العدة للهجوم على بيت المقدس والتعقيب على ذلك بغزو البلاد المصرية[122]

وأمام هذا الخطر الداهم عقد سيف الدين قطز اجتماعا دعا فيه الأمراء والقضاه ، وأعلن فيه تحرج موقف مصر، وزيادة خطر التتار وتهديدهم لمصر بعد اجتياحهم لبلاد الشام ، وقال: **" لابد للبلاد من سلطان قاهر يقاتل هذا لعدو ، والملك المنصور صبي صغير لا يعرف تدبير المملكة "** ، فأجابه الجميع **" ليس لها غيرك"** ، فأقدم في الحال على عزل نور الدين على ، وقبض عليه وأخيه وأمه ونفاهم[123] وقد غضبت بعض مماليك أبيك لعزله فاعتذر لهم قطز بقوله **" أنما قصدت أن نجتمع على قتال التتار ، ولا يأتي ذلك بغير ملك ، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو ، فالأمر لكم أقيموا في السلطنة من شئتم.."** وأخذ يترضاهم حتى هدأت غضبتهم[124] ، وكانت مدة حكم المنصور سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام[125]

المظفر سيف الدين قطز: (657-658هـ/1259-1256م):

بعد أن تم عزل المنصور على يوم السبت 24 ذي القعدة 657هـ/1259م اتفق الحاضرون على توليه قطز لأنه كبير البيت ونائب الملك ، وزعيم الجيش ، وهو المعروف بالشجاعة والفروسية ، ورضي به الأمراء والكبار وخشداشيته ، وأجلسوه على سرير الملك ولقبوه بالمظفر[126] .

كان قطز شابا أشقر كبير اللحية ، ويقال كان أسمه الأصلي محمود بن ممدود ، وينسب إلي البيت الخوارزمي ، وهو ابن أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه الذي قضي التتار على مملكته ، وكان قطز من بين الأطفال الذين حملهم التتار إلي دمشق وباعوهم إلي تجار الرقيق ، ومعني قطز الكلب الشرس ، وهي كلمة مغولية أطلقها عليه من اختطفوه وباعوه ، وربما يكون تجار الرقيق هم الذين أعطوه هذا الاسم[127]

أتي قطز مصر ضمن بعض المماليك ، وترقي في الخدمة حتى صار أكبر مماليك الملك المعز أيبك التركماني[128] ، وتولي منصب نيابة السلطنة ، وكان قطز أحب مماليك المعز وأقربهم إلي قلبه ، وكان اشتراكه في التخلص من زعيم البحرية فارس الدين أقطاي هو أول ظهور له على مسرح الأحداث في الدولة المملوكية ، كما كان له دورا كبير في صد الخطر الأيوبي على مصر بعد مقتل سيده أيبك ، حتي انتهي الأمر بمقتله ، وبذلك خلا مسرح الأحداث من سيده وزوجته ، وبدا الطريق أمامه مفتوح نحو تولي السلطنة ، فحينما تولي المنصور على بن أيبك السلطنة وكان صغير السن كما ذكرنا ، ونتيجة لقرب الخطر المغولي من مصر قام قطز بعزل المنصور نور الدين على بعد أن قبض عليه هو وأمه وأخيه فاقان[129].

وهكذا صار قطز سلطانا على الديار المصرية وجلس على عرش السلطنة يوم السبت 24 ذي القعدة سنة 657هـ/1259م ، وهو أول مملوك خلع أبن أستاذه من الملك وتسلطن بدلا منه[130] 0

بدأ قطز يوطد دعائم حكمه في الداخل قبل أن يتوجه للقاء عدوه في الخارج ، فبدأ بتغيير الوزير ابن بنت الأعز ، وولى بدلا منه زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع ، كما قضى على معارضة كبار الأمراء الذين عارضوا عزله للمنصور على[131].

وفى هذه الأثناء أرسل هولاكو سفارة إلي قطز ومعها كتاب يطلبون فيه منه الاستسلام ، ويحمل كل معاني الوعد والوعيد والاتعاظ بغيره من الملوك الذين سقطت بلادهم في يديه[132] ، ولذا عقد قطز مجلسا من أمراء دولته وكبار أمراء المماليك ، وصارحهم بعزمه على السير لمواجهة التتار ، فأبدوا اعتراضهم وامتنع بعض الأمراء عن السير معه ، فأعلنهم أنه قائم بالحملة ولو اقتضى الأمر أن يلقي التتار وحده ، وصاح فيهم غاضبا: **" يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال ، وأنتم للغزاة كارهون ، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني ، ومن لم يختر ذلك يرجع إلي بيته ، فإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين"**[133] ، فكان لكلماته أثرها العميق في نفوسهم فاستجابوا للجهاد.

ولم يهتم قطز بحرب الأعصاب التي دأب عليها التتار والإفادة منها في تهديد الملوك والبلاد الأخرى ، وقام بدافع من الشجاعة وحبه للدفاع عن العالم الإسلامي ، وكرهه الشديد للمغول بتمزيق الخطاب وقتل سفراء هولاكو وعلق رؤوسهم على باب زويله[134] ، وأخذ يحشد قواه ، ويستعد لملاقاة المغول ، ونودي في القاهرة وسائر الأقاليم بالخروج إلي الجهاد.

وفى نفس الوقت أخذ قطز يعمل على حشد الجيوش وجمع الأموال اللازمة للإنفاق عليها بفرض ضرائب جديدة مختلفة على سكان القاهرة ، ولقي قطز في جباية تلك الضرائب معارضة شديدة من جانب القضاه ورجال الدين ، إذ اشترطوا عليه أولا إحضار ما عنده وعند حريمه ، وما عند الأمراء من الحلي وضربها سكة ونقدا وصرفها على الجيش ، فإن لم تقم بكفايتهم جاز أن يفرض ضرائب جديدة على الرعية وامتثل قطز لذلك الرأي وأحضر ما عنده هو والأمراء بين يدي الشيخ عز الدين بن عبد السلام أقوي رجال الدين في ذلك الوقت[135]

وفى صباح يوم الجمعة 26 رمضان سنة 658هـ/3سبتمبر 1260م ألتقي الجمعان المغولي والمملوكي في معركة عامة عند عين جالوت ، واتخذ الجيش المغولي موقعه صوب الجبل ، بينما كان جيش المسلمين بقيادة سيف الدين قطز في الوادي[136].

انقض المغول على المصريين في بادئ الأمر ، وتمكنوا من تشتيت جناحهم الأيسر ، فاضطرب المصريون ، وزلزلوا زلزالا شديدا وبانت الكره عليهم ، فألقي المظفر خوذته عن رأسه إلي الأرض ، وصاح بأعلى صوته: **"وإسلاماه"** وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة وألتفت حوله القوات ، فاختل توازن التتار وقتل "كتبغا" قائدهم وقتل باقيهم ، ومنح الله ظهورهم للمسلمين يقتلون ويأسرون وفر الكثير منهم وأبلي الأمير بيبرس أيضا بلاء حسنا بين يدي السلطان[137]

وقد عاد المغول وانتظموا مرة ثانية عند بيسان فاشتبك معهم المصريون ، واشتدت وطأة القتال وعاد السلطان قطز يصيح صيحة عظيمة سمعها معظم العسكر وهو يقول: **"وا إسلاماه"** ثلاث مرات **" يا الله انصر عبدك قطز على التتار"**[138] تأرجحت كفة النصر والهزيمة بين الطرفين في بيسان إلي أن مالت كافة النصر للمسلمين وهزيمة

المغول لأول مرة في تاريخهم هزيمة ساحقة ، عند ذلك نزل السلطان قطز عن فرسه ، ومرغ وجه على الأرض وقبلها وصلى ركعتين شكرا لله ثم ركب فرسه ينظر عاقبة المغول[139]

نتائج معركة عين جالوت:

- كانت أول هزيمة تلحق بالمغول في موقعة فاصلة وبذلك انهارت الخرافة القائلة بأن المغول قوم لا يغلبون.
- أدي الانتصار في عين جالوت إلي اكتساب دولة المماليك قوة دعمت مركزها في العالم الإسلامي ، بعد أن أثبت المماليك صلاحيتهم للحكم ، ومقدرتهم على الدفاع عن البلاد ضد أكبر خطر هدد المنطقة خلال القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي.
- حركت هذه الموقعة مطامع قطز في ضم ولايات الشام إلي مصر بعد أن أضعف التتار هيبة أمراء البيت الأيوبي في الشام ، حيث كان كبيرهم " الناصر يوسف " صاحب دمشق رهينة عند هولاكو وقتله هولاكو بعد المعركة وقتل بعض الأمراء الأيوبيين الذين كانوا قد أعلنوا الخضوع للتتار مثل الملك " الظاهر غازي" والملك " الصالح ابن شيركوه"
- تغيرت موازين القوى السياسية والعسكرية في المنطقة بشكل كامل وعلى مدى عدة قرون ، حيث ذابت في طيات الموجات المغولية القوة السياسية والعسكرية للخلافة العباسية ، واختفت التيجان الأيوبية ، وظهرت دولة سلاطين المماليك وريثا شرعياً لكل من الأيوبيين والعباسيين0
- استولى السلطان قطز على بلاد الشام كلها من الفرات إلى مصر
- تم توحيد مصر والشام تحت حكم المماليك.
- أنهى هذا الانتصار المقاومة الأيوبية لحكم سلاطين المماليك
- شجع هذا الانتصار المماليك على مواجهة الصليبيين بالشام ، وطردهم منه حيث تم لهم استرداد الإمارات الصليبية بالشام.
- كان انتصار المماليك في عين جالوت مقدمة لتوطيد العلاقات بين حكام المغول والمسلمين في القفجاق ، وبين المماليك في مصر والشام وانتشار الإسلام بين أهلي القبيلة الذهبية في دولة المغول في فارس.
- كان نصر عين جالوت بداية لخلاص الشام من أيدي المغول ، إذ أسرع ولاة المغول بالهرب قبل أن يقعوا في أيدي أهالي الشام الذين هبوا للانتقام منهم[140]
- تعرض معاونوا التتار من النصارى الذين تهجموا على الإسلام واعتدوا على المسلمين خلال فترة احتلال المغول للبلاد إلي مذبحة كبرى وخاصة في دمشق[141]
- تتجلى أهمية انتصار المسلمين في عين جالوت إذا تصورنا عكس ما حدث ، فلو أن المغول هم الذين انتصروا ، لكانوا قد قضوا على أخر معقل إسلامي وهو مصر ، فولا هذا الانتصار لكان الإسلام قد قضي عليه وتغير مجري تاريخ الشعوب الإسلامية.

بعد انتهاء المعركة وتحقيق النصر أخذ قطز يعمل على إعادة الأمن في جميع المدن الشامية ، وأعاد بعض أمراء البيت الأيوبي إلى ممالكهم الصغيرة في الشام ، مثل الملك المنصور صاحب حماه ، ولأشرف موسى صاحب حمص ، وذلك بعد أن أخذ عليهم المواثيق بالولاء ودفع الجزية[142] ، وأقام الأمير" علم الدين سنجر" نائباً له في دمشق[143] ، ومنح حلب إلى الملك السعيد "علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ" ، وكان غرضه من ذلك أن يصبح الملك السعيد وسيلة لتتبع حركات المغول وأخبارهم عن طريق مكاتباته مع أخيه الصالح بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل [144]0

وكان منح حلب للملك السعيد السبب في هلاك السلطان قطز ، إذ كان بيبرس قد طلبها منه ، وعندئذ غضب بيبرس ، وأضمر السوء لقطز ، وأدرك قطز ما يضمره له بيبرس0

وإذا نظرنا إلى موقف قطز ربما يتضح أنه أخطأ عندما عدل عن منح بيبرس ولاية حلب لأن منحه هذه الولاية كان الحل الوحيد لإبعاده عن منافسته

وأما الحقيقة كما ذكرنا أنه أراد تتبع أخبار التتار من خلال تعيين "علاء الدين لؤلؤ" نائباً على حلب بالقرب من أخيه بالموصل ، علاوة على ذلك أن السلطان قطز تخوف من ازدياد نفوذ بيبرس وسطوته في الشام عندما يصبح أميراً على حلب ، وهذا بطبيعة الحال راجع للمكانة المرموقة التي نالها بيبرس في مصر والشام لدوره المشرف وجهوده الكبيرة التي قام بها لطرد المغول[145]0

وإن كانت هذه الأسباب جديدة ، فكانت هناك أسباب قديمة في نفوس البحرية في مقدمتها مقتل فارس الدين أقطاي وهروب البحرية وتشتيتهم في البلاد وما لاقوه من الهوان ، ولذا لم تكن نيابة حلب هي السبب الأساسي في سوء العلاقة بين الغريمين بل كانت مظهراً من مظاهر العلاقة السيئة بينهما[146] 0

ومن هنا تنكر بيبرس للسلطان قطز ، واتفق مع جماعة من الأمراء على قتله ، وظل يترقب الفرص لتنفيذ غرضه ، وكان أن نفذت المؤامرة أثناء عودة السلطان إلى مصر ، إذا انتهز بيبرس فرصة انشغال السلطان بالصيد قرب الصالحية ، وطلب منه أن ينعم عليه بأمرأة من سبى التتار ، فأنعم بها عليه ، فأخذ بيبرس يد السلطان ليقبلها ، وكانت إشارة بينه وبين الأمراء ، فبادره الأمير بدر الدين بكتوت بالسيف ، واختطفه الأمير أنس وألقاه عن فرسه ، ورماه الأمير بهادر المعزى بسهم أتى على روحه ، وذلك يوم السبت 15ذى القعدة ودفن بالقصير ، وكانت مدة سلطنته أحد عشر شهرا وسبعة عشر يوما ثم حمل قطز بعد ذلك إلى القاهرة ودفن بالقرب من زاوية الشيخ تقي الدين[147]

السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى (658-676هـ /1260-1277م).

بعد مقتل السلطان سيف الدين قطز اتفق الأمراء على بيبرس ، فعينوه سلطانا في 15 ذي القعدة لسنة 658هـ/1260م وهو بالصالحية ، فعندما انتشر خبر مقتل السلطان تقدم أحد أمراء المماليك وهو الأمير اقطاى المستعرب ـ أتابك العسكر ـ وسأل المتآمرين **" من الذي قتل السلطان؟ "** ، فقال بيبرس: **"أنا قتلته"**[148] ، فقال الأمير أقطاي **"يا خوند ، أجلس في مرتبة السلطنة مكانه"** ، واستدعيت الجند فحلفوا له وبايعه الأمراء ، وركب

بيبرس في موكب النصر الذي كان معدا لقطز ، ودخل القاهرة وصعد إلي القلعة وتسلمها ، وفى اليوم التالي نودي في القاهرة أن ترحموا على الملك المظفر ، وادعوا لسلطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس[149] ، وكان لقب بيبرس "بالقاهر" غير مرغوب فيه ، فأشار عليه أهل الفضل بتغيره ، وقيل له **"ما لقب به من أحد وأفلح"** ، فتلقب بالظاهر[150] ، ويتميز عهد الظاهر بيبرس بالعديد من **الأحداث الداخلية والخارجية أهمها:**

1- **الثورات الداخلية.**
2- إحياء الخلافة العباسية في القاهرة.
3- التخلص من العناصر الأيوبية المناوئة.
4- جهود بيبرس ضد الصليبيين0
5- جهود بيبرس ضد المغول.

وسوف نتناول كل هذه الأمور بشيء من التفصيل.

أولا: الثورات الداخلية.

الواقع أن الأمور لم تستقر لبيبرس في سهولة إذ تعرض أوائل حكمة لبعض الفتن والثورات الداخلية،حيث نشبت ثورتان في وقت واحد هما:

1- ثورة الأمير سنجر الحلبي:

نائب السلطنة بدمشق الذي أستاء لمقتل قطز ، ورفض الاعتراف بسلطنة بيبرس ، فأعلن نفسه سلطانا في دمشق في ذي الحجة سنة 658هـ/ نوفمبر 1260م[151] ، وتلقب بالملك المجاهد ، وركب بشعار السلطنة ، وخطب له على المنابر وضربت السكة باسمه ثم حصن دمشق استعدادا للقتال[152] ، وأرسل يستعين ببقايا الأيوبيين حيث راسل نائب حلب الأمير حسام الدين لاجين ، وصاحب حماه الملك المنصور الأيوبي ، وصاحب حمص الأشرف موسى ، ولكنهم رفضوا مساعدته ، وذلك خشية السلطان بيبرس[153]

لجأ بيبرس إلي استخدام المال لكي ينفض أنصار سنجر من حوله ، وأرسل كتبا لإقناعه بلزوم الطاعة ، إلا أن هذه المحاولات قد فشلت ، فبادر بيبرس بإرسال جيش بقيادة أستاذه القديم أيدكين البندقداري ، ونجح هذا الجيش في تنفيذ مهمته حيث قضي على التمرد وعاد بنائب دمشق - سنجر- مكبلا بالحديد[154] ، وذلك في صفر سنة 659هـ/يناير سنة 1261م ، حيث أعتقل بقلعة الجبل بعد شهر واحد من ثورته ، وولى بيبرس أستاذه علاء الدين البندقدارى نيابة دمشق[155]0

2- ثورة الكورانى :

أما الثورة الثانية فقد قادها رجل شيعي يعرف بالكوراني نسبة إلى كوران من نواحي نيسابور[156] ، وهذا الرجل أظهر الورع والتقوى والزهد ، وسكن قبة بجبل المقطم ، وجمع حوله بقايا الجنود السود الذين كانوا موالين للشيعة ، وتردد عليه الغلمان وغيرهم ، وأخذ يحرضهم على الإطاحة بحكم بيبرس السني واستبداله بحكم شيعي ، وفى أواخر سنة 658هـ/1260م شق الثوار شوارع القاهرة ليلا وهم ينادون **" يا آل علي"** وفتحوا حوانيت السيوفيين بين القصرين بالقاهرة واستولوا على ما بها من سلاح ، واستولوا على عدد من الخيول ، فأرسل بيبرس من الجند ما كفل بالقضاء على المتمردين ، وخمدت الثورة ، وأمر بصلب الكوراني وغيره من زعماء الثورة على باب زويله[157]

كان القضاء على المشكلات والأخطار الداخلية الخطوة الأولي والهامة في سياسة بيبرس لتوطيد سلطنته في الداخل ، وهذا بالتالي من أهم عوامل تدعيم دولة المماليك.

ثالثا: إحياء الخلافة العباسية.

بعد أن نجح بيبرس في القضاء على الثورات الداخلية ، وهدأت له الأحوال لم يعد ينقص حكمه سوي السند الشرعي ، أي الحصول على تقليد صاحب الحق الشرعي في حكم المسلمين وهو الخليفة العباسي ، والتي كانت قد سقطت في ذلك الوقت على أيدي التتار وقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله ، وولده وكثير من رجال البيت العباسي كما ذكرنا ذلك من قبل.

وبعد أن أسدل الستار على المأساة الأليمة التي دارت أحداثها في بغداد حين قتل هولاكو الخليفة العباسي ، وأهل بيته ،وخرب بغداد سنة 656هـ/1258م وغربت شمس الخلافة العباسية في بغداد عادت لتشرق مرة أخري في القاهرة على يد السلطان بيبرس.

ولم يكن الظاهر بيبرس أول من فكر في نقل الخلافة العباسية إلي مصر ، ولكنه كان أول من نجح في تحقيق هذا فقط ، فقد سبقه إلي التفكير في ذلك الأمير أحمد بن طولون سنة 269هـ/882م أثناء صراعه مع ولى عهد الخلافة الأمير أحمد الموفق ، ففكر في استدعاء الخليفة العباسي المعتمد للإقامة في مصر ، وكاد الخليفة أن ينجح في الفرار من بغداد والوصول إلي مصر ، ولكن الأمر أكتشفه وقبض عليه رجال الموفق ، وأعيد إلي العاصمة تحت الحراسة[158]

وكان أحمد بن طولون يهدف من ذلك تدعيم دولته الجديدة التي أسسها في مصر والشام ، وأن يمتنع عن إرسال الجزية السنوية إلي دار الخلافة بالإضافة إلي تحطيم منافسيه في بغداد[159].

وكذلك حاول محمد بن طغج الإخشيدي نفس المحاولة عندما ذهب إلي الشام سنة 333هـ/944م لإغاثة الخليفة المتقي من ظلم الحمدانيين بحلب ، واستبداد الأمراء الأتراك به في بغداد ، وطلب من أن يصحبه إلي مصر، ولكن الخليفة عز عليه أن يترك عاصمته ومقر أسرته ، فرفض هذا العرض ، وعاد الإخشيد إلي مصر دون تحقيق هدفه ، ولاشك أنه كان يهدف من ذلك تقوية دولته في مصر[160].

ويقال أن الملك الناصر صاحب حلب ودمشق فكر في إحياء الخلافة العباسية أوائل سنة 658هـ/1260م عندما علم أن أميرا عباسيا اسمه أبو العباس أحمد موجود بالقرب من العراق ، ويريد أن يأتي إلي دمشق ، ولكن الناصر فوجئ بقدوم التتار إلي الشام ، ففشل مشروعه[161]

أما السلطان المظفر سيف الدين قطز فقد فكر سنة 658هـ/1270م في إعادة الخلافة العباسية إلي بغداد ، وذلك لأنه بعد الانتصار في عين جالوت علم وهو في دمشق بوصول أحد أمراء البيت العباسي وهو أبو العباس أحمد الذي حاول الذهاب للناصر يوسف من قبل ، فقال لأحد الأمراء الأعراب بالحدود العراقية ، وهو الأمير عيسى ابن مهناء **" إذا رجعنا إلي مصر أنفذه إلينا لنعيده إن شاء الله"** ، ولكن السلطان قطز لم يمهله القدر لينفذ مشروعه بإحياء الخلافة العباسية في بغداد[162] ، فلما قتل السلطان قطز عاد أبو العباس أحمد إلي الحدود العراقية حيث تمكن بمن معه من عرب وأتباع أن يحتل بعض المدن الهامة هناك مثل عانه والحدثية والأنبار وأن ينتصر على سرية من عسكر التتار[163]

ومما سبق يتضح لنا أن حكام المسلمين قبل بيبرس رغبوا وحاولوا في نقل الخلافة العباسية إلي القاهرة وأحيائها ، وتلك الرغبة ظلت قائمة حتى تولي بيبرس السلطنة في مصر ، فشرع في إخراج المشروع إلي حيز التنفيذ ، وكذا أرسل في طلب الأمير العباسي أبا العباس أحمد لمقابلته في القاهرة ، غير أنه سبقه إليها أمير آخر من بني عباس هو أبو القاسم أحمد فآثر أبو العباس أحمد العودة إلي الشام واستقر بحلب[164]

أما أبو القاسم أحمد الذي وصل القاهرة ، فقابله بيبرس خارج العاصمة سنة 659هـ/1261م ومعه الوزير بهاء الدين ، وقاضي القضاة والعلماء وكبار رجال الدولة ، وشهد جماعة من هؤلاء العربان الذين أتوا مع أبو القاسم أحمد بأنه هو ابن الخليفة الظاهر العباسي ، وعند ذلك أعلن قاضي القضاة قبوله لهذه الشهادة ، وبايع أبا القاسم ، ثم تبعه السلطان وجميع الحاضرين ولقب بالمستنصر بالله ، وبعد أن تمت البيعة للمستنصر قلده بيبرس ما بيده من ملك وما قام بفتحه من بلاد ثم كتب السلطان إلي النواب والملوك بسائر البلاد يأمرهم بأخذ البيعة للمستنصر بالله وأن يدعي له على المنابر وضربت السكة باسميهما معا[165]

وكان بيبرس حتى ذلك الحين لا يزال يتجه الاتجاه القديم الذي بدأه قطز ، وهو محاولة إحياء الخلافة العباسية وإعادتها إلي بغداد ، ولذلك بدأ يزود الخليفة المستنصر بالجند والسلاح والمال ليعمل على استرداد بغداد ، ويستقر بها وخرج مع الخليفة إلي دمشق وفى عزمه أن يزوده بجند آخرين من الشام ، وفى دمشق أشار عليه أحد أمراء الموصل " أن الخليفة إذا استقر في بغداد نازعك وأخرجك من مصر"[166] ، فبدأ بيبرس يعيد تفكيره من جديد وضعفت حماسته ، واكتفي بأن أرسل الخليفة وبرفقته قوة من ثلاثمائة فارس فقط يخترق بهما الصحراء ، واتجه المستنصر بهذه القوة الضئيلة إلي الرحبه وهناك انضم إليه أربعمائة فارس آخرون من عرب العراق ، ثم لحق به أجناد آخرون من الموصل وحماة ومعهم الأمير أبو العباس أحمد منافسه في الخلافة ووصل مدينة الحديثة[167] ، وخرج قاصدا مدينة هيت ففتحها ، وبالقرب من الأنبار التقي ومن معه من الفرسان بجيش التتار ووقعت بينهما معركة دامية انتهت بهزيمة جيش الخليفة والقضاء عليه واستشهد الخليفة المستنصر في هذه المعركة ، ولم يفلت منهم سوي الأمير أبو العباس أحمد وبضعة من الأمراء[168]

هيأت الظروف للأمير أبي العباس أحمد الفرصة إذ أرسل إليه السلطان بيبرس يستدعيه للقاهرة[169] ، فلما قدم إلي مصر سنة 660هـ/1262م احتفل بيبرس بلقائه ، وأنزله بالقلعة وعقد مجلسا عاما بالإيوان الكبير بالقلعة ، كما حدث للمستنصر من قبل وجاء أبو العباس وقرأ نسبه على الناس بعدما ثبت صحته ، ولقب بالحاكم بأمر الله ، وبايعه السلطان على العمل بكتاب الله وسنة رسوله ، ولما تمت البيعة أقبل على السلطان وقلده أمور العباد والبلاد ، ولقبه " قسيم أمير المؤمنين" وبايعه الناس على اختلاف طبقاتهم ، وخطب له على منابر مصر والشام[170]

وبهذا تم إحياء الخلافة العباسية نهائيا ، غير أن بيبرس لم يفكر في تزويد هذا الخليفة الجديد بجيش لاستعادة بغداد ، وإنما أبقاه في القاهرة ليكون قريبا منه وتحت عينه ، وبذلك لا يخشي بأسا من محاولاته ، فالظاهر بيبرس لم يريد أن يخلق قوة ثانية إلي جانبه ، وإنما أراد أن يكسب سندا شرعيا أمام الرأي العام يقوي به مركزه ومركز دولته ، ولهذا

أسكنه أحد أبراج القلعة وعيونه تراقبه من بعيد ولم يكن له من مظاهر السيادة إلا الخطبة باسمه يوم الجمعة ، وحرم من ضرب اسمه على السكة مع السلطان[171]

فالخلافة العباسية لم تستفد شيئا من هذا الإحياء، وإنما الذي استفاد من إحيائها هم سلاطين المماليك وعاصمتها القاهرة ، فقد أصبح سلاطين المماليك لهم المقام الأسمى على كل ملوك وحكام العالم الإسلامي باعتبارهم حماة الخلافة والمتمتعون ببيعتها ، وكذلك أصبحت للقاهرة مكانة سياسية ممتازة تفوق كل عواصم العالم لأنها مقر الخلافة التي يدين لها بالولاء الروحي كل العالم الإسلامي[172] ، وقصدها الصناع ورجال السياسة والباحثين عن الأمن والاستقرار من شتي أرجاء دنيا العرب المسلمين ونتج عن ذلك حركة علمية نشطة[173] ، ونحن نعرف أن القاهرة كانت مقرا للخلافة الفاطمية قبل ذلك ، ولكن كان هناك خلافتان آخرتان تعاصرانها وتنافسانها ، وتطعنان في نسبها وشرعيتها وهما الخلافة العباسية في بغداد ، والخلافة الأموية في قرطبة ، أما في العصر المملوكي فلم يكن هناك في العالم الإسلامي سوى خلافة واحدة وهى الخلافة العباسية في القاهرة ، وحتى الخلافة الأموية في الأندلس كانت قد زالت ولم يدين لها بالولاء أحد في قوتها إلا الأندلس وحدها

ثالثا: التخلص من العناصر الأيوبية المناوئة:

إذا كان بيبرس قد تسامح بعض الشيء مع أمراء المماليك الذين شقوا عصا الطاعة وأعلنوا التمرد ضده ، إلا أنه انتهج سياسة مخالفة تماما مع القوي الأخري التي كانت تشكل تهديدا لدولة المماليك ، وكان من هذه القوى بقايا البيت الأيوبي الذين كانوا ما يزالون يحكمون في بلاد الشام ، فعلي الرغم من أن المنصور صاحب حماة ، والأشرف موسى صاحب حمص أعلنا ولاءهما لبيبرس ، كما أن الملك الصالح صاحب الموصل وصل للقاهرة سنة 659هـ/1260م ولحق به أخوه الملك المجاهد صاحب الجزيرة ، واستقبلهما السلطان بحفاوة ثم كتب تقليدا للملك الصالح ركن الدين بالموصل وولاياتها ثم ولي الملك المجاهد بلاد الجزيرة وأعمالها[174] ، فإن الملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل الأيوبي صاحب حصن الكرك لم يقلع يوما عن مناوأة سلاطين المماليك منذ عهد السلطان المعز أيبك اعتقادا منه أنه أحق منهم في ملك مصر والشام[175] ، وكان يشن غاراته على المناطق الخاضعة لمصر ، بل راسل هولاكو وحرضه على غزو مصر[176] ، فلما جاء بيبرس إلي السلطنة عزم القضاء على المغيث عمر وإزالته ، ولذا خرج بيبرس بجيش قوى من مصر لتحقيق ذلك سنة 661هـ/1262م ، ولكن أم المغيث عمر أسرعت لتقابل بيبرس عند غزة وتطلب منه الأمان لابنها ، فأحسن بيبرس إليها ، ثم خرج المغيث من الكرك ، وخدعه بيبرس حتى قبض عليه وفضح أمر مراسلاته مع المغول[177] ، ثم أرسله إلي مصر مقيدا في الحديد حيث سجنه بقلعة الجبل ، وأطلق حاشيته وبعث بحريمه إلي مصر وأطلق لهم الرواتب[178] ، ثم استولى بيبرس على الكرك وعين عليها واليا من قبله سنة 662هـ/1263م ، وبذلك انتهى آخر بقايا الحكم الأيوبي في الشام ، وأصبح السلطان المملوكي بالقاهرة لا تنازعه قوة أخري في حكم البلاد.

رابعا: جهود بيبرس ضد الصليبيين:

بعد تغلب بيبرس على العقبات السابقة كان أمامه خطرين كبيرين استمرا يهددان الحكم المملوكي في بلاد الشام ، وهما خطر المغول وخطر الصليبيين.

ونبدأ بالحديث عن الصليبيين ، نجد أن المماليك بدءوا حكمهم بالتزام الحذر في علاقاتهم مع الصليبيين حتي لا يضطرون إلي مواجهة أكثر من جبهة في وقت واحد ، ولكن الموقف تغير خلال فترة حكم الظاهر بيبرس ، وخاصة بعد أن استقرت أوضاع المماليك في الداخل وتم إحياء الخلافة العباسية في القاهرة كما أوضحنا ذلك،وتم توحيد مصر والشام تحت حكم السلطان المملوكي ، لذلك بدأ بيبرس يفكر في محاربة الصليبيين وطردهم من الشام[179] ، ففي سنة 662هـ/1263م خرج إلي غزة ، ونزل بالطور ومن هناك أرسل جنودا فهدموا كنيسة الناصرة ، ثم قاموا بالإغارة على عكا واستولي على بعض الغنائم ، ثم غار عليها السلطان بيبرس بنفسه وهدم برجا خارجيا فيها[180]

الاستيلاء على قيسارية:

وفى سنة 663هـ/ 1264م توجه بيبرس إلى بلاد الشام وهاجم قيسارية ونصب عليها المجانيق وحاصرها حتى تم الاستيلاء عليها عنوه ، وتم له فتحها في ثلاث ساعات ، ولم يتمكن من الاستيلاء على قلعتها إلا بعد أسبوع مما يدل على أن بيبرس لاقى مقاومة شديدة من حاميتها[181] ، ثم هدمت أسوارها0

الاستيلاء على حيفا وأرسوف:

وفى نفس السنة استولى بيبرس على مدينة حيفا وقلعتها وأمر بتدميرها ، وقد فر الكثير من أهلها عن طريق البحر ، وتعرض من بقي للقتل ثم هاجم قلعة عتيلت إحدى قلاع فرقة الداوية ، ولم يتمكن من الاستيلاء عليها بل أحرق القرى الواقعة خارج أسوارها ، ثم اتجه إلى أرسوف واستولي عليها ، وكانت ضمن حصون فرقة الإسبتارية[182].

الاستيلاء على صفد:

وفى العام التالي سنة 664هـ/1266م هاجم بيبرس قاعدة استراتيجية صليبية خطيرة في الشام هي قلعة الصفد التي كانت قاعدة لفرسان الداوية[183] ، حيث نصب عليها المجانيق وحاصرها قرابة الشهر وتمكن من ثقب أسوارها حتي اضطر أهلها إلي طلب الصلح ، على أن يخرجوا من المدينة آمنين ، فوافق السلطان على ذلك واشترط عليهم ألا يصحبوا معهم مالا ولا سلاحا ، ورسم أن يفتشوا عند خروجهم ، فإن وجد مع أحد منهم شئ من ذلك انتقض العهد[184] ، ووقف السلطان بيبرس بنفسه على باب المدينة ، فحاول بعض الفرنج الخروج ببعض الأموال والممتلكات ، واكتشف أمرهم ، فأمر السلطان بضرب رقابهم[185] ، ثم أمر بإعدام حاميتها من فرسان الداوية الذين ارتكبوا من المذابح والفظائع في حق المسلمين[186] .

كان سقوط قلعة صفد في يد المسلمين قد أصاب الصليبيين بضربة قاسمة وحطم معنوياتهم ، ولذا سارعت بعض القوي الصليبية إلي عقد هدنة مع السلطان بيبرس على أساس مبدأ المشاركة معه في غلات بلادهم ومنتجاتها[187].

وعمل بيبرس بعد ذلك على تقوية المدينة وتحصينها وتعميرها وملكها للجند الظافرين ، وقد هيأ الاستيلاء على صفد للسلطان السيطرة على الجليل ، ثم استولي على قرية القارة - تقع بين دمشق وحمص[188]0

الاستيلاء على يافا:

وفي سنة 666هـ/1268م وجه السلطان هدفه للاستيلاء على مدينة يافا ، وكانت على درجة عالية من التحصين ، حيث قرر المسير إليها ليلا حتي إذا أصبح الصباح كان بقواته على أبوابها ، ولم يثبت الفرنج أمامه ، بل لاذوا بالفرار وتمكن المسلمون من دخول المدينة واحتلالها بعد أن طلب أهلها الأمان ، فأمنهم السلطان وخرجوا بحرا متجهين نحو عكا ، وأمر السلطان بيبرس بهدم قلعة يافا[189].

هاجم بيبرس مدينة عكا ولكنه لم يفلح في الاستيلاء عليها بعد أن باغت الفرنج أمامها ، وتخفى جنوده في زي الفرسان الداوية والاسبتارية ، وعلى الرغم من ذلك حقق هذا الهجوم بعض النتائج حيث تم توقيع بعض المعاهدات مع بعض زعماء الفرنج مثل أمير صور ، وأمير بيروت ، وفرسان الاسبتارية في حصن الأكراد وحصن المرقب[190].

استرداد إمارة إنطاكية:

في سنة 666هـ/1268م غادر بيبرس القاهرة مرة أخرى لقتال الفرنج ، حيث أراد أن يوجه ضربة حاسمة إلي أهم إمارة صليبية وهى إنطاكية في أقصى الشمال ، حيث قام بمهاجمتها من خلال ثلاث فرق:

الأولي: بقيادة الأمير بدر الدين الخازندار واتجهت إلي ميناء السويدية لتقطع الصلة بين أنطاكية والبحر.

الثانية: بقيادة الأمير عز الدين ايغان لسد الممرات بين قليقية والشام لمنع وصول الإمدادات إليها من أرمينية الصغرى.

والثالثة: بقيادة بيبرس نفسه ، وهى القوة الرئيسية التي هاجمت المدينة[191]

ظل بيبرس محاصرا للمدينة في غيبة صاحبها بوهيمند السادس في طرابلس ، مما اضطر أهلها إلي طلب الأمان وفق شروط لم يرض بها بيبرس ، وصمم على امتلاك المدينة منه واستغرق منه ذلك أسبوعين ، نشب خلالهما قتالا عنيفا بين الجيشين وبلغ عدد قتلى الفرنج أكثر من أربعين ألف قتيل[192] ، ويذكر المقريزي أن غنائم المسلمين في أنطاكية بلغت من الكثرة مبلغا كثيرا حيث قسمت النقود بالطاسات ، وبلغت كثرة الأسري أنه لم يبق غلام إلا وله غلام ورخص ثمن الرقيق من الصليبيين في أسواق النخاسة[193].

كان سقوط إنطاكية في يد المسلمين كارثة كبرى على القوى الصليبية لأنها كانت بحكم موقعها الجغرافي سنداً قوياً للصليبيين منذ أوائل الحروب الصليبية ، حيث كانت إنطاكية قد استولى عليها الفرنج سنة 492هـ/ 1098م ، واستردها المسلمون سنة 666هـ/ 1268م وبذلك تكون ظلت تحت الحكم الصليبي ما يقرب من 170سنة[194]0

كان لسقوط إنطاكية في يد المسلمين أثر كبير في شعور الفرنج بالضعف والخوف في مواجهة المسلمين ، سارع بعض حكام المستوطنات الصليبية إلى تقديم فروض الطاعة والولاء للسلطان المملوكي لاسترضائه0

ويعد سقوط إنطاكية بداية انهيار الإمارات الصليبية في الشام 0

مهاجمة طرابلس :

بعد استرداد إنطاكية أخذ بيبرس في مهاجمة إمارة طرابلس وذلك سنة 669هـ/ 1270م ، فاستولى على المنافذ المؤدية إلى المدينة نفسها ، وبعض الحصون المحيطة بها مثل حصن الأكراد وحصن عكار[195] ، ولكن الأنباء التي جاءت بخروج حملة صليبية جديدة من فرنسا وهى الحملة المعروفة بالثامنة بقيادة لويس التاسع ، جعلت الظاهر بيبرس يعود مسرعاً للقاهرة لكي يستعد لمواجهة الفرنج وأعلن حالة التعبئة العامة ، والاستعداد في المواني والثغور المصرية[196] وأرسل إلى صاحب تونس بوصول العساكر إليه لنجدته ضد الفرنج ، وكتب إلى عربان برقة وبلاد المغرب بالمسير إلى نجدة الخليفة الحفصي ، وأمرهم بحفر لآبار في الطرقات برسم العساكر ، وشرع في تجريد العساكر إلى تونس[197]0

ولما تأكد بيبرس أن مراكب الفرنسيين وصلت الشواطئ التونسية وأصيب لويس التاسع بحمي شديدة ومات ، وانتهي أمر هذه الحملة بإجراء مفاوضات مع الخليفة الحفصي ، وعادت الحملة بعد أن فشلت في تحقيق هدفها[198] ، عاد بيبرس إلي بلاد الشام لمقاتلة

الفرنج في طرابلس ، فأرسل إليه أميرها بوهيمند السادس يطلب الصلح ، والمسالمة ، ونظرا لتطور الأحوال السياسية بوصول الأمير إدوارد الإنجليزي إلي عكا على رأس قوة صليبية جديدة تحوي ثلاثمائة سفينة وألف فارس ، غير القوات الأخرى، اضطر بيبرس أن يجيب بوهيمند إلي طلبه ، وتم الاتفاق على عقد الصلح بينهما لمدة عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام[199]

محاولة غزو قبرص:

أدرك بيبرس مدى أهمية قبرص بالنسبة للصليبيين ، وذلك عندما صار هيو الثالث لوزتيان ملكا على مملكة بيت المقدس الصليبية في عكا شمال طرابلس[200] ، كما أنه أرسل بعض المساعدات الحربية للصليبيين في الشام أثناء مواجهتها مع جيوش بيبرس هذا بجانب إرساله بعض القراصنة يسعون بسفنهم في موانى مصر والشام ، وتصاعد نشاط هيو العدواني أثناء انشغال بيبرس بالاستيلاء على المعاقل الصليبية في الشام[201].

ولذلك أسرع بيبرس في سنة 669هـ/1207م بإعداد أسطول من سبع عشرة سفينة بقيادة ابن حسون لتأديب جزيرة قبرص وملكها غير أن رياحا عاصفة هبت على الأسطول فحطمت إحدى عشر سفينة وألقت بهم على ميناء ليماسول بقبرص وأسر من كان على متنها ، ثم عادت السفن الباقية بقيادة ابن حسون إلي الموانى المصرية[202] ، وتمكن بيبرس فيما بعد من تهريب جنود حملته البحرية من سجن عكا حيث كان الملك الصليبي قد أمر بسجنهم[203]

بيبرس والمغول:

لم تكن موقعة عين جالوت خاتمة العلاقات بين الدولة المملوكية وبين المغول ، بل كانت بداية هذه العلاقات ، وقد أدرك بيبرس منذ اللحظة الأولي أن المغول لابد مقدمون على الأخذ بثأرهم ، ولهذا أخذ يستعد لمناضلة المغول ، وقد كان نضاله معهم متصلا اتصالا وثيقا بنضاله مع بقايا الصليبيين في الشام ، وذلك لأن الصليبيين والدول المسيحية عامة كانوا يطمعون في نشر الدين المسيحي بين المغول ، وبهذا يتعاون المغول والصليبيين معا للقضاء على الدولة المملوكية[204]

لم يعلم المغول بموت السلطان سيف الدين قطز حتى اجتمعت قلوبهم ، وأغارت على مدينة البيرة بقيادة بيدرا سنة 636هـ/1265م ومنها تقدموا نحو حلب وحماة ، ولم يستطيع الملك السعيد بن بدر الدين لؤلؤ والي حلب الوقوف أمامهم ، وترك حلب إلي حماة ، فأرسل بيبرس جيشه وتمكن من استرداد البيرة[205]0

ولذا عمل بيبرس على تقوية قلعة البيرة ، وعمل على إفساد الطريق والوديان المؤدية إلي الشام لكي لا يجد مغول فارس أثناء زحفهم ما يجنحون إليه من أقوات وأعشاب لدوابهم[206] ، كما تحالف مع مغول القفجاق وتزوج ابنة زعيمهم بركة خان الذي اعتنق الإسلام ، وصار معاديا لمغول فارس[207]

وفى سنة 636هـ/1265م مات هولاكو وخلفه أبنه أبغا الذي سار على نهج أبيه في معاداة المماليك ، ومصادقة الصليبيين ، وقد حاول أبغا ابن هولاكو نفسه فيما بعد أن يعقد صلحا أو هدنة مع بيبرس مرتين ، ولكن بيبرس رفض[208] ، ثم استأنف القتال تجاه دولة المماليك ، ففي سنة 668هـ/1269م اتفق المغول مع الصليبيين وشنت قوات أبغا هجوما

على المناطق القريبة من حلب ، إلا أن القوات المملوكية صدتهم ، وارتدوا عن هذه المناطق[209]

وفى سنة 670هـ/1271م عاودت القوات المغولية الهجوم ضد المسلمين في بلاد الشام بالقرب من حران ، ولكن الهزيمة كانت من نصيبهم أيضا[210]0

وفى سنة 671هـ/1272م توجه بيبرس لملاقاة التتار في أرضهم ، فحمل معه عدة مراكب مفككة الأجزاء على ظهور الجمال وأنزلها في نهر الفرات حيث أعاد تركيبها ، وعبر بجنوده إلي الشاطئ الشرقي ، وجرت بينهما معركة عنيفة عند (مخاضة الحمام) انكسر فيها التتار وهربوا وتركوا ما كان معهم من العدد والمجانيق فأخذ بيبرس البيرة وحصنها وأقام بها حامية للدفاع عنها[211].

لم يلبث المغول بعد ذلك أن اتجهوا إلي مناوأة بيبرس في ميدان آخر ، وهو بلاد أسيا الصغرى في الشمال حيث كانت دولة السلاجقة الروم قد ضعفت ، وأصبحت خاضعة للمغول منذ عهد هولاكو ، ولذا فكر بيبرس في مهاجمة دولة سلاجقة الروم ليقضي على نفوذ المغول بها[212] ، فاشتبك بيبرس مع جيوش سلاجقة الروم وجيوش المغول في موقعة(ايلستين) ، وانتصر عليهما انتصارا ساحقا سنة 675هـ/1277م ، وفقد المغول فيها ما يقرب من 7000 قتيل ، ودخل بيبرس قيسارية عاصمة الدولة[213] ونزل بدار السلطنة وجلس على عرش سلاجقة الروم حيث استقبله الناس بحفاوة بالغة.

عاد بيبرس بعد انتصاره هذا إلي الشام ، غير أنه سمع باستعداد التتار للانتقام لما حل بهم في إيلستين ، وزار أبغا ساحة المعركة ، ووجد أن معظم القتلى من المغول فلم يتمالك نفسه وبكي مرارا ، ثم أمر بنهب تلك البلاد ، وقتل عداد كبيرا من سكانها المسلمين لأنهم رحبوا بالسلطان بيبرس[314].

وكان من المنتظر أن يعود السلطان بيبرس إلي بلاد سلاجقة الروم لحمايتها ، وطرد المغول منها بحكم أنها صارت تابعة لدولة المماليك رسميا ، ولكنه توفي في نفس السنة في دمشق سنة 676هـ/1277م[215].

وهكذا تنتهي حياة السلطان الظاهر بيبرس البندقداري بعد أن تجاوز الخمسين من عمره ، وبعد فترة حكم طالت إلي سبع عشرة سنة وشهرين واثني عشر يوما[216] ، وكان أعدائه من الكثرة بحيث لم تخل سنة من سنوات حكمه من حملات يشنها ضد الصليبيين في الشام وفى العراق ضد المغول ، وفى جنوب مصر ضد النوبيين ، وقضي فترة حكمه كلها في جهاد متواصل في كل ناحية من نواحي دولته[217]0

الملك السعيد بركة خان (676-678هـ/1277-1279م):

بعد وفاة السلطان الظاهر بيبرس 27من محرم سنة 676هـ/1277م تولى أبنه السلطنة تحت أسم الملك السعيد بركة خان في شهر ربيع الأول سنة 676هـ ، وخطب له في جميع الجوامع بالديار المصرية[218] ، وكان في التاسعة عشر من عمره ، وكان أبوه قد سماه بركة خان تيمناً باسم جده بركة خان زعيم المغول ـ القبيلة الذهبية0

وأيقن بيبرس أن الملك لن يصفوا لأبنه بعد موته ، وأيقن أن كبار الأمراء من المماليك لم يبايعوا ابنه بولاية العهد إلا رهبة وخوفا منه ، وتوقع أن يقوموا بتدبير المؤامرات ضده بعد وفاته لاغتصاب العرش منه ، ولهذا لجأ قبيل وفاته إلي تزويج أبنه بركة خان من غازية خاتون أبنة كبير الأمراء وقتذاك ، وهو سيف الدين قلاوون ، كما أنه

ترك لأبنه وصية أوصاه فيها باستعمال العنف ضد كل من يقف في طريقه أو يعارض سلطته[219]0

كان الملك السعيد مستهترا يميل إلي مجالس اللهو والشراب مما أدي إلي ازدياد نفوذ مماليكه الخاصكية ، مما أغضب كبار الأمراء الصالحية ، وفى مقدمتهم الأمير سيف الدين قلاوون ، والأمير شمس الدين سنقر ، والأمير علم الدين سنجر الحلبي ، وغيرهم وتآمروا فيما بينهم على عزله ، واضطروه إلي التنازل عن السلطنة بحضور الخليفة والقضاة والأمراء ، وكانت مدة ملكه سنتين وشهرين وثمانية أيام[220] ، وعينوه نائبا على الكرك تنفيذا لرغبته[221].

الملك العادل سلامش (تولي السلطنة مائتي يوم):

بعد عزل الملك السعيد بركة خان عن السلطنة عرض كبار الأمراء السلطنة على الأمير سيف الدين قلاوون باعتباره أقواهم وأقدمهم ، والساعي إلي خلع السلطان السابق ، ولكن خبرته وذكائه رأى أنه لا يتعجل الأمر ، لأنه كان يخشى بأس ومعارضة كبار الأمراء المماليك الظاهرية ، وقال لهم: " أنا لم أخلع الملك السعيد طمعا في السلطنة ، بل حرصا على المملكة وحفظا للنظام ، وأنفة لجيوش الإسلام..، والأولي ألا يخرج الأمر من ذرية الملك الظاهر"[222] ، ومن ثم تم اختيار الأمير سلامش - الابن الثاني لبيبرس- لتولية العرش ، وكان في السابعة من عمره ، فعين قلاوون أتابكا له كما عين الأمير عز الدين الأقرم نائبا للسلطنة[223]

استغل قلاوون منصبه ، وبدأ يعيد ترتيب سياسته ، وتخلص من أعدائه الفعليين والمحتملين بالسجن ، ودعم مركزه ، فاقتنع الأمراء أن يقسموا له يمين الطاعة باعتباره أتابكا للسلطان ، واتخذ كل الوسائل التي تجعله شريكا فعليا في الحكم فعمل الأتي:

1- أمر أن يخطب باسمه وأسم سلامش معا على المنابر .
2- أن يضرب أسمه مع أسم السلطان على السكة.
3- استمال كبار الأمراء إليه وعين مماليكه وأنصاره في النيابات والوظائف الكبرى[224]

قام قلاوون بفعل ما فعله قطز من قبل ، فجمع الأمراء وأعلنهم أن الملك لا يصلح مع وجود طفل قاصر على العرش ، وقال لهم: "قد علمتم أن حكم البلاد لا يستقيم إلا برجل كامل[225] ، فوافقه الأمراء على رأيه ، وعزل سلامش ، وأبعده إلي الكرك ليكون قريبا من أخيه الملك السعيد ، وانفرد قلاوون بالحكم ، أما الابن الثالث لبيبرس وهو خضر فقد عين نائبا على حصن الشوبك ، وهكذا زال ملك بيت بيبرس على يد قلاوون[226]0

الفصل الرابع

دولة بني قلاوون حتى نهاية دولة المماليك الأولى

(678-689هـ/1279-1290م)

المنصور قلاوون
الأشرف خليل بن قلاوون
أبناء الناصر محمد بن قلاوون وأحفاده
حملة بطرس لوزتيان على الإسكندرية (767هـ/1365م)

الفصل الرابع
دولة بني قلاوون حتى نهاية دولة المماليك الأولى
(678-689هـ /1279-1290م)

المنصور سيف الدين قلاوون الألفي (678-689هـ/ 1279-1290م):

كان السلطان قلاوون مثل بيبرس من المماليك البحرية الصالحية أسهم فى الأحداث التى صاحبت قيام دولة المماليك ، ورحل إلي الشام عندما اشتدت وطأة عز الدين أيبك على البحرية بعد مقتل أقطاي ، ثم عاد إلي مصر مع بيبرس لمعاونة قطز فى عين جالوت ، وكانت له جهود محمودة فى محاربة المغول فى عهد بيبرس[1]

كان قلاوون مملوك الأمير علاء الدين أقسنقر الساقي العادلي _ أحد مماليك الملك العادل أبي بكر أيوب ، اشتراه بألف دينار ، فعرف بالألفي ، ولما مات علاء الدين انتقل قلاوون إلي الملك الصالح نجم الدين أيوب ، تدرج في المناصب حتى وصل إلي منصب أتابك العسكر خلال عهد العادل بركة خان ، وبدر الدين سلامش أبناء بيبرس ، ثم جلس على دست السلطنة بقلعة الجبل سنة 678هـ/1279م ، وهو السابع من سلاطين المماليك في مصر[2]

الثورات الداخلية فى عهد المنصور قلاوون:

تعرض قلاوون أوائل حكمه لنفس النوع من العقبات التي يتعرض لها السلطان الجديد ، وهى معارضة بعض الأمراء من المماليك البحرية ، الذين يرون أنهم أحق بعرش السلطنة من قلاوون لأن تاريخهم العسكري لم يكن أقل منه ، ومن ناحية أخري غضب المماليك الظاهرية - نسبة إلي الظاهر بيبرس- لأنه خلع سلامش ابن أستاذهم بيبرس ، كما قبض على عدد منهم ، وأبعد الأخرين عن مناصبهم.

ثورة سنقر الأشقر.

رغم كل المآثر والجهود التى بذلها قلاوون لتمهيد الطريق لتولي السلطة فإن الملك لم يصفو له ، وكان أخطر عدو واجه قلاوون بعد توليه السلطة هو سنقر الأشقر نائب دمشق الذى رفض الاعتراف بسلطنة قلاوون ، ورفض أن يحلف له يمين الطاعة ثم جمع الأمراء ودعاهم إلي طاعته ، وأعلن نفسه سلطانا على الشام ، وتلقب بالملك الكامل ، وخطب له على منبر الجامع الأموي بدمشق ، وانضم إليه ولدان من أبناء بيبرس ، هما خضر وسلامش ، وكان بركة خان قد توفي سنة 678هـ/1279م[3]

لم يبدأ قلاوون باستعمال العنف ضد هذه الثورة بل اختار أن يكتب للأمير سنقر يعتب عليه تصرفه ، ويستميله بالملاطفة واللين ، ولكن سنقر تمسك بموقفة ، وتمادي في عصيانه ، وحاول التحالف مع مغول فارس والعراق[4] ، مما جعل قلاوون يستخدم القوة فى شأنه ، فأرسل حملة سنة 679هـ/1280م إلي الشام استطاعت أن تهزم أعوان سنقر عند مدينة غزة ، ولم يلبث سنقر الأشقر أن اتصل بعد ذلك بأبغا خان المغول فى فارس ، وزين له فتح الشام ، على حين استمر قلاوون في مطاردة سنقر ، وتخلص من عدد من المماليك الظاهرية الذين تأمروا ضده[5]

أدرك سنقر أنه لا فائدة فى المقاومة ، فأرسل إلي قلاوون يطلب الصلح بشروط خاصة قبلها قلاوون ، واستسلم سنقر سنة 686هـ/1287م وعندئذ عفا السلطان عنه وأكرم

وفادته فى القاهرة ، وبقضائه على هذه الفتنة زالت المتاعب الداخلية ، وخضعت بلاد الشام لحكم المنصور قلاوون بشكل نهائي ، فاستطاع السلطان أن يوجه جهوده نحو الأخطار الخارجية التى كانت تهدد دولته ، ولاسيما المغول والصليبيين[6]

علاقة المنصور قلاوون بالمغول:

أولا: مغول فارس:

انتهز المغول فى فارس والعراق الاضطراب الداخلي الذي بدأ عقب وفاة الظاهر بيبرس ، وبدءوا يشنون هجماتهم ضد الدولة المملوكية فى الشام ، ونظرا لصعوبة مجابهة الصليبيين والمغول فى وقت واحد ، ورغبة قلاوون المملوكية فى أن يبدأ بمواجهة الخطر المغولي ، فقد جدد الهدنة التى كان بيبرس قد عقدها مع الصليبيين كما جدد الاتفاقات مع مغول القفجاق ، وإمبراطور بيزنطة وقشتالة والمدن الإيطالية[7]

وعندما هدأت الأحوال فى الداخل استغل المنصور قلاوون فرصة الهدنة التى عقدها مع الصليبيين ، وبدأ يخرج إلي الشام لقتال المغول الذين أغاروا على بلاد الشام وكان ذلك سنة 679هـ/1280م بعد أن فروا بغنائمهم ، وفى العام التالي أعاد أبغا خان الهجوم على الشام ، ووصل بجيشه إلي حماة ، فخرجت جيوش قلاوون ، واصطدم بجيش المغول فى (مرج حمص) ودارت معركة رهيبة بين الجانبين سنة 680هـ/1281م ، وانتصر الجيش المملوكي ولقي المغول هزيمة منكرة ، وفر أبغا إلي بغداد ، وتوفي بعد قليل سنة 681هـ/1282م[8]

خلف أبغا فى الحكم أخوه تكوادار الذى كان مسيحيا ، ثم اعتنق الإسلام ، وتسمي أحمد قبل ولاية الحكم ، ولذا أرسل تكوادار سنة 681هـ/1282م كتبا إلي فقهاء بغداد والسلطان قلاوون يعلن فيه رغبته فى خدمة الإسلام والاحتفاظ بالعلاقات الطيبة مع جيرانه المسلمين ، ورد عليه قلاوون برسالة رحب فيها بدعوته ، وأعلن فيها استعداده للتعاون على خدمة الإسلام والمسلمين[9].

وهكذا بدأت العلاقات تتحسن بين المغول والمماليك فى ظل الملكين المسلمين أحمد تكودار وقلاوون ، غير أن فترة الصفاء لم تعمر طويلا ، فإن اعتناق تكوادار الإسلام أثار غضب أمراء المغول وقوادهم ، فدبروا مؤامرة لخلعه وتوليه ابن أخيه أرغون الذى تمكن من قتل عمه تكودار ، وتولى العرش مكانه سنة 683هـ/1284م[10]

اضطهد أرغون المسلمين في بلاده وأبعدهم عن مناصب دولته وعادت العلاقات بين مغول فارس والمماليك إلي أسوا ما كانت عليه[11]

علاقة قلاوون بمغول القفجاق:

استمرت العلاقة بين دولة المماليك فى عهد قلاوون ومغول القفجاق - القبلية الذهبية - على ما كانت عليه من الود والمحبة وتبادل الهدايا والسفارات ليكون سلاطين المماليك عونا لهم على أعدائهم من بني هولاكو ، وقد تبادلت بين الدولتين فى عهد قلاوون أربع سفارات[12]

جهود قلاوون ضد الصليبيين.

اضطرت الظروف الداخلية ، وخطر أبغا المغولي المنصور قلاوون إلي عقد الهدنة مع الصليبيين سنة 680هـ/1281م لمدة عشر سنوات ، ولما انتصر على المغول فى

موقعة حمص فكر فى مهاجمة الصليبيين على الرغم من أنه لم ينقض سوي أربع سنوات على الصلح السابق ، وكان هجومه على عدة حصون هي:

حصن المرقب سنة 684هـ/1285م:

حاصرت جيوش السلطان قلاوون قوات الاستبارية فى حصن المرقب ، الذى كان يحمي الحدود الشمالية لكونية طرابلس الصليبية وكان يشرف على البحر ، وكان المسلمون قد قاسوا الكثير من فرنجة الاستبارية ، لأنهم ناصروا المغول على المسلمين أثناء حصار المغول لحلب سنة 679هـ/1280م[13] ، وكان حصن المرقب من أقوي حصون الصليبيين ، فكان هجوم الجيش المملوكي على هذا الحصن مباغتا وسريعا ، وقد استسلمت حامية الحصن بعد حصار دام ثمانية وثمانين يوما ، ورحلت عنه في مايو سنة 684/1285م[14] ، وقد استخدم الجيش المملوكي المحاصر لحصن المرقب عملية زرع الألغام فى سبيل إسقاطه ، حيث لم تنفع معه المجانيق ، فزرع المسلمون الألغام فى التحصينات الدفاعية للقلعة ، كما أحدثوا ثقبا فى برج القلعة وملئوا ذلك الثقب بالأخشاب سريعة الاشتعال وأشعلوا النار فيها فهوى البرج ، ودخل السلطان قلاوون حصن المرقب ظافرا[15]

النتائج التي ترتبت على سقوط المرقب في يد قلاوون.

1. سارع أمراء الصليبيين إلي طلب السلام من السلطان قلاوون.
2. طلب بوهمند السابع أمير طرابلس مسالمة قلاوون.
3. طلبت مرجريت أميرة صور الصلح.
4. عقد ليو الثالث ملك أرمنية الصغرى اتفاقية مع السلطان قلاوون تعهد فيها بدفع جزية سنوية باهظة للمماليك.
5. استولي قلاوون على أعمال المرقب مثل بانياس ومرقبه.
6. استولي قلاوون سنة 685هـ على اللاذقية[16]

استرداد طرابلس 687هـ/1289م:

كانت مدينة طرابلس قد سقطت فى يد الصليبيين سنة 503هـ/1109م ، وأسسوا بها إمارة لاتينية بعد نجاحهم فى إضافة إمارة الرها ، وإمارة إنطاكية ، والمملكة الصليبية في بيت المقدس وظلت فى يد الصليبيين حتى سنة 687/1289م ، وكانت آخر إمارة صليبية يستردها المسلمون حينما زالت دولة الصليبيين فى بلاد الشام وانتهي عصر الحروب الصليبية فى الشرق[17] ، وكان ذلك على يد السلطان منصور قلاوون الذي أراد أن يحقق حلم السلطان الظاهر بيبرس الذي مات دون تحقيقه ، وقد أعد قلاوون العدة والعدد الذي يمكنه من فتح طرابلس[18] ، التي كانت تتميز بالحصانة ويحيط بها البحر كالخندق ، فخرج على رأس جيش ضخم عدته 33 ألف من المشاة وعشرة آلاف من الفرسان[19] ، وفرض حصارا عليها ، ونصب منجنيقات بلغت تسعة عشر منجنيقا ، وتم فتحها بعد حصار دام أربعة وثلاثين يوما[20]

وكانت مدينة طرابلس محصنة تحصينا قويا وحيث كان سورها عريضا بحيث يسير عليه ثلاثة فرسان بالخيل[21].

ولما دخل المسلمون مدينة طرابلس أمر قلاوون بهدمها وتسويتها بالأرض ، وأنشأ مدينة أخري لطرابلس تبعد عن الساحل حتى يزيل أثار مدينة الصليبيين ، وحتى تتجنب

المدينة الجديدة الأضرار التى قد تصيبها من غارات الفرنجة الذين تكتلوا فى عكا وصور ، وأختار لذلك موقعا يقال له وادي الكنائس ، وأقام على أطلال طرابلس المهدمة عددا من الأبراج للدفاع البحري عنها[22]

نتائج سقوط طرابلس:

1. غنم المسلمون غنائم كثيرة حيث يذكر ابن العماد أنهم غنموا ما لا يوصف[23]
2. هلك من الصليبيين سبعة آلاف بين قتيل وغريق فى معركة طرابلس و1200 أسير[24]
3. سقطت المدن الأخرى المجاورة لطرابلس مثل بيروت وجلبه.
4. أعلن صاحب جبيل خضوعه للسلطان قلاوون[25]
5. انحصر الصليبيين فى عكا وصور وبيروت وصيدا وعتليت.
6. أتي رسل صاحب سيس يطلب مرضاة السلطان قلاوون[26]
7. بادر ملكا أرغون وصقلية بعقد التحالف مع السلطان قلاوون يتعهدان بمقتضاه بمساعدة السلطان ضد أي هجوم صليبي من الغرب ، وكذلك ضد ما تبقي من قوى فرنجية فى بلاد الشام إذا ما نقضت الهدنة[27].

وفى سنة 689هـ/1290م قام بعض الصليبيين الإيطاليين بمهاجمة المسلمين وقتلوا عددا من تجارهم الذين كانوا قد اعتادوا دخول مناطقهم لأغراض تجارية ، كما أن الفرنج فى عكا قتلوا بعضا ممن جهر بالآذان فى مسجد المدينة[28] ، ولذا اتخذ قلاوون من هذه الأفعال ذريعة لمهاجمة عكا.

استعد قلاوون لحصار عكا أخر البقايا الصليبية الكبرى بالشام والمركز الرئيسي لمملكة بيت المقدس الصليبية ، ولكنه مرض وهو يستعد للخروج على رأس جيشه لتحقيق هذه الخطوة ، ومات وهو في معسكره بظاهر القاهرة فى 7 من ذي القعدة سنة 689هـ/نوفمبر 1290م وهو فى السبعين من عمره[29].

الأشرف خليل بن قلاوون (689-693هـ/1290-1293م):

فكر المنصور قلاوون فى نفس السنة التى تولي فيها السلطنة فى تعين أبنه الأكبر علاء الدين ولي لعهده ، ومنحه لقب السلطنة حيث لقب بالملك الصالح ، غير أنه توفي فى حياة أبيه بعد أن قضي ثمان سنوات (679-687هـ/1280-1288م).

وكان الدافع لقلاوون على إقامة ابنه سلطانا فى حياته أنه كان دائم السفر إلي بلاد الشام لمحاربة المغول[30]

بعد موت علاء الدين لم تكن لقلاوون رغبة فى التوصية بولاية العهد لأبنه خليل لأنه مكروها من الأمراء ، لما عرف عنه من قسوة وعدم التمسك بقواعد الدين ، وعلى الرغم من ذلك فقد كتب تقليدا بولاية العهد لخليل ، ولكنه توفي قبل أن يوقع عليه[31].

قضي الأشرف خليل بن قلاوون الشهرين الأولين من حكمه فى توطيد سلطته ، حيث أن البلاد لم تمر دون حدوث الاضطرابات المعتادة التى كانت تحدث بين ولاية سلطان راحل ، وولاية سلطان جديد ، ثم تفرغ الأشرف خليل لاستكمال المهمة التى كان أبوه قد عزم على تنفيذها أي القضاء على فلول الفرنج فى عكا[32].

الاستيلاء على عكا سنة 690هـ/1291م:

كانت عكا تمثل الموقع الحربي الخطير الباقي للصليبيين فى بلاد الشام[33] ، وبعد تجهيزات دقيقة تحرك الأشرف خليل على رأس جنوده فى 30 ربيع الأول سنة 690هـ/مارس 1291م ، وقد زودها بكل آلات الحصار والقتال ، ووصل عند أسوار عكا بعد مسيرة شهر تقريبا وهناك وصلت معدات الحصار من دمشق ، وكان عددها اثنين وتسعين منجنيقا استغرق تركيبها أربعة أيام[34] ، وفى نفس الوقت أجتمع في عكا الكثير من فلول الفرنج ، ومن لاذ بها من أهل طرابلس وإنطاكية وغيرها ، بجانب الجموع التي أتت إليها للمساعدة عن طريق البحر من إنجلترا ومن قبرص[35] ، وكانت عكا من أكثر مدن الشام حصانة ومنعة ، كل هذا لم يجد نفعا أمام قوة جيش الأشرف خليل الذي عزم عزما صادقا على اقتحام المدينة ، فحاصرها لمدة أربعة وأربعين يوما ثم اقتحم المدينة ولم تمضى ثلاث ساعات من نهار يوم الجمعة 17 جمادى الأول سنة 690هـ حتى كانت الأعلام الإسلامية تخفق فوق أسوار عكا ، وتمكن المسلمون من دخول عكا، فى حين أتجه الفرنج إلي سفنهم الراسية فى ميناء عكا يطلبون النجدة ويتبعهم المسلمون يأسرون منهم ، ويقتلون حتى لم ينج منهم إلا قليل ، كما نهبت الأموال والذخائر والسلاح ، وأعمل القتل والأسر فيمن بقي من أهل عكا(36) ، ثم أن السلطان الأشرف خليل أمر بهدم أسوار المدينة حتى لا تكون مرة ثانيا مركزا لهجوم صليبي على سوريا[37].

وهكذا سقط أخر معقل خطير من معاقل الفرنج وهو عكا بعد أن ظلت فى أسر الفرنج على مدي تاريخ الوجود الصليبي باستثناء سنوات قليلة أثناء الحملة الثالثة[38].

وكان الفرنج قد استولوا على عكا وأخذوها من السلطان صلاح الدين الأيوبي يوم الجمعة 17 جمادى الآخرة سنة 587هـ/1191م وتم استعادتها على يد الأشرف خليل بن قلاوون فى يوم الجمعة أيضا الموافق 17 جمادى الأولي سنة 690هـ/1291م ، وبذلك تكون قد بقيت تحت أيدي الفرنج مائة وثلاثة سنين[39].

النتائج التي ترتبت على استرداد عكا :

1. سقطت بقية المعاقل والمدن الصليبية ببلاد الشام.
2. استولي المماليك على صور تحت قيادة الأمير علم الدين سنجر.
3. استولي المماليك على صيدا بعد حصارها وفرار حاميتها ، وفتحت حيفا ، وعتليت سلما.
4. افتتح الأشرف بقية المدن التى كانت فى أيدي الفرنج وهى عكا وعتليت واسكندرونه وجبيل وصرخد وقد استغرق ذلك 47 يوما،وقد أمر الأشرف خليل بهدمها جميعا فهدمت[40].

نهاية الأشرف خليل بن قلاوون:

كان كبار الأمراء على علم بكره قلاوون لأبنه الخليل ، ولذلك أخذوا يسيئون معاملته ، ويحرضون والده عليه ، ولهذا عندما تولي السلطنة راح ينتقم لنفسه ، ويضطهد أمراء أبيه وأعوانه ، فحاول الأمير حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة إقصاء خليل عن العرش ، ولكن السلطان خليل اكتشف المؤامرة فى الوقت المناسب وقبض على الأمير

طرنطاي وقتله ، وصادر أملاكه ، كما منح إقطاعه للأمير بدر الدين بيدرا ، وفوض إليه نيابة السلطنة ثم عزل الأمير سنجر الشجاعي عن الوزارة ، وولي مكانه أمير من أمرائه هو محمد بن السلعوس[41].

كثرت حوادث القتل والقبض والمصادرة بتحريض من ابن السلعوس ، حتى عم الخوف والرعب بين كبار الأمراء وصار كل واحد لا يأمن على نفسه ، وبدأت المؤامرات المملوكية التقليدية ، وكان على رأس المتآمرين نائب السلطنة الأمير بدر الدين بيدرا ومعه بعض الأمراء الناقمين على الأشرف خليل ، منهم لاجين المنصورى وقراسنقر وبهادر المنصوري انتهزوا فرصة خروج السلطان إلي منطقة البحيرة عند كوم تروجه - إحدى قرى محافظة البحيرة الحالية بالقرب من أبي المطامير[42] ، وهناك تتبعوه وانقضوا عليه وقتلوه ، وكان ذلك يوم الاثنين 12 محرم سنة 693هـ/ديسمبر 1293م ، وظل جثمان السلطان خليل ملقي فى المكان الذي قتل فيه يومين كاملين حتى حمله والي تروجه هو الأمير عز الدين أيدمر العجمي إلي بيت المال بدار الولاية ، ثم نقل تابوته إلي القاهرة ، ودفن بمدرسته التي أنشأها بالقاهرة بالقرب من مشهد السيدة نفيسة[43].

الناصر محمد بن قلاوون (سلطنته الأولي) 693-694هـ /1293-1294م.

بعد مصرع الأشرف خليل بن قلاوون تولي أخوه السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وكان فى التاسعة من عمره ، ولم تدم سلطنته الأولي غير سنة واحدة ، ولم يكن له من النفوذ الفعلي فى شئ وإنما استأثر بالسلطان خلالها عدد من كبار الأمراء فى مقدمتهم الأميران كتبغا نائب السلطنة ، والأمير سنجر الشجاعي الوزير[44]

وخلال هذه السنة نجح أميرين مملوكين فى انتزاع السلطنة من الناصر محمد فى فترتين ، فقد نجح العادل زين الدين كتبغا ، ثم المنصور حسام الدين لاجين فى تولي السلطنة لمدة أربع سنوات(694-698هـ)[45].

السلطان كتبغا(694-696هـ/1294-1296م):

لم تدم سلطنة كتبغا غير سنتين ، بدأ حكمه بتعيين الأمير فخر الدين الخليلي الوزارة ، والأمير حسام الدين لاجين نائبا للسلطنة وفوض إليه جميع أمور الدولة ، وانتشرت فى مصر خلال عهده المجاعات والأوبئة ، فتشاءم المصريون منه ، كما عاث بعض أمرائه المماليك فسادا ، وظهر منافس خطير له هو لاجين الذي استغل عوامل الكراهية ضد كتبغا ، وبدأ يتآمر عليه ، ويعمل على إبعاده عن السلطنة وبالفعل نفذت المؤامرة أثناء عودة كتبغا من زيارة الشام وكان فى صحبته لاجين سنة 695هـ/1296م ، وفر كتبغا إلي دمشق ولجأ إلي قلعته واحتمي بها ، وعينه لاجين نائبا على قلعة صرخد ، وفى عهد الناصر محمد الفترة الثانية 698هـ/1298م عين كتبغا حاكما على حماة ، فظل بها حتى توفي سنة 702هـ/1302م[46].

الملك المنصور لاجين (695-698هـ/1296-1298م):

كان لاجين أحد مماليك قلاوون ، اشتراه ورباه ثم أعتقله ونقله إلي خدمته ، وترقي من رتبة إلي رتبة ، فلما تسلطن قلاوون عينه نائبا بقلعة دمشق ، ثم زوجه إحدى بناته[47].

ولما تولي الأشرف خليل عزله عن نيابة دمشق ، آثار ذلك الحقد فى نفسه ، وجعله يشترك في المؤامرة التي انتهت بمقتله ، اختفي لاجين حتى تولي كتبغا السلطنة وعفي عنه ، حرض لاجين كتبغا على إبعاد الناصر والاستيلاء على السلطة ، ثم استغل لاجين فرصة المصاعب التى واجهت كتبغا ، وقفز على السلطة سنة 695هـ/1296م، واستولي على خزائن السلطان كتبغا ، وتلقب بالمنصور[48] ، وعمل على إبعاد الناصر محمد إلي قلعة الكرك قائلا له أنا أحفظ لك الملك ، وأنت الآن تروح إلي الكرك إلي أن تترعرع وترتجل وتتخرج وتجرب الأمور وتعود إلي ملكك[49].

بذل لاجين كل ما يستطيع من جهد لإرضاء الشعب ، وحرص على أن يسود العدل بين الناس ، وأصدر كثيرا من الأوامر التى حافظت على أموال اليتامى ، وأوقف الكثير على جامع ابن طولون ، وفى سنة 697هـ/1297م عمل الروك الحسامي ، أي أعاد مسح أرض مصر الزراعية لتقدير الخراج المستحق عليها[50].

وكان من حسن طالعه أن علا فيضان النيل ، فكثرت المحاصيل وانخفضت الأسعار ، وانقطعت الأوبئة ، فزاد حب الناس له ، فكانوا يعلنون عن حبهم بالترحيب به والتهليل له كلما خرج بموكبه يشق شوارع القاهرة[51].

مقتل السلطان لاجين.

احتج أمراء المماليك على السلطان لاجين ، بأنه خالف الشرط الذي اشترطوه عليه ، وهو ألا يقدم أحدا من مماليكه عليهم أو يتركهم يعبثون بمصالح الغير ، إلا أنه لم يف بذلك حيث قرب نفر من مماليكه ورقاهم إلي رتبه الإمارة ، مثل منكو تمر الذي عينه نائبا للسلطنة بعد عزل شمس الدين قراسنقر[52] .

استبد منكوتمر بالأمور وحجب السلطان عن العامة والخاصة وكان ذلك بداية المتاعب للسلطان لاجين[53] ، حيث فكر أمراء المماليك فى القضاء على منكو تمر والسلطان معا ، وتزعم المؤامرة الأمير كرجي مقدم البرجيه ، حيث انقض على السلطان لاجين وهو يؤدى صلاة العشاء فضربه بسيفه وأكمل عليه باقي الأمراء ، ثم اتجهوا إلي منكو تمر فأجهزوا عليه ، وبذلك انتهت سلطنة لاجين بعد أن حكم سنتين وثلاثة شهور وثلاثة عشر يوما ، وكان عمره حين قتل ثلاثا وسبعين سنة [54].

الناصر محمد بن قلاوون (السلطنة الثانية) (698-708هـ/1298-1380م)

بعد مقتل السلطان لاجين ومنكو تمر، خلا دست السلطنة واجتمع الأمراء للتشاور ، فنهض الأمير كرجي- قاتل السلطان لاجين- ورشح زميله الأمير طغجي لتولي السلطنة ، ورشح نفسه لنيابة السلطنة غير أن الأمراء لم يرحبوا بهذا الترشيح وانقضي المجلس دون الوصول إلي اتفاق ، ومن هنا كثر الطامعون ، وثارت الفتنة وانتهي الأمر بمقتل الأميرين كرجي وطغجي ، ولذا تم اختيار الناصر محمد بن قلاوون هذه المرة لأن أحدا من المتنازعين لم يحسم الصراع لنفسه ، واستمرت مدة حكم الناصر فى السلطنة الثانية أكثر من عشر سنوات فتم استدعائه من الكرك وتولى السلطنة[55].

الأحداث الداخلية.

أخذ الناصر يباشر سلطانه ، فعين الأمير سيف الدين سلار نائبا للسلطنة ، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير(الجركس استادرا) ، أي متولي شئون أطعمة القصر وأشربته[56].

وكان الناصر فى هذه المرة لا يزال صغيرا لم يصل بعد سن البلوغ أو النضوج، حيث كان عمره 14 سنة ولهذا بدأت الأحداث تشير إلي أن الأميرين سلار وبيبرس سيلعبان نفس الدور الذى لعبه كتبغا ولاجين من قبل إلا أن هذا الدور تأجل فترة لأسباب خارجية[57].

الأحداث الخارجية:

1- موقعة مجمع المروج سنة 699هـ/1299م:

وصلت الأخبار إلي مصر بأن المغول يهددون حدود دولة المماليك فى الشام ، فقد خرج غازان ايلخان فارس بجيوشه يريد الانتقام من المماليك والأخذ بثأر الهزائم السابقة ، فأمر الناصر بإعداد الجيوش، وتولي قيادتها بنفسه ، وخرج متجها إلي الشام ومعه الأميران سلار وبيبرس ، وتقابل الجيشين عند مدينة مجمع المروج بين حمص وحماه[58] ، وكانت عدة جيوش المماليك بضعة وعشرين ألف فارس ، بينما كان جيش التتار أكثر من ذلك بكثير ، وقد بدأت المعركة بانتصار الجيش المملوكي ، حتى أوشك غازان على الفرار ، فلم تلبث الدائرة أن دارت على الجيش المملوكي الذى هزم هزيمة شنعاء ، وولوا الأدبار ، وتألم الناصر ألما شديدا لهذه الهزيمة ، وعادت فلول الجيش إلي مصر لتعيد تكوين الجيش من جديد[59].

دخل غازان دمشق وتسلمها إلا أن قلعتها لم تستسلم ، وخطب لغازان على منابر المساجد بدمشق حيث وصف بأنه: **"مولانا السلطان الأعظم سلطان الإسلام والمسلمين مظفر الدنيا والدين محمود غازان"**[60] اكتفي غازان بذلك وعاد إلي بلاده بعد أن عين بعض الأمراء المماليك نوابا عنه على دمشق وحمص وحلب وحماه[61].

2- موقعة مرج الصفر 702 هـ/1302م:

عاد الجيش المملوكي المهزوم فى موقعة مجمع المروج ، ولم ييأس الناصر من هذه الهزيمة ، بل شرع في تنظيم جيشه استعدادا لجولة جديدة مع التتار ، واستجاب أمراء المماليك الذين عينهم غازان على مدن الشام لدعوة الناصر ، ودخلوا في طاعته فلما وصلت هذه الأخبار لغازان ، رأي أن يدخل فى مفاوضات للصلح مع الناصر ، استجاب

الناصر لهذا العرض ، ولكنه لم يسفر عن شئ لأن غازان كان يهدف كسب الوقت ، حيث خرج غازان مرة أخري فى رمضان سنة 702هـ/1302م على رأس جيش من ثمانين ألف ليعيد سلطانه على الشام ، وفى ذلك الوقت كان الناصر قد تحرك بجيشه نحو الشام وتم اللقاء بين المغول والمماليك عند بلدة شقجب بمرج الصفر واستمرت المعركة لمدة ثلاثة أيام انتهت بانتصار المماليك على المغول انتصارا ساحقا وفر التتار منهزمين وانهارت معنوياتهم واستسلم الكثير منهم(62)

هذا الانتصار جعل الناس يفرحون بالناصر محمد رغم صغر سنه واستقبلوه استقبالا حافلا فى دمشق والقاهرة ، وأعدوا له الزينات وسار فى موكب النصر وحوله ألف وستمائة أسير من المغول يسيرون مقيدي الأيدي ، وعلق في رأس كل واحد منهم رأس أحد قتلاهم بالإضافة إلي ألف رأس أخرى كانت مرفوعة فوق الحراب(63).

الأحداث الداخلية.

ثورة العربان 702هـ/1302م:

بعد هزيمة المماليك فى موقعة مجمع المروج ، هزت هذه الصدمة المشاعر فى مصر ، وكان أحد ردود الفعل لهذه الهزيمة المنكرة أن استخف العربان فى الصعيد بالولاة وخرجوا عن الطاعة ومنعوا الخراج وأخرجوا من فى السجون ، وأعلنوا عصيانهم في الوجه القبلي ، وأخذوا يقطعون الطرق على التجار ويفرضون عليهم الضرائب الفادحة من المال والغلال حتى اشتد خطرهم ، والواقع أنهم كانوا يأنفون من الخضوع للمماليك ، ويقولون عنهم أنهم عبيد خوارج(64).

وقد حارت الدولة فى أمرهم ، فاستدعي الناصر الأمراء والقضاة والفقهاء ، واستصدر فتوى بجواز قتالهم ، فوضعت الحكومة خطة محكمة للقضاء عليهم ، فاستدعت متولي الجيزة ، وأمرته أن يمنع الناس من السفر إلي الصعيد فى البر والبحر ثم أشيع أن الأمراء سوف يسافرون إلي بلاد الشام لأمر هام ، وذلك لإخفاء الخطة وتقرر خروج أربع فرق ، الأولي تتجه إلي البر الغربي ، والثانية إلي البر الشرقي ، والثالثة في النيل ، والرابعة تسلك الطريق المألوف الذي يسلكه الناس.

تحركت هذه الفرق فى وقت واحد ومعها الأوامر بقتل كل من تقع عليه العين من العربان كبيرا أو صغيرا ، جليلا أو حقيرا ، صبيا أو شيخا(65) ، واشترك والي قوص فى هذه الخطة.

نجت خطة المماليك وفوجئ الأعراب بجيوش المماليك تقضي عليهم وتحيط بهم من كل مكان ، وتأخذ عليهم السبل إذا أرادوا الفرار أو الاحتماء بالجبل ، وتعقبوهم بسيوفهم حتى أبادوا منهم الكثير من الجيزة حتى أعالي الصعيد ، ولم يترك أحدا منهم إلا قتل ، وكان رجال هذه الفرق يميزون بين الأعراب وغيرهم بطريقة النطق ، فإذا ادعي واحد انه ليس من الأعراب وأنه حضر، طلب منه أن ينطق كلمة دقيق ، فإن قالها بالقاف أطلق سراحه ، أما إذا نطقها بالجيم عرف أنه أعرابي فقتل، وقد حاول بعض الأعراب الاختفاء فى بعض مغاور الجبل ، فأوقد أمراء المماليك عليهم النيران حتى هلكوا بأجمعهم وأسروا منهم نحو ألف وستمائة شخص(66).

واستولت الحكومة على أملاكهم ودوابهم وأسلحتهم وأغنامهم وخيولهم وأبقارهم وقد وزعت هذه الغنائم على من اشتركوا فى هذه المهمة ، ونال السلطان منها نصيبا وفيرا ، ومعه الأمراء والجنود ، وانخفضت أسعار اللحوم والغلال انخفاضا ملموسا لكثرة ما تجمع من هذه السلع[67].

وبذلك انكسرت شوكتهم ، وتخلصت الدولة من شرورهم ، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة ، وآمن الناس في الصعيد على أرواحهم وأموالهم ، وأفرج الناصر عن الأسري من الأعراب ، وأعادهم إلي بلادهم[68]

اعتزال الناصر السلطنة للمرة الثانية.

بعد أن تخلص الناصر محمد من الخطرين الخارجي والداخلي بدأ يحاول أن يباشر بنفسه شئون الحكم ، ولكنه وجد الأميرين المتسلطين على شئون الدولة سلار ، وبيبرس يحولان بينه وبين ذلك وضاعفا من إجراءات التشدد عليه ، وضيقا عليه في النفقة ، حتى بلغ الأمر بهما إلي أن حالا بينه وبين ما يشتهيه من أصناف الطعام[69] ، وحالا بينه وبين الاتصال بالناس ، ولذلك زهد في الحكم ، وقال للأمراء: **"إن كان غرضكم فى الملك فما أنا متطلع إليه فخذوه وابعثوني أي موضع أردتم"** ، ثم فكر فى الهروب من السلطنة ، فتظاهر برغبته في أداء فريضة الحج ، فلما وصل الكرك أعلن أنه عدل عن الحج ، ورغب فى المقام بالكرك ، وقال: **"هي من بعض قلاعي وملكي ، وقد عولت على الإقامة بها"** ، وفوجئ الأميران بيبرس ، وسلار بهذا القرار ، فأرسلا إلي الناصر يهددانه ويطلبان منه العودة إلي القاهرة ، ولكنه أصر على موقفه وأعلن أنه تنازل عن السلطنة وكان ذلك في شوال سنة 708هـ/1380م ، فكانت مدة سلطنته الثانية عشر سنين وأيام[70].

الملك المظفر بيبرس الجاشنكير(708 –709 هـ /1308-1309م):

بعد أن صمم الناصر محمد على عدم مغادرة حصن الكرك وأعلن تنازله عن حكم مصر والشام ، اجتمع الأمراء للتشاور ، فاستقر رأيهم على أن يعهدوا بالملك إلي الأمير سلار بوصفه نائب السلطنة ، ولكنه امتنع عن قبول هذا المنصب وخاف أن يحل به ما حل بكتبغا ولاجين[71] ، وتقدم سلار وخاطب الأمراء وقال: "والله يا أمراء ما أصلح للملك ، ولا يصلح له إلا أخي هذا" ، وأشار إلي بيبرس الجاشنكير، فوافق الأمراء على ذلك ، وأعلن بيبرس سلطانا واتخذ لنفسه لقب المظفر، وعين الأمير سلار نائبا للسلطنة.

وقد تشاءم الناس بسلطنة بيبرس الجاشنكير بسبب قصور النيل وارتفاع الأسعار بجانب القلق والاضطراب الذي اعترى عرش السلطان ، والخوف من الناصر محمد[72] ، فكرهه الشعب وخاصة أنه اتبع سياسة العنف فى معاملته للناس والأمراء ، وأعلن الشعب سخطه على السلطان ، وذاعت شهرة إحدى الأغاني الشعبية التى رددها الناس فى الشوارع بقولهم: **"سلطاننا ركين ونائبنا دقين يجينا الماء منين جيبوا لنا الأعرج يجينا الماء يتدحرج"**[73].

سلطاننا ركين- يقصدون بيبرس لأن لقبه ركن الدين ، ونائبنا دقين - يقصدون سيلار إذ لم يكن فى لحيته غير شعيرات قليلة ، تجيبوا لنا الأعرج - يقصدون الناصر محمد فقد كان به عرج خفيف ، يجينا الماء يتدحرج.

ولذا فقد ركن الدين بيبرس الجاشنكير شعبيته ، وزادت شعبية الناصر محمد فى الكرك ، فقد قصده عدد كبير من أمراء المماليك فى الشام ومصر ، وطالبوه بالعودة إلي القاهرة وارتقاء دست السلطنة ، عندئذ خرج الناصر محمد إلي دمشق فاستقبله أهلها بالحفاوة والترحاب ودعي له على منابرها وذلك سنة 709هـ[74].

وكانت الحالة فى مصر تزداد كل يوم سوءا ، وسادت بها الفوضى وضاعت هيبة بيبرس ، فجمع الأمراء وتشاور معهم ، فأشار عليه الأمير بيبرس الدوادار والأمير بهادر بالتنازل عن السلطنة ، وأن يرسل للناصر يرجوه العفو فأعجبه رأيهم[75] فجمع من الخزائن ما شاء ، وخرج في سبعمائة من المماليك ، وأسقط اسمه من خطبة الجمعة والعيدين ، وكان ذلك بحضور الخليفة والقضاة الأربعة ، وكانت مدة سلطنته عشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما[76]

الناصر محمد بن قلاوون(السلطنة الثالثة)(709-741هـ/1309-1341م)

يعتبر المؤرخ أبو الفدا شاهد عيان لرحلة الناصر محمد من الكرك إلي القاهرة حيث رافقه فى هذه الرحلة ، ولم يعد إلي الشام حتى جلس الناصر على العرش ، وقد دخل الناصر قلعة الجبل مساء الأربعاء أول أيام عيد الفطر ، وجلس على تخت الملك وسرير السلطنة وحضر الخليفة والأمراء ، وفى مقدمتهم القضاة وسائر أهل الدولة للتهنئة[77].

وفى هذه المرة كان الناصر قد تجاوز سن الطفولة ، حيث كان عمره خمسة وعشرين عاما ، وقد صقلته الأحداث وحنكته التجارب وقرر أن يباشر السلطنة بنفسه ، وجمع السلطة كلها فى يديه ، ورسم خطة للانتقام الهادي البطيء من كل الأمراء الذين أساءوا إليه ، وبدأ بالأمير بيبرس الجاشنكير ، فقبض عليه وأنبه على أفعاله معه ثم أمر بقتله[78].

أما الأمير سلار فقد ألقي به فى السجن حتى مات جوعا سنة 710هـ/1310م وصادر ثروته الطائلة[79] ، وكذلك فعل الناصر بكل الأمراء الذين أساءوا إليه فى الماضي أو الذين حاولوا التآمر ضده بعد عودته.

وتعتبر السلطنة الثالثة للناصر محمد أزهي عصور الدولة المملوكية ، ففيها امتد النفوذ الخارجي لمصر حيث بلغ مكة والمدينة واليمن والمغرب ، والأندلس[80] ، ونعمت مصر في عهده برخاء واستقرار كبيرين ، وازدهرت الحياة العلمية فى عهده وقرب إليه العلماء، ومن المنشآت التي شهدها عهده الأتي:

- جامع الناصر محمد بالقلعة ولا يزال موجودا حتى الآن أنشأه سنة 718هـ/ 1318م
- والمدرسة الناصرية التى أنشأها بين سنتي 704هـ/1304م
  والقصر الأبلق بالقلعة ، وشيد خانقاه للصوفية بالقرب من سرياقوس[81]
- حفر الخليج الناصري سنة 710هـ/1310م.
- إعادة حفرالخليج الناصري سنة 725هـ/1324م.
- واهتم بالنواحي الاقتصادية إذ ألغي كثير من المكوس والضرائب.
- عمل الروك الناصري سنة 715هـ/1315م[82].
- اهتم بتشجيع العلم والعلماء وقربهم إليه.

وهكذا تدل جميع الشواهد على أن عهد الناصر محمد يمثل العصر الذهبي لدولة المماليك ، حيث تمتعت مصر فيه باستقرار ورخاء ونفوذ استمر حتى وفاته سنة 741هـ/1341م ، وهو فى الثامنة والخمسين من عمره[83].

أبناء الناصر وأحفاده:

تولي بعد الناصر محمد من أبنائه وأحفاده سلاطين ضعاف صغار السن هم على التوالي:

- الملك المنصور سيف الدين أبو بكر(740-741هـ/1340-1341م) كان عمره عشرين سنة ، خلع بعد 59يوما.
- الملك الأشرف علاء الدين كجك(741هـ1341م)وكان عمره 8 سنوات وخلع بعد خمسة أشهر وعشرة أيام.
- الملك الناصر شهاب الدين أحمد (742هـ/1342م) خلع بعد ثلاثة أشهر و13 يوما.

- الملك الصالح إسماعيل(743-746هـ/1342-1345م) حكم ثلاث سنوات وشهرين.
- السلطان الكامل شعبان(746-747-هـ/1345-1345م) تولي السلطنة لمدة سنة و 58 يوما.
- الملك المظفر زين الدين حاجي (747-748هـ/1346-1347م) حكم لمدة سنة وثلاثة أشهر
- الملك الناصر بدر الدين أبو المعالي حسن(748-752-هـ/1347-1354م) تولي السلطنة وهو فى الحادية عشر من عمره لمدة أربع سنوات.
- السلطان الصالح صلاح الدين(752-755هـ/1351-1354م) استمر في السلطنة لمدة ثلاث سنوات.

السلطان الناصر حسن(سلطنته الثانية)(755 -761هـ /1354-1360م):

استمرت سلطنة الناصر حسن الثانية أكثر من ست سنوات استطاع فيها أن يشرف بنفسه على شئون الدولة ، وأن يدير دفة الحكم ، لأنه كان بلغ سن الرشد.

كان له شغف خاص بالعمارة ، وفى عهده بنيت المدرسة التى تحمل اسمه وهى "مدرسة السلطان حسن" التى تعتبر فخر العمارة الإسلامية بشهادة الرحالة الشرقيين الذين زاروا مصر[84]

وفى سلطنة الناصر حسن الأولي أصيبت مصر بالوباء الأسود سنة (749هـ/1348م) ، الذي لم يصب مصر وحدها ، وإنما بدأ في بلاد المغول في المشرق الأقصى ، وانتقل منها عن طريق طرق التجارة غربا إلي بلاد الشام ومصر ثم انتقل عبر أسيا الصغرى إلي أوربا حتى عم العالم كله فى وقت واحد ، ولم يسلم منه حيتان البحر وطير السماء ووحش البحر

قتل الناصر حسن بعد حكم دام ست سنوات وسبعة أشهر.

كل هؤلاء من أبناء الناصر محمد، أما أحفاده فهم كالتالي:

- الناصر المنصور صلاح الدين محمد بن المظفر حاجي ابن الناصر محمد ، وكان عمره 14 سنة ، ولم يطل حكمه فخلع بعد سنتين(762-764هـ/1361-1363م)
- الملك الأشرف زين الدين أبو المعالي شعبان(764-778هـ/1363-1376) تولي السلطنة وهو فى العاشرة من عمره واستمر فيها ثلاثة عشر عاما ، وأهم ما يميز عهد الأشرف شعبان هو حملة بطرس لوزنيان على الإسكندرية سنة 767هـ/1365م.

حملة بطرس لوزنيان على الإسكندرية سنة 767هـ/1365م :

كان سقوط عكا على يد الأشرف خليل بن قلاوون سنة 690هـ/1291م هو أخر العهد بالصليبيين على أرض فلسطين ، ولكن بقايا الصليبيين الذين رحلوا عن فلسطين والشام لجاءوا جميعا إلي جزيرتي قبرص وردوس ، وسرعان ما تحولت هاتان الجزيرتين إلي قلعة صليبية تعمل ليلا ونهارا على استعادة بيت المقدس من أيدي المسلمين ، وكانت جزيرة قبرص تحت حكم أسرة لوزنيان ، وجزيرة رووس تحت حكم الفرسان الإسبتارية[85]

أخذ تفكير ملوك قبرص صورته العملية بالاستعداد لحرب صليبية جديدة منذ اعتلاء بطرس الأول عرش قبرص فى الفترة من 760-770هـ/1359-1369م[86] ، وفى سبيل ذلك قام بطرس بالآتي:

- زيارة ردوس سنة 764 هـ ، حيث قرر أن تكون هي مكان تجمع الأسطول.
- توجه إلي البندقية وجنوه.
- عمل على مقابلة البابا أربان الخامس.
- تقابل مع الملك يوحنا الثاني ملك فرنسا الذي تحمس لفكرة بطرس.
- طاف العديد من البلاد فى غرب أوربا داعيا لفكرته الصليبية حتى حظي بموافقة إمبراطور ألمانيا.
- قام بزيارة لفيينا ونال وعدا من دوق اوستريا "النمسا" بمساعدته[87].
- وكان نتيجة لجهود بطرس تكوين جيش ضخم بالغ الخطورة وقد آزره البنادقة مؤازرة كبيرة ، بينما تقاعس الجنويه عن مساعدته[88].

وقبل أن يعود بطرس من رحلته فى ربوع أوربا لمساندة حملته والتى استغرقت ثلاث سنوات أرسل إلي أخيه حنا بقبرص يطلب منه أن يعد السفن والرجال والميره ويسيرها إلي رودس وينظر قدومه هناك ، ووصل بطرس ردوس فى أغسطس سنة 767هـ/1365[89] ، حيث تقرر أن تكون رودس هي مكان الحشد ، ووصل إليها أعداد ضخمة من السفن الحربية بلغت مائة وخمس وستين سفينة تحمل حمولة كاملة من الرجال ، وأعداد كثيرة من الخيل ومقادير وفيرة من المؤن والأسلحة[90].

ويعلل النويري السكندري غزو القبارصة الإسكندرية بالأسباب الآتية:

- أن مصر هي مفتاح بيت المقدس ولذا يجب الاستيلاء عليها أولا حيث أن صلاح الدين الأيوبي استولي على ما فى أيدي الفرنج فى بلاد الشام بملكه مصر وتقويته بمواردها ورجالها[91].
- هاجم الإسكندرية بالذات لانتعاشها التجاري ، ومحاولته فرض حصار اقتصادي على سواحل مصر وغيرها من الموانى الإسلامية.
- أن الاستيلاء على سورية وفلسطين لم يكن سهلا فى ذلك الوقت لأنه لم توجد قاعدة على الساحل يتمركزون بها وينظمون صفوفهم[92].

نظر بطرس لوزنيان إلي سابقيه فى الحروب الصليبية عندما استولي الصليبيون على دمياط أثناء الحملة الصليبية الخامسة سنة 616هـ/1219م ، وأرسل لهم الكامل يفاوضهم عن استعداده للتنازل عن بيت المقدس مقابل جلائهم عن دمياط ، بأنه لو استولي على الإسكندرية ، وبمكانتها المرموقة سيكون ذلك ضربة أقوي وأقسى على حكام مصر ، ولذا يمكن أن يحصل على صفقة أوفر وأكبر من ذلك ، بجانب أن الإسكندرية سوف تكون قاعدة بالغة الأهمية لمواصلة الزحف.

ومن الأسباب أيضا:

- أن السلطان المملوكي الملك الصالح بن الناصر محمد حرم على النصارى سنة 755هـ/1354م تقييد أنفسهم فى الديوان باستثناء من أسلم منهم ، وفرض قيود على أهل الذمة ، كما دعا الفرنج المقيمين بالبلاد إلي السفر لبلادهم مما سبب غضب القبرصي[93].

- أن بطرس لوزنيان لما خلف أباه على عرش قبرص أرسل إلي السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد يستأذنه فى التوجه إلي مدينة صور لكي يجلس على عمود بها كسائر عادة من تملك قبرص ، فاستفزه السلطان حسن ومنعه من دخول صور[94].
- أطمع ضعف القوة البحرية الإسلامية بطرس فى مهاجمة الإسكندرية ، إذ بلغه أن قراصنة من الفرنج قدموا فى غراب إلي مينائهم فى شوال سنة 755هـ/1354م ، وأغاروا عليه ونهبوه كما أغاروا على سفينة تجارية قادمة من تركيا ، وأخذوا يتجولون بين الميناءين[95].
- قدم إلي ميناء أبي قير ليلا ستة أغربه من البنادقة فضلوا الميناء فأرسلوا برشيد ونزل جماعة من غربان منها إلي الساحل ففطن إليهم المسلمون ، وتمكنوا من الاستيلاء على غربانهم ، وغرق جموع الفرنج وكان عددهم ثمانين رجلا وقذف البحر بجثثهم ، فأحرقهم أهالي رشيد ، ولما بلغ البنادقة ذلك ساعدوا القبرصي على غزو الإسكندرية[96].

الأحوال فى مصر والإسكندرية عند وصول الحملة:

وفق بطرس لوزنيان فى اختيار الوقت المناسب لغزوته ، فقد كانت الظروف السياسية الداخلية فى دولة المماليك فى ذلك الوقت فى غاية السوء للأسباب الآتية:

- كان سلطان مصر الأشرف شعبان(764-778هـ) وقت وصول الحملة صغير السن لا يتجاوز من العمر 12 سنة ، وكانت السلطة الفعلية فى يد الأتابك يلبغا الخاصكي الذي أصبحت القاهرة بسببه مسرحا للمعارك ، ومرتعا للفساد[97].
- قاست مصر كثيرا من وباء الطاعون الذي تفشي فيها (الوباء الأسود سنة 749هـ ، وكذلك سنة 754 ،761 ، 763 ، 764هـ حيث استنفذت هذه الأوبئة قوي مصر ، ومات بسببها عدد كبير من السكان[98].
- كان الوالي على ثغر الإسكندرية هو الأمير صلاح الدين بن عرام يؤدي فريضة الحج فى الحجاز ، وكان ينوب عنه فيها الأمير جنغرا الذي لم يكن أهلا للولاية لجهله بتدبير الأمور[99].

ويصف النويري السكندري جنود المماليك بالإسكندرية بقوله: **" لم يعرفوا الحرب ولا باشروها أبدا ، بل يخرجون منها إلي البحر يحرسون ، وكلهم بملبوسهم متزينون في مشيتهم كالمشي فى زفة العروس.. ويسير كل واحد بزينته فرحان ، ومعهم الأسلحة الثقال ، ولكن ليس تحتها لوقت الحرب رجال ، مع كل واحد سيفا تقلده..مع ذلك صاحبه جبان ، يفزع من نعيق الغربان ، فلم علم القبرصي بحالهم طمع فيهم"**[100].

كان الأمير يلبغا الخاصكي أتابك العسكر قد استهان بأمر الحملة الفرنجية ، وعندما طلب منه أمير الإسكندرية عمارة بعض التحصينات لم يجبه بقوله: "أن قبرص أقل وأذل من أن تأتي إلي الإسكندرية"[101].

كان هذا الوقت موسما لفيضان النيل والطريق بين القاهرة والإسكندرية عبر الدلتا غمرته المياه ولا يصلح لمسير نجده عسكرية سريعة من القاهرة لإنقاذ المدينة[102].

أحداث الحملة.

فى صباح يوم الخميس 21 من المحرم سنة 767هـ/9 أكتوبر 1365م أقبل أسطول القبارصة فى سبعين قطعة ما بين غربان وقراقر نحو ساحل شبه جزيرة المنار فظنها الأهالي سفنا للبنادقة جاءت للتجارة على عادتها فى كل سنة ، فخرجوا لاستقبالها ولكنهم قوبلوا بوابل من السهام ، فأدركوا أنهم أمام خطر صليبي ، فتأهبوا للقتال وانتشر الرماة على الأسوار ، وشحن القلاع بالمقاتلة ، وتم استدعاء عرب البحيرة ، وحاول الصليبيين اختراق أبواب المدينة من الميناء الغربي إلا أنهم فشلوا ، فاتجهت بعض قواتهم إلي الميناء الشرقي ، وتمكنوا من تسلق السور ، وتمكنوا من إحراق باب الديوان(103).

وأخذ الأهالي يفرون من المدينة بشكل جنوني ، بينما انقض عليهم الصليبيين انقضاضا وحشيا ، ولم يفرقوا بين المسلمين وغيرهم من أهل الذمة ، فقتلوا وأسروا عددا كبيرا من رجالها ونسائها ، وعاثوا في المدينة فسادا وتخريبا ، وانسابت قواتهم يحرقون المساجد والكنائس ، ويخربون الخانات ، ويدمرون المنازل ، وينهبون كل ما وصلت إليه أيديهم من بضائع وأموال(104).

ويقول المقريزي:"وبعد أن أتي الصليبيون على كل ما فى الإسكندرية من صامت وناطق أسرعوا بالرحيل عن المدينة خوفا من اقتراب جيش المماليك"(105).

وهكذا قضي الصليبيون فى الإسكندرية نحو ثلاثة أيام كانت من أسود الأيام فى تاريخها ، ولم يغادروها إلي سفنهم إلا بعد أن أحسوا بقرب جيوش المماليك التي جاءت من القاهرة إنقاذا للإسكندرية ويقال أن السفن الصليبية حملت معها عند رحيلها خمسة آلاف أسير، منهم المسلم والمسلمة، واليهودي واليهودية، والنصراني والنصرانية(106).

وأخيرا وصل يلبغا الخاصكي إلي الإسكندرية على رأس قوات كثيرة ، وذلك بعد أن أخلاها الصليبيون ، فشهد ما حل بها من خراب ورأي جثث القتلى ، فأمر بدفن من استشهد ، وترميم ما خرب وأحرق(107).

نتائج الحملة.

1- فشلت الحملة من الناحية العملية حيث لم يحقق بطرس أمله فى الاستيلاء على الإسكندرية ، حيث دخل بطرس المدينة لصا وخرج منها لصا(108).
2- بالنسبة للبنادقة الذين اشتركوا فى هذه الحملة لكي يحصلوا على زيادة فى مركزهم التجاري فى بلاد الشرق ، فقد كانت النتيجة عكسية ، حيث أتت بالسلب على تجارتهم التي توقفت مع مصر بجانب تعرض الكثير من أملاكهم بالإسكندرية للدمار(109).
3- استفاد الجنويون الذين لم يشتركوا فى الحملة ، وذلك من خلال إقامة فنادق تجارية ، وزيادة التبادل التجاري مع مصر
4- زيادة أسعار التوابل والمنسوجات الحريرية وسائر المتاجر الشرقية ، وذلك بسبب نفاذ كميات كبيرة منها من جراء السلب والنهب على يد القبارصة ، بجانب عدم ورود كميات جديدة بسبب ما أحل بالإسكندرية من تخريب(110).
5- لم يتمتع المسيحيون الوطنيون بحرياتهم فى البلاد التى تحت سلطة المماليك على الرغم من أنهم لم يرتكبوا جرما ، فهدمت بعض الكنائس ، وأغلقت كنيسة القيامة لمدة ثلاث سنوات(111).

6- ثار المسلمون بالأندلس 768هـ/1366م على جيرانهم الأسبان فى مدينة جيان التابعة لملك قشتاله تعبيرا عن غضبهم لما أصاب الإسكندرية على يد القبارصة[112].

7- وفى دمشق شق على أهلها ما فعله القبارصة فى الإسكندرية ووصف الخطيب فى الجامع الأموي يوم الجمعة ما حل بالإسكندرية من تخريب ، فتباكي الناس ، وصدر مرسوم من مصر إلي نائب السلطنة بدمشق بالقبض على النصاري والفرنج دفعة واحدة وإيداعهم السجن[113].

8- وصل خبر العدوان الوحشي للقبارصة على الإسكندرية إلي خان المغول أويس بن الشيخ حسن برزخ ، فتألم ألما كبيرا ، وقبض على مجموعة كبيرة من تجار الفرنج تصادف أنهم دخلوا بلاده لبيع أقمشة ومنسوجات فى مدينة تبريز ، وقتلهم عن آخرهم[114].

9- كانت من نتيجة هذه الغزوة العناية بالأسطول المملوكي ، حيث عملت السلطة على توفير الأخشاب والحديد والآلات بدور الصناعة بمصر والشام لبناء 150 مركبا حربيا ما بين شواني وغربان وحمالات وطرايد[115].

10- أيضا كانت العناية بالإسكندرية حيث أعيد تحصينها وصدرت الأوامر بتحويلها من مجرد ولاية إلي نيابة للسلطنة يحكمها نائب برتبة أمير مقدم ألف[116].

11- تدهورت حالة الإسكندرية الاقتصادية ولم يرجع إليها نشاطها التجاري ولا مكانتها الاقتصادية القديمة[117].

12- أحدثت هذه الحملة اضطرابا شديدا فى العلاقات بين مصر والبلاد الأوربية فى البحر المتوسط ، ولا سيما التي كانت لها علاقات تجارية مع مصر[118] ، حيث رفض السلطان السماح لهم بالمتاجرة فى بلاده إلا إذا أعاد ملك قبرص أسري المسلمين ، فتدخلوا في مفاوضات الصلح ، وسمح لأسري الإسكندرية بالعودة لبلادهم[119].

أقام فى السلطنة بعد وفاة الأشرف شعبان أبنه الملك المنصور علاء الدين على بن شعبان(778-783هـ/1376-1381م) ، وكان عمره 7 سنوات ، ولم يكن له من السلطة سوى الاسم ، وظل يحكم لمدة خمس سنين وثلاثة أشهر حيث توفي سنة 783هـ[120].

الملك الصالح زين الدين حاجي(783-784هـ/1381-1382م):

تولي السلطنة وعمره 11 سنة ، ولم يحكم غير سنة واحدة وشهرين ، وقام بتدبير أمور الدولة خلالها الأمير برقوق الذي أقدم على خلعه فى رمضان سنة 784هـ، وبه ينتهي عصر دولة المماليك الأولي المعروفة بدولة المماليك البحرية[121].

ويتبين مما سبق أن دولة المماليك الأولي استمرت قوية الجانب حتى نهاية عهد الناصر محمد بن قلاوون ، الذي أحدثت وفاته سنة 741هـ/1341م فراغا كبيرا لم يستطيع أحد من أبنائه أو أحفاده أن يملأه ، حيث كان هؤلاء الأبناء والأحفاد صغار السن عند ارتقاء عرش السلطنة يخلعون بنفس السرعة التى يتولون بها على يد كبار أمراء المماليك فى عهدهم ، والذين شغلوا بالمؤامرات والمنافسات عن النظر فى صالح البلاد والرعية ، فساءت الأحوال الاقتصادية ، وزاد الأمر سوءا حدثان خطيران وقعا فى تلك الفترة أولهما انتشار الأوبئة وخاصة الوباء الأسود سنة 748هـ ، وثاني هذه الأمور هو غزو القبارصة لمدينة الإسكندرية سنة 767هـ/1365م وهذه الفوضى والاضطرابات مهدت السبيل

لازدياد قوة المماليك البرجية أو الجراكسة ونفوذهم ، وصار منهم الأمراء وأصحاب النفوذ ، وانتهي الأمر بنجاح أحدهم فى تولي العرش وهو برقوق.

الفصل الخامس

دولة المماليك الجراكسة

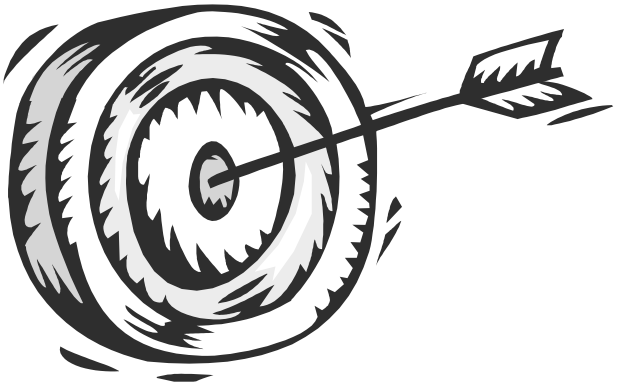

قيام دولة المماليك الجراكسة (784 – 923ه)

السلطان الظاهر برقوق

الناصر فرج بن برقوق

الأشرف برسباي والأستيلاء على قبرص

الظاهر جقمق ومحاولة الاستيلاء على رودس

الفصل الخامس
دولة المماليك الجراكسة
(784-923هـ/1382-1517م)

كان السلاطين يولون عناية خاصة لتربية مماليكهم وتدريبهم ، لأنهم كانوا بمثابة الحرس السلطاني الخاص ، كما أن السلطان كان يختار لهم أعلي الوظائف قدرا وأكبرها إقطاعا حتى يضمن رضاهم وولائهم له على الدوام ، وهذا ما فعله السلطان المنصور قلاوون بالنسبة للمماليك ، فقد اختار أن ينشأ فرقة مملوكية من الجراكسة الذين كانوا يستوطنون المناطق الواقعة إلي الشمال من بحر قزوين وشرق البحر الأسود، وبلاد الكرج ، وجورجيا ، ومن إقليم الاتحاد السوفيتي وصارت جمهورية جورجيا تعرف باسم جركس[1] .

وفى تلك الفترة كانت أعداد كبيرة من المماليك الجراكسة متوفرة فى أسواق الرقيق ، بحيث كان سعرهم هو الأرخص على الرغم من شهرتهم بالشجاعة والقوة ، فضلا عن الوسامة والجمال ولاسيما فى نسائهم[2] .

أسكن المنصور قلاوون مماليكه الجراكسة فى أبراج القلعة ، مما جعل البعض يطلقون عليهم اسم المماليك البرجية ، وقد حرص قلاوون على عزلهم عن طوائف المماليك الأخرى ، وأهتم بتدريبهم العسكري وأغدق عليهم الكثير[3] .

وكان المنصور قلاوون قد فرض نطاقا من العزلة حول المماليك البرجية ، حتى لا يتصلوا بالمماليك الترك ، ويتأثروا بأوضاعهم ، وروحهم التي تطرق إليها الفساد ، كما لم يسمح لهم بمغادرة أبراجهم بالقلعة ، والنزول إلى القاهرة ، وساعدته قلة أعداد المماليك البرجية على تنفيذ سياسة العزلة هذه ، ولكن عندما زادت أعدادهم في عصر خلفاء المنصور قلاوون ، لم يستطع السلاطين فرض هذه العزلة ، فسمح لهم الأشرف خليل بمغادرة أبراجهم وطباقهم بالقلعة ، والنزول إلى القاهرة ومصر بشرط أن يتم ذلك أثناء النهار ، وأن يعودوا قبل الليل ليبيتوا في القلعة ، وبذلك وقفوا على كثير من الاتجاهات والأوضاع الداخلية بالبلاد ، وبدأت خبرتهم بالحياة العامة تزداد[4] .

ازدادت مكانة المماليك الجراكسة بازدياد اعتماد السلاطين عليهم ، من ذرية قلاوون عليهم ،فعندما قتل الأشرف خليل ابن قلاوون ثار المماليك الأشرفية من البرجية، وانتقموا بقتل قاتله بيدرا وظهر دورهم السياسي فى الكثير من الأحداث وهم الذين اختاروا الناصر محمد بن قلاوون سلطانا على البلاد فى سلطنته الأول سنة 693هـ/1293م رغم صغر سنه[5] .

وكانت فرصة الجراكسة حين اعتلي أحدهم عرش السلطنة وهو بيبرس الجاشنكير ، ولكن المماليك الأتراك رفضوا ذلك وأبدوا معارضة عنيفة لذلك ، مما أدي إلي هروب بيبرس الجاشنكير من السلطنة سنة 709هـ/1309م .

وبعد وفاة الناصر محمد ، وفى عهد أحفاده استطاع أحد الجراكسة أن يصل إلي منصب أتابك العسكر ، وذلك سنة 779هـ/1378م ، وهو الأمير برقوق ، وكان ذلك في عهد السلطان الطفل علاء الدين الذي لم يتجاوز عمره الست سنوات وحكم ست سنوات(778-783هـ) وبذلك كان برقوق أهم شخصية فى الدولة ، وكان فى استطاعته أن

يعتلي عرش السلطنة بعد وفاة المنصور علاء الدين مباشرة سنة 783هـ إلا أنه تريث قليلا ، فأقام في السلطنة أخاه الصالح أمير حاجي حفيد الناصر محمد ، وكان في الحادية عشرة من عمره ، وكان لا يستطيع وحده تدبير أمور الدولة ، فاشترك معه برقوق فى تدبير الأمور[6] ، واستعمل برقوق ذلك ليمكن لنفسه فعمل الآتي:

- ملأ الوظائف الكبرى باتباعه وأنصاره ومماليكه.
- أخذ يتحبب إلي عامة الناس ، فخفف عنهم الضرائب.
- قام بتحسين النقد ، وذلك بسك نقود جديدة لتحل محل النقود الزائفة التي كانت موجودة مما أنعش الحالة الاقتصادية[7].

حاول الترك التخلص من برقوق نتيجة لازدياد نفوذه ، وإحساسهم بخطورته إذا نجح فى الوصول إلي السلطة ، فدبروا مؤامرة لاغتياله ، ولكنه اكتشفها قبل وقوعها ، وتخلص من زعماء المؤامرة والمشتركين فيها ، مما اعتبر إعلانا لزوال سلطان العنصر التركي ، وبداية لصعود نجم المماليك الجراكسة[8] ، وبذلك أصبحت الأمور مهيأة لبرقوق لكي يعلن نفسه سلطانا ، وسلك برقوق الطريق المألوف فى دولة المماليك وهو عقد مجلس يضم كبار الأمراء والخليفة والقضاة ، وفى المجلس نهض كاتب السر وأخذ يشرح ما عليه حال البلاد من فوضي واضطراب بسبب صغر سن السلطان ، وبعد مداولات استقر الرأي على خلع السلطان حاجي ، وتوليه الأتابك برقوق العرش ، وتم ذلك في رمضان سنة 784هـ/1382م[9] .

وبولاية برقوق عرش السلطنة المملوكية تنتهي دولة المماليك البحرية وتبدأ دولة المماليك الجراكسة ، ولقب السلطان الجديد بالظاهر ، ولكن الحق أنه لا يوجد فارق على الإطلاق فى الدولتين فهما متداخلتان ، وقد ظلت الأنظمة هي الأنظمة ، والأساليب كما هي ، ولم تتغير في شئ ، إلا أن ما حدث هو أن سلسلة السلاطين الضعاف من سلالة قلاوون قد انتهت بسلطنة برقوق ، وأصبحت الكلمة الأخيرة فى كل ما يتعلق بشئون الحكم إلي مماليك القلعة يعيشون فى أبراجها بغير تدخل من غيرهم ، فانعدم بذلك آخر ظل لمبدأ الوراثة فى ولاية الحكم .

خصائص دولة المماليك الجراكسة.

- كان جميع سلاطين دولة المماليك الثانية من الجراكسة ما عدا خشقدم وتمربعا حيث كانا من أصل يوناني ، وقد بلغ عدد سلاطين هذه الدولة 25 سلطانا ، وحكمت نحو 134 سنة (784-922هـ)[10].
- ومن مميزات نظام ولاية العرش أنه غلب عليها مبدأ عدم احترام الوراثة أو الاعتراف به.
- محاولة إبقاء العرش المملوكي مشاعا بين القادرين من أمراء المماليك.
- ضرورة الحصول على موافقة الخليفة والقضاة بعد استقرار الأمر بين المماليك لتبرير الطريقة التى سلكها السلطان الجديد فى الوصل للحكم.
- تدبير المؤامرات والفتن للوصول إلي كرسي السلطنة.
- عدم العناية برغبات سائر السكان فى شئون السلطنة من حيث اختيار السلطان وتعيينه.
- حدث تطور فى نظام تربية المماليك مما أدي إلي ضعف الأسس التى قام عليها النظام السياسي المملوكي ، حيث استعاض السلاطين والأمراء عن المماليك الأطفال ، بالمماليك من الشباب البالغين الذين عرفوا باسم الأجلاب.

- السماح للمماليك بالنزول من القلعة ، وسكن القاهرة من عهد الظاهر برقوق حيث ضعفت الرقابة عليهم ، وعجز السلاطين عن ردعهم ، مما جعلهم بمثابة مثيري الشغب والحوادث.
- فساد النظام السياسي الذي حكم به الجراكسة وهو مبدأ الحكم لمن غلب[11] .

السلطان الظاهر برقوق (784-801هـ/1382-1396م)

هو برقوق بن أنس بن عبد الله العثماني من بلاد جركس ، جلبه إلي مصر التاجر الخواجه فخر الدين عثمان الخوارزمي ، وإليه نسب برقوق فعرف بالعثماني ، اشتراه الأمير يلبغا الخاصكي من مماليك السلطان الناصر حسن سنة 764هـ ، ثم اعتقله يلبغا فصار من جملة مماليكه البارزين ، وبعد مقتل يلبغا تفرقت مماليكه فخرج برقوق إلي الكرك سجينا وقضي به سنتين ، وقد ساهم في المؤامرة التي انتهت بمصرع السلطان الأشرف شعبان[12] .

لم يلبث برقوق أن ارتقي إلي مرتبة أمير أربعين دفعة واحدة دون أن يمر فى أمره عشرة ، حتى رقي إلي رتبة أمير مائة ومقدم ألف ، وشغل منصب الأخورية الكبرى ، ثم منصب الأتابكية ثم منصب السلطنة[13] .

ورأي شيخ الإسلام - أن يلقب السلطان الجديد بالملك الظاهر لمصادفة بيعته للسلطنة وقت الظهر بعد الصلاة ، وتفاءل الناس بسلطنته حين أمطرت السماء مطرا خفيفا وقت المبايعة ، ولبس برقوق شعار السلطنة ، وركب في الموكب السلطاني ، وازدانت القاهرة سبعة أيام[14] .

الأحداث الداخلية فى عهد برقوق.

ثورة منطاش نائب ملطية ، ويلبغا نائب حلب 791هـ:

خرج الأمير منطاش على برقوق وألتف حوله عدد من التركمان[15] ، وكانت هذه الثورة فى شمال الشام ، وانضم إليه يلبغا الناصري نائب حلب ، والتف حولهم عدد كبير من الأمراء والتركمان والمغول وعربان الشام ، واستولوا على حماة ، وزحفوا تجاه دمشق.

أرسل برقوق حملة إلي دمشق لمحاربة الثوار سنة 791هـ/1389م ، ولما وصلت هذه الحملة دمشق أخذ رجالها يعبثون بأحيائها ويفسدون فيها مما آثار غضب الدمشقيين ضد قوات السلطان وفي ظاهر المدينة نشبت معركة حامية انتهت بانتصار يلبغا وحلفائه على أثر وقوع خيانة فى صفوف الجيش السلطاني ، وتمكنت جنود يلبغا من دخول دمشق واحتلال قلعتها[16] .

حاول برقوق كسب الرأي العام فى مصر بعد انهزامه ، وذلك بإلغاء بعض المكوس ، إلا أن يلبغا زحف نحو القاهرة ، وتقاعد جنود برقوق عن الدفاع ، بل انضم أكثرهم إلي يلبغا ، وفى مقدمتهم الأمير قردماش الأحمدي الذي أخذ الأموال الطائلة من السلطان برقوق لإعداد نفسه لحرب يلبغا ، ولما نزل من حضره السلطان قطع الماء الذي يجري إلي القلعة فى الحال ، وتوجه إلي يلبغا[17] .

أيقن برقوق بزوال أمره عندما رجمت العامة مماليكه وتوجهت للانضمام إلي يلبغا ، حتى اضطر برقوق إلي الاستسلام[18] ، وأرسل إشارة السلطنة ، وهي الترس

والمنجناه[19] ، إلي يلبغا طالبا منه الأمان على نفسه ، وبذا غادر برقوق القلعة ، مختفيا[20] .

ودخل يلبغا الناصري وبصحبته منطاش القاهرة فاستقبلهما الخليفة المتوكل على الله ، ورغم مشاركة الثلاثة فى حكم البلاد إلا أن الاضطرابات استمرت ، واستمر معها أعمال السلب والنهب ، وقتل العامة إلى أن نجح والي القاهرة محمد ابن الحسام أرغون - الذي عينه يلبغا من إعادة الأمور إلى نصابها ، ونودي بالأمان في كل البلاد[21] .

أصبح يلبغا الآمر والناهي فى شئون السلطنة المملوكية ، فاستقبل الخليفة المتوكل فى مخيمه ، وعقد مجلس تداول فيه المجتمعون فيمن يلي السلطنة ، فأشار الحاضرون بأن يلبغا أولي بهذا المنصب ، ولكنه لم ير إجماعا على سلطنته ، بل أحس معارضة من قبل بعض الأمراء القادمين من الشام وعلى رأسهم منطاش ، ولذا رأي أنه من الأفضل أن يرشح الملك الصالح أمير حاجي بن الأشرف شعبان بحجة أن برقوقا عزله من غير سبب ، وتمت المبايعة وأعيد حاجي إلي السلطنة بلقب المنصور بعد أن كان يلقب بالناصر فى سلطنته الأولي ، وتم ذلك فى يوم 10 جمادى الآخر سنة 791هـ/1388م[22] .

تولي يلبغا أتابكية العسكر ، وقام على إثر ذلك بحركة تطهير ، فأخرج مماليك برقوق من القاهرة ، وأمر أن ينادي فى مصر والقاهرة بإحضار الظاهر برقوق[23] ، وقبض أخيرا على برقوق ، وبعث به سجينا إلى الكرك ، وأوصى صاحبها بإطلاق سراح برقوق إذ اشتعلت الفتنة بينه وبين منطاش ، وبالغ نائب الكرك فى إكرام برقوق حتى أنه كان يأكل معه فى سجنه[24] .

أما يلبغا فاستبد بالسلطة ، وعاد الصراع ليصبح بين كل من الرجلين - يلبغا ومنطاش- بسبب محاولة يلبغا الاستئثار بكل الامتيازات دون منطاش - كما عاث اتباعه فسادا حتى ضج منه الناس فى الوقت الذي تقرب فيه منطاش من الشعب ، فأحبوه وساعدوه حتى انتصر على يلبغا الناصري ، ثم قبض عليه وحبسه بالإسكندرية[25] .

تنكر منطاش للمماليك الجراكسة الذين عاونوه ضد برقوق وضد يلبغا ، وعمل على التخلص منهم[26] ، وفى تلك الأثناء خرج برقوق من سجن الكرك بموافقة نائبهما حسام الدين الكجكني عملا بوصية يلبغا ، ودخل في طاعته عرب بني عقبة ، وظل برقوق ينتقل من نصر إلي نصر ، وهو في طريقه إلي دمشق ، فكثر أنصاره ، وفى سنة 792هـ/1389م التقى عسكر منطاش بجيش برقوق بالقرب من دمشق ، وانتهت هذه المعركة بوقوع السلطان حاجي والخليفة وبعض القضاة فى الأسر ، وركب برقوق إلي القاهرة بعد أن جددت له البيعة مرة ثانية ، وامتدت سلطنة برقوق الثانية تسع سنوات (792-801هـ)[27] .

شهدت هذه الفترة بعض الفتن الداخلية ، فعلي الرغم من عفو برقوق عن يلبغا وإخراجه من السجن وتعيينه فى وظيفة أمير سلاح إلا أنه كاتب أمير التركمان بدمشق بمساعدة منطاش ، وتسهيل فراره إلي بلاد العثمانيين ، فعلم برقوق بذلك ، فقبض على يلبغا وأعوانه وأعدمهم ، وظل يطارد منطاش بالشام ، وهزمه أكثر من مرة حتى تم القبض عليه ، وسلم لنائب حلب الذي جز رأسه وتم التشهير به فى جميع المدن حتى وصل إلي مصر ، وفى القاهرة علق رأس منطاش على باب زويله[28] ، وهكذا تمكن السلطان برقوق

من القضاء على المؤامرات الداخلية المتمثلة فى ثورة الترك سنة 791هـ بقيادة منطاش ويلبغا الخاصكي[29].

ثورة الأعراب سنة 796هـ/1394م:

شهدت فترة سلطنة برقوق الثانية ثورات العربان التى اتخذت صورة عصيان ، وامتناع عن الإسهام فى جباية الخراج ، وعلى الرغم من أن السلطان برقوق قام منذ أوائل سلطنته بنقل عرب هواره من البحيرة إلي بعض بلاد الصعيد ، فإنهم لم يكفوا عن العصيان بل انتشروا فى أنحاء الوجه القبلي وامتد عصيانهم حتى نواحي أسوان، وأذعنت لهم سائر العربان وصاروا طوع قيادتهم وأدي ذلك إلي أن يعين برقوق نائبا قويا للوجه القبلي لمراقبة حركاتهم وقمعها وهو الأمير قطلوبغا الطشتمري[30].

وكانت ثورة الشريف جمال الدين محمود العنابي بالاشتراك مع موسى بن محمد بن عيسي شيخ عرب العبابده القاطنين حول الكرك بجنوب فلسطين من أخطر ثورات العرب حيث دعي العنابي فيها موسى إلي الخروج على طاعة السلطان واتفقا على خلعه مستغلين خروجه لقتال التتار ولكن مؤامرتهم انكشفت فأسرع برقوق بالقبض على العنابي ، وشريكه ، وأودعهم السجن ، وبذلك تخلص منهما.

برقوق وتيمورلنك:

لم يكد الظاهر برقوق يفرغ من مشاكله الداخلية حتى داهمه خطر خارجي جديد هو تيمورلنك والمغول - أحد وزراء المغول -الذي عمل على توسيع بلاده فقد استولت جيوشه على بعض البلاد التابعة لسلطنة المماليك مثل ماردين ، ووصلت جيوشه إلي تبريز وخربتها ، ووصل إلي الرها سنة 789هـ/1387م وخربها ثم تقدمت قوات تيمورلنك نحو ملطية الخاضعة للمماليك[31].

استطاع برقوق أن يكون حلفا سريعا بين القوي التى أحست بخطر تيمورلنك فى الشرق الأدنى ، مثل المماليك في مصر ، وأمير سيواس ، ومغول القفجان ، وسلطنة العثمانيين[32] ، وكان في غاية السرور من هذه الجبهة الإسلامية القوية ، إلا أنه كان فى قرارة نفسه أكثر خشية من نمو قوة العثمانيين عن الخطر التيموري .

جهز برقوق تجريده من القاهرة ، وتوجهت إلي حلب ، ثم زحفت نحو ديار بكر بقيادة نائب الشام حيث لقيت فلول جيوش تيمورلنك ، وهناك دارت معركة انتهت بهزيمة فرقة من الجيش المغولي يقودها ابن تيمورلنك ، وأسر أبرع قواده وهو اطلاميشن فى هذه المعركة وأرسله إلي برقوق ، ثم عادت الحملة إلى حلب ومنها إلي القاهرة سنة 790هـ/1388م[33].

ونظرا لانشغال تيمورلنك بمحاربة القبيلة الذهبية فى جورجيا حاول الدخول مع برقوق فى مفاوضات للصلح وإطلاق سراح الأسري إلا أن برقوق لم يطمئن لنوايا تيمورلنك بعد أن كون حلفا مع بعض أعداء الدولة المملوكية ، فاتبع تيمورلنك سياسة التهديد والوعيد نحو الدولة المملوكية ، ولم يلبث أن أرسل إلي برقوق رسالة تشبه تلك الرسالة التى بعث بها هولاكو سابقا إلي السلطان قطز فى دولة المماليك فى دولة المماليك البحرية سنة 658هـ/1260م ، وهذه الرسالة تضمنت آيات قرآنية ونصها[34]: ***" قل اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه***

يختلفون " اعلموا أنا جند الله مخلوقون من سخطه ، مسلطون على من يحل عليه غضبه..فالويل كل الويل لمن لم يمتثل أمورنا ، فإنا قد خربنا البلاد وأهلكنا العباد ، وأظهرنا فى الأرض الفساد..قد ملكنا الأرض شرقا وغربا ، وأخذنا منها كل سفينة غصبا ، وأرسلنا إليكم هذا الكتاب ، فأسرعوا فى رد الجواب قبل أن ينكشف الغطاء ولم تبق لكم باقية ، وقد انصحناكم إذ راسلناكم ونثرنا جوهر هذا الكلام عليكم والسلام " (35).

وعلى الرغم من عبارات التهديد والوعيد التي شملتها هذه الرسالة إلا أن الظاهر برقوق قد أظهر ثباتا ، وأمر كاتب السر بدر الدين بن فضل الله أن يكتب ردا على تيمورلنك بنفس أسلوبه فكتب قائلا: ***" بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء..، حصل الوقوف على كتاب مجهز من الحضرة الأيلخانية ، والشدة العظيمة الكبيرة السلطانية قولكم أنا مخلوقون من سخطه مسلطون على من يحل عليه غضبه .. فهذا أكبر عيوبكم ، وهذا من أقبح ما وصفتم به أنفسكم ويكفيكم بهذه الشهادة واعظا إذا اتعظتم..، ومن العجب العجاب تهديد الليوث بالليوث والسباع بالضباع ، والكماه بالكراع ، نحن خيولنا عربية وهممنا عالية..، قل لكاتبك الذي رصع رسالته ووصف مقالته ، حصل الوقوف كل كتاب كصرير باب أو طنين ذباب ، وسنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا ، ومالكم عندنا إلا السيف بقوة الله تعالي"*** (36).

وفى العام التالي 798هـ/1395م خرج برقوق على رأس حملة حربية لإعادة أحمد بن أويس إلي بغداد ، حيث كان تيمورلنك قد استولي عليها سنة 795هـ/1393م ومحاربة تيمورلنك وظل برقوق فى حلب بضعة أشهر ، ولما وجد أن تيمورلنك عاد إلي بلاده،كتب إلي أحمد بن اويس بنيابة السلطنة فى بغداد ، وعاد إلي القاهرة[37] دون أن تتاح له الفرصة لإظهار شجاعته في محاربة المغول ، ولما أحس برقوق بدنو أجله جمع حوله الخليفة وكبار الأمراء والقضاة وطلب منهم أن يحلفوا بالسلطنة لأولاده من بعده وهم فرج وعبد العزيز وإبراهيم ، وتوفي برقوق سنة 801هـ/1398م[38] ، وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والشامية ست عشرة سنة وأربع أشهر وسبعة وعشرين يوما وذلك على مرتين ، وكان عمره يوم مات ثلاث وستين سنة[39] .

السلطان الناصر فرج بن برقوق(801-808هـ/1399-1405م) - (808-815هـ/1405-1412م)

غداة وفاة السلطان برقوق بايع الخليفة والقضاة الأربعة وشيخ الإسلام البلقيني ومعهم الأمراء ، فرج بن السلطان برقوق ولم يكن عمره يزيد على عشرة سنوات وقيل اثني عشر عاما وعين الأمير أينمش أبجاسي أتابكا للعسكر[40] .

كان فرج أكبر أخواته عبد العزيز وإبراهيم ، ولد فرج خلال فتنة منطاش سنة 791هـ/1389م من أم رومية الجنس فسماه أبوه بلفاق أي فتنة ، فلما نجح برقوق فى القضاء على هذه الثورة سمي ابنه فرجا تفاؤلا بالنصر[41] .

أهم الأحداث الداخلية:

حفلت دولة المماليك خلال عهد الناصر فرج بالاضطرابات والفوضى فى مصر والشام ، ففي اليوم الثاني من ولاية الناصر فرج نشبت بعض الثورات الداخلية بين بعض

الأمراء مثل الأمير سودون - أمير آخور - الذي امتنع عن حضور الموكب السلطاني فكان مصيره السجن[42].

الأحداث الخارجية خلال سلطنة الناصر الأولي:

كان من أهم الأحداث الخارجية التى وقعت فى سلطنة الناصر فرج الأولي هي عودة تيمورلنك لمهاجمة بلاد الشام ، وذلك سنة 802هـ/1399م حيث عبر نهر جيحون وتقدم نحو العراق ، ففر أمامه ابن أويس ولجأ إلي حلب ، ثم زحف تيمورلنك نحو مدينة حلب وتصدي له نائب حلب ومعه قوات نائب حماه ، ولكن الهزيمة لحقت بالجيوش المتحالفة على يد تيمورلنك[44] ، واستولي تيمورلنك على حلب عنوة وأباد حاميتها بعد أن أقسم ألا يغدر بها[45] ، تابع تيمورلنك زحفه على بلاد الإمبراطورية المملوكية واستولي على حماة وقتل أهلها ، ثم استولي على مرعش وعنتاب ، ولما وصلت هذه الأنباء إلي مصر عقد السلطان مجلسا وانتهي الأمر بأن خرج على رأس جيش إلي الشام لمحاربة تيمورلنك ، وكان تيمورلنك فى ذلك الوقت قد استولي على حمص وبعلبك واتجه نحو دمشق وعسكر بالقرب منها[46] .

وصل السلطان فرج إلي دمشق أواخر سنة 803هـ/1400م وعسكر خارجها ، والتحم الفريقين بظاهر دمشق ، وأصيب الجيش المملوكي بخسارة فادحة ، فأدرك الناصر فرج حرج موقفه في الشام وخشي على حياته وعاد إلي القاهرة تاركا جيشه يلقي أسوأ مصير على يد تيمورلنك قرب حلب[47] ، ولذلك اضطرت دمشق ، بعد إجراء المفاوضات إلي التسليم بشروط معينة ، وما أن اطمئن تيمورلنك لسكون أهل دمشق وركونهم إذ دخلت جيوشه المدينة ولم يراعوا شروط المفاوضات وسلب دمشق من أهلها وفضلائها وأرباب الصنائع والحرف فيها من النساجين والخياطين والحجارين والبياطرة والنقاشين والقواسين وغيرهم وأمر بترحيلهم إلي سمرقند[48].

ولذلك لم تكن كارثة دمشق مجرد كارثة حربية ، وإنما جاءت أيضا كارثة حضارية ذات أثر سلبي بالغ الخطورة على إنحطاط فنونها وتأخرها.

وعندما سمع السلطان فرج بانتصارات تيمورلنك فى أسيا الصغرى وهزيمة بايزيد الأول العثماني فى واقعة أنقرة سنة 805هـ/1402م وافق على الشروط التى أرسل بها تيمورلنك مع الأمير سودن نقيب قلعة دمشق بعد استشارة أمرائه ، فتم تبادل الأسري بين الطرفين[49] ، بل رضي أن يسك العملة باسم تيمورلنك ، ولم يلبث تيمورلنك أن مات سنة 808هـ /1405م ، دون أن يتحقق حلمه في احتلال مصر[50]

كان لرضوخ السلطان فرج لطلبات تيمورلنك أثره السلبي على مكانته التى فقدها بين أمرائه ، وعمت الفوضى القاهرة حتى ضاق السلطان بالمؤامرات وما يدبره الأمراء من حوله لخلعه وقتله فتسلل من القلعة وهو متنكر فى هيئة لا يعرفها أحد وسار على قدميه مبتعدا عنها واختفي فى بيت سعد الدين بن غراب لمدة شهرين[51] .

سلطنة الملك المنصور عز الدين عبد العزيز 808 هـ/1405م:

عندما بلغ الأمراء نبأ اختفاء السلطان فرج ، تشاوروا فيما بينهم فيمن يولوه سلطانا ، فوقع الاتفاق على سلطنة أخيه عبد العزيز ، وتولي بيبرس الأتابك تدبير الأمور لصغر سن السلطان ، حيث كان عمره يوم ولي السلطنة عشر سنوات ، ولم يمكث فى السلطنة

سوي شهرين حتى هدأت الأمور وتمكن الأمير يشبك الشعباني من إعادة الناصر فرج إلي السلطنة مرة ثانية واستمر فيها تلك المرة نحو من سبع سنوات(808-815هـ-1405-1412م)[52].

بدأ الناصر فرج سلطنته الثانية بسجن أخويه عبد العزيز وإبراهيم بالإسكندرية ثم قتلهما ، ثم قضى على الاضطرابات فى بلاد الشام حيث عدت مسرحا للمنافسات بين كبار الأمراء[53].

الخليفة المستعين بالله العباسي(815هـ/1412م):

بعد خلع الناصر فرج ومقتله ، تشاور الأمراء في من يلي السلطنة ولما كان الأمير نوروز والأمير شيخ يتطلعان إليها ، وكان شيخ أجدر بها وأثار التنافس بين الأميرين ، وقال نوروز لشيخ **" لا أنا ولا أنت نتسلطن ، ولكن اجعلوا الخليفة العباسي هذا هو السلطان ، ويكون شيخ أتابك العسكر والأمير نوروز نائب الشام يحكم فى البلاد الشامية من غزة إلي الفرات يولي بها من يختار ويعزل من يختار"**[59].

وهكذا ثارت البلاد تحكم بثلاثة رؤوس ، الخليفة العباسي وشيخ فى القاهرة ، ونوروز فى بلاد الشام يحقق مصالحه التى كانت تتضارب مع مصالح شيخ[60] ، وهذا الأمر لم يدم طويلا حتى كان الأمير شيخ قد حد من سلطة الخليفة وعول على عزله ، فجمع الأمراء والقضاة الأربعة وقرروا خلع الخليفة بحجة كثرة الاضطرابات وفساد العربان ، وحاجة البلاد إلي سلطان تركي له سطوه لقمع أهل الفساد وإصلاح البلاد على يديه ، وعلى الرغم من أن شيخ لم يكن تركيا ، حيث كان جركسيا فإنه كان يهدف إلي إخراج السلطة من أيدي هذه العصبة المتحكمة[61].

السلطان المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي (815-824هـ/1412-1421م):

بعد خلع الخليفة العباسي الذي لم تدم سلطته سوى خمسة أشهر تقريبا بويع بالسلطنة على عرش مصر شيخ المحمودي الظاهري ولقب بالسلطان الملك المؤيد أبو النصر ، وكان ضمن مماليك الظاهر برقوق ، وكان عمره عند بيعته اثنين وعشرين سنة[62].

الثورات الداخلية:

ثورة نوروز سنة 817هـ/1414م:

عندما بلغت أخبار عزل الخليفة العباسي من السلطنة إلي الشام اعتبر نوروز أن ذلك إخلالا بالعهد والميثاق الذي ارتبط به مع الأمير الشيخ ، فأعلن التمرد والعصيان ، ورفض من أول الأمر أن يقبل له الأرض أو يخطب باسمه ، وظل يخطب على منابر الشام باسم الخليفة العباسي ، ورفض أن يضرب السكة باسم المؤيد شيخ ، وهذا ما جعل السلطان المؤيد يضطر إلي الخروج نحو الشام على رأس جيشه ، والتقي به نوروز الحافظي ، ولكن الدائرة دارت على نوروز فانهزم بجيشه وتم القبض عليه وأعدم ، وكان ذلك فى شهر جمادى الأول سنة 817هـ/1414م ، وهكذا تخلص المؤيد من نوروز بالقتل[63].

ثورات نواب الشام:

بعد التخلص من نوروز ، وعودة السلطان المؤيد إلي القاهرة عاود ثوار الشام التمرد ، فخرج السلطان على رأس جيش جديد لقمع حركاتهم ، فانتصر عليهم مرة أخرى ، وعاد إلي القاهرة فائزا منتصرا وقد صفا له الجو ، ويعتبر عهد المؤيد شيخ هادئا من حيث الفتنة والاضطرابات بالقياس إلي عهدي فرج وأبيه برقوق[64].

الأحداث الخارجية:

تميز عهد السلطان شيخ بمحاولة الإمارات التركمانية الخروج على سلطنة المماليك ، حيث كثر التمرد في (إمارة قرمان وذو الغادر ورمضان) ، ولذا اضطر المؤيد شيخ إلي الخروج لإخضاعهم سنة 821هـ/1418م ، حيث خرج على رأس جيشه إلي طرسوس فاستولي عليها ، واستولي على الأبلستين عاصمة دلغادر ، كما وافق أمير قرمان على أن يسك العملة باسم السلطان شيخ ، وسلمت له القلاع الحصينة فى كركر وكخته ودرنده ، وهكذا تم له إخضاع الإمارات التركمانية وعاد المؤيد شيخ إلي مصر[65] .

هذا وكانت وفاة السلطان المؤيد شيخ فى يوم الاثنين التاسع من محرم سنة 824هـ/1421م ، وكان عمره خمس وستون سنة ، وكانت دولته ثابتة الأركان وساد فيها الأمن وقطع دابر الفتن والثورات خلال فترة حكمه ، وتميز عهده بحدوث طاعون فى مصر سنة 819هـ/1416م وما ترتب عليه من غلاء ، ومساوئ أخرى.

ومن أهم منشآته:

جامع المؤيد:الذي أقامه مكان السجن الذي اشتهر باسم خزانة شمايل وفاء لنذر كان نذره على نفسه عندما كان مسجونا بهذا السجن ، ورتب فى هذا المسجد دروس الشافعية والمالكية والحنابلة[66].

خلفاء المؤيد الشيخ(824-825هـ):

خلف المؤيد شيخ ابنه أحمد وكان طفلا لا يتجاوز عمره سنة وثمانية أشهر ، وجاء إلي سرير الملك وهو فى حجر مرضعته ، وكان ذلك بتدبير من الأمير ططر الذي تولي الأتابكية ، وانتزع السلطة لنفسه[67] ، بعد أن تزوج من والدة السلطان أحمد (أرملة المؤيد شيخ خوند سعادات) ، ولما خلع أحمد من السلطة دبرت أم أحمد لقتله بعد أن طلقها، وكان حكمه ثلاثة شهور وأيام ، وخلفه ابنه محمد سنة 824هـ/1421م ، ولقب بالصالح ناصر الدين وكان فى الحادية عشر من عمره ، فتولي الوصاية عليه الأتابك جاني بك الصوفي ، غير أن الأمير برسباي الذي كان يشغل منصب أمير آخور انتزع الوصاية من جاني بك وسجنه ، ثم انتزع السلطنة لنفسه سنة 825هـ/1422م[68].

الملك الأشرف برسباي(825-841هـ/1422-1438م)

وفى يوم الأربعاء الثامن من ربيع الثاني خلع برسباي السلطان الصالح ناصر الدين محمد بن ططر ، وبايعه بالسلطنة الخليفة والقضاة الأربعة والأمراء ولقب بالملك الأشرف برسباي ، وقد جاء به بعض التجار من بلاد الجركس ، فاشتراه أحد الأمراء ثم آلت ملكيته إلي السلطان برقوق الذي أعتقه ووهبه مالا وقماشا وخيلا ليبدأ حياته الحربية وجعله خاصكيا ، فلما تسلطن الملك المؤيد شيخ جعله أمير عشرة ، ثم أمير طبلخانة ، ثم رقي إلي أمير مائة ومقدم ألف ، وجعله السلطان ططر دوادار[69] .

يعتبر عهد برسباي الذي يبلغ ست عشرة عاما هادئا بالقياس إلي عهود سابقيه على الرغم مما عاناه الناس خلال فترة حكمه من سوء الأحوال الاقتصادية ، وارتفاع الأسعار ،واتباعه سياسة الاحتكار[70].

برسباي والاستيلاء على قبرص:

صمم برسباي على الانتقام من قبرص وملوكها بعد أن زادت غارات القراصنة بها على الموانى الإسلامية ، ولم تنس مصر طيلة ستين عاما منذ حملة بطرس على الإسكندرية ثأرها تجاه هذه الجزيرة وكان الدافع وراء ذلك الآتي:

1- تأمين تجارة مصر فى البحر المتوسط من اعتداءات القبارصة.
2- غارات الفرنج وعبثهم بالسواحل الإسلامية ففى سنة 824هـ/1423م أخذ الفرنج مركبين من مراكب المسلمين غرب دمياط فيها بضائع كثيرة وأعداد كثيرة من الناس يزيدون على مائة رجل[71].
3- استولي ملك قبرص لوزنيان على سفينة محملة بالهدايا مرسلة من برسباي إلي السلطان مراد العثماني[72].

وكان من الطبيعي أن تلهب هذه الأعمال روح الانتقام بين المماليك وضرورة الرد على العدوان بالعدوان ، وحتمية الاستيلاء على جزيرتي قبرص ورودس التى اتخذ القراصنة منهما أوكارا لهم.

وكانت أولي الحملات المملوكية على قبرص والتي سميت بالغزوة الصغرى فى 9 رمضان سنة 827هـ/7 أغسطس 1424م[73] حيث سار غربان من ساحل بولاق إلي خارج القاهرة ، وتوجه أحدهما للإسكندرية والأخر إلي دمياط ، وكانا محملان بالأسلحة والمقاتلين واتجها إلي طرابلس لينضم إليهما عدة أغربة من طرابلس وبيروت، ومن هناك اتجهت هذه الحملة إلي قبرص[74].

وعند الشاطئ الجنوبي بالقرب من ميناء ليماسول وجدت سفينة تجارية راسية هناك ، فلما رأى بحارتها السفن الإسلامية تركوها وهربوا فنهبها المسلمون وأشعلوا فيها النيران[75] ، ثم أغارت الحملة على ميناء ليماسول نفسه وأسر الأسطول المملوكي عدة مراكب للفرنج فأخذ المماليك ما بها وأشعلوا فيها النيران ، ودارت بعض المناوشات البرية بين المماليك والقبارصة فى حصن ليماسول ، ولما وجدوا أنه منيعا[76] ، وتطول محاصرته عاد الأسطول إلي دمياط بعد أن قضي شهرين فى هذه الغزوة محملا بالغنائم مع عدد كبير من الأسري ، وقد سر السلطان برسباي بما أسفرت عنه هذه الحملة وتحقق من مدي ضعف قبرص وانحلال أمورها ، فهي كانت حملة استكشافية[77].

الحملة الثانية 828هـ/1425م:

بعد رجوع الحملة الأولي لم يضيع برسباي الوقت فيعطي خصمه الفرصة لكي يستعد ، فأمر ببناء سفن جديدة فى دور الصناعة فى بولاق ما بين طرائد وأغربة ، وحمل برسباي على التعجيل بهذه الحملة ما شاع عن تحركات فرنجية كثيرة ، وانفق على الغزوة مبالغ كثيرة[78].

شاهد السلطان بنفسه الاستعدادات الحربية ، كما توجه بنفسه وشاهد الأغربة بساحل بولاق ، وأمده الخليفة الحفصي فى تونس ببعض السفن[79] ، كما رسم السلطان

بعمارة حمالة بيروت لعسكر الشام وغرابين ، ورسم أيضا لنائب طرابلس بعمارة حمالة مع الغراب الذي عنده[80] ، ثم تجمعت جيوش الحملة ومراكبها فى طرابلس وبلغ عدد الأسطول أربعين قطعة ، وأبحرت الحملة من طرابلس فى 14رمضان سنة 828هـ الموافق 30 يوليو 1425م ، وعليها الآلاف من جنود البر والبحر ، ورماة النفط ، تحت قيادة الأمير جرباش الكريمي حاجب الحجاب يعاونه مجموعة من الأمراء على كل سفينة أمير ، وذلك بعد أن رفض الملك جانوس الصلح[81] ، ثم وصلت السفن الإسلامية ميناء قرباص على الشاطئ الشمالي الشرقي للجزيرة ولم تساعدها الريح على الوصول إلي (أفاماجوستا) إلا فى ليلة الأحد 20 رمضان ، حيث اضطر حاكم أفاماجوستا إلي طلب الأمان والدخول فى طاعة المسلمين وأطلعهم على نقاط ضعف الجزيرة حتى تمكنوا من الاستيلاء على قلعة المدينة[82].

واتجهت الحملة بعد ذلك إلي (لارتكا) ، وتعرض المسلمون لهجوم فرعي بحري فقاتلهم المسلمون وتمكنوا من هزيمتهم ، وأرسل جانوس أخاه على رأس جيش لمناوشة المسلمون ، استطاع المسلمون إنزال الهزيمة بفرسان الفرنج ، وحاولت السفن القبرصية استدراج السفن الإسلامية إلا أنه لم يتحقق لها ذلك ، حيث لم يغر النصر الأسطول الإسلامي مطاردة السفن القبرصية فى عرض البحر تاركا الجنود فى البر وحدهم[83] ، فأمر جرباش بإنزال الخيل على البر وشن الغارات على الضياع وأخذوا يقتلون ويأسرون ويحرقون القرى وواصلوا زحفهم فى الجزيرة ، ففتحوا ليماسول فى آخر رمضان سنة 828هـ[84] ، وأخذ الفرسان المسلمون يقتلون ويأسرون حتى ضاقت مراكبهم عن حمل الأسري والغنائم[85].

وقبل أن يقر المسلمون خطة الزحف نحو العاصمة نيقوسيا بلغهم أن البندقية أرسلت نجدة قوية إلي قبرص ، وأن الملك جانوس لوزنيان يعيد ترتيب صفوفه ، عندئذ رأي جرباش الاكتفاء بما حققه من نصر ، وفضل عدم الدخول مع الملك جانوس فى مواجهة قد لا يكون الرابح فيها ، فعاد إلي الديار المصرية ودخل الجيش المملوكي الظافر القاهرة فى 13 شوال سنة 828هـ/9سبتمبر سنة 1425م حيث قام السلطان برسباي بالإنعام على أفراد الحملة لما حققوه من نجاح[86].

الحملة الثالثة 829 هـ/1426م:

لم يقتنع برسباي بما حققته حملته الثانية على قبرص ، فلم يكن يهدف إلي مجرد السلب والنهب والتخريب والعودة ببعض مئات من الأسري ، وأكوام من الغنائم ولكن كان هدفه الأساسي هو الاستيلاء على الجزيرة وإخضاعها للنفوذ المصري حتى يقضي على وكر القراصنة ومركز تجمع الصليبيين فيها ، وحتى لا يقال عنه كما قيل فى بطرس لوزنيان من قبل أنه فعل فعل اللصوص ، لا الملوك لأن الملوك إذا ملكوا بلدا صمدوا فيه ودافعوا عنه[87] ، ولذلك قرر برسباي إرسال حملة ثالثة على قبرص فى العام التالي ، ومما زاد من عزمه تحريض الجنويه له ضد جانوس بسبب عدائهم له[88] ، وكذلك استنجاد أمير العلايا من أطماع آل لوزنيان فى إمارته بجنوب شرق أسيا[89] ، هذا بجانب ما بلغ السلطان برسباي من أن جانوس ملك قبرص راسل ملوك الفرنج واستنجد بهم على المسير إلي ثغر الإسكندرية ودمياط وبيروت وطرابلس وغير ذلك[90] ، ولهذه الأسباب مجتمعة أمر السلطان بالإسراع فى عمارة أغربة وحمالات بجميع السواحل ، حتى بلغت ما يقرب

من مائة وثمانين قطعة[91] ، ولما انتهي من إعداد الحملة عرض العساكر والمجاهدين بحوش القلعة ليقف على مدي استعدادهم وتسليحهم وليوزع عليهم نفقة السفر ، وسافر مع هذه الحملة عدد من الفقهاء[92].

وخرجت الحملة من مصر مباشرة دون المرور على موانى الشام ، وقد عهد السلطان بقيادتها إلي الأمير تغري بردي المحمودي حيث تولي قيادة عسكر البر، وتولي قيادة عسكر البحر الأمير إينال الجكمي ، وحدد السلطان اختصاصات كل منهما نظرا لأهمية التعاون بين القوات البرية والبحرية[93].

تحركت الحملة من الإسكندرية مارة برشيد ومنها إلي قبرص فوصلتها يوم الأربعاء 27 شعبان سنة 829هـ/أول يوليو سنة 1429م ، ورست على بعد عدة أميال من ليماسول ، فنزلت القوات البرية على البر ، وضربوا خيامهم فى أرض الجزيرة بعد أن قام منهم جماعة فى المراكب مستعدين متجهزين لمواجهة أي هجوم بحري[94].

وعلى الفور سارعت إحدى الفصائل نحو ليماسول ، وهاجموا قلعتها حتى تم لهم الاستيلاء عليها بعد قتال عنيف لأن القبارصة كانوا قد أعادوا تحصينها ، ثم أخذت جيوش المسلمين تتوغل داخل الجزيرة نحو العاصمة نيوقسيا ، وكان الملك جانوس قد أعد جيشا كبيرا لإيقاف زحف المماليك ودارت معركة كبيرة بين الطرفين عند خيروكيتا Kherokita الواقعة فى الشمال الشرقي من ليماسول[95] انتهت بهزيمة القبارصة ، وفرار ملك قبرص ومن معه من جيشه وتتبعه المماليك حتى وقع أسيرا مع أعداد كبيرة من رجال جيشه[96].

وبعد ذلك زحف المماليك بزعامة الأمير تغري بردي المحمودي والأمير برمش على رأس قوة كبيرة إلي نيقوسيا عاصمة الجزيرة وتم لهما الاستيلاء عليها ، وفى حين استمر الأمير أينال على رأس السفن لحفظ جانب البحر ودارت معركة بحرية بين المماليك وبعض القبارصة ، وأظهر المسلمون فيها براعة حربية بحرية كبيرة لدرجة أن بعضهم كان يلقي بنفسه على مراكب القبارصة بالرغم من كثرة المدافع والسهام[97] ، وانتهت هذه المعركة بهزيمة للأسطول القبرصي ، ويذكر أن سبب تراجع هذا الأسطول أن المسلمين أجبروا جانوس ملك قبرص بعد أسره على كتابة خطاب إلي قائد الأسطول القبرصي يأمره فيه بالرجوع فرجع[98].

ودخل المسلمون عاصمة قبرص فنهبوا جانبا منها كما نهبوا قصر الملك[99] ، وفي يوم الجمعة صلي المسلمون صلاة الجمعة فى كنيسة المدينة بعد أن أذنوا للصلاة فى أحد أبراجها ، وأعطي أهل المدينة الأمان[100].

وأعلن الأمير تغري بردي فى قصر الملك بأن الجزيرة صارت من جملة بلاد السلطان الملك الأشرف برسباي[101] ، وعادت الحملة بعد هذا النصر الكبير إلي مصر ومعها ألوف الأسرى وعلى رأسهم الملك جانوس ، وهكذا انتقمت دولة المماليك لما حل بشعبها وثغورها وتجارتها فى مصر والشام على يد القبارصة ، ولم يطلق سراح الملك جانوس إلا بعد تعهده بدفع الفدية وقدرها مائتي ألف دينار يدفع نصفها قبل رحيله والنصف الآخر بعد عودته[102] ، وظلت قبرص تابعة للقاهرة تؤدي لها جزية سنوية قدرها عشرون ألف دينار[103] ، كما اشترط أن يكون جانوس نائبا عنه فى قبرص ، واستمر يدفع الجزية بانتظام ، كما ظلت قبرص خاضعة لحكم المماليك حتى سقوط دولتهم سنة 923هـ/1517م ، على يد العثمانيين الذين حكموا الجزيرة حكما مباشرا عن طريق ولاتهم الأتراك[104].

السلطان العزيز يوسف بن برسباي(841-842هـ/1438م):

تولي السلطنة بعد وفاة أبيه وهو فى سن الرابعة عشر من عمره ، وتولي أتابكة العسكر جقمق العلائي ، فأصبح كما هي العادة صاحب الحل والعقد والمتصرف فى كل الأمور ، حتى انتهي الأمر بأن عزل السلطان العزيز يوسف وتولي السلطنة.

السلطان جقمق(842-857هـ/1438-1453م):

بعد عزل السلطان العزيز تولي جقمق السلطنة ، وهو مملوك جركسي من مماليك السلطان برقوق ، اعتقه وعينه خاصيكا فى عهد الناصر فرج أصبح أمير عشرة ، وفى عهد المؤيد شيخ صار أمير طبلخانة ، وفى دولة ططر أمير مائة ومقدم ألف ، وفى دولة الأشرف برسباي عين صاحب الحجاب ، ومنصب أمير آخور ، ثم أتابك العسكر ثم سلطانا ، وكان عمره حين ولي السلطنة خمسة وثلاثين سنة وعين الأمير قرقماش أو قرقميش أتابكا للعسكر.

الثورات الداخلية.

كان أول ما واجهه جقمق هو فرار السلطان العزيز بن برسباي المخلوع ، واختفائه لدي بعض أنصاره ، ولكن جقمق استطاع أن يقبض عليه ويرسله مقبوضا عليه إلي الإسكندرية[105].

برز منافس من أمراء المماليك وهو أتابكا العسكر الأمير قرقماش الذى استمال المماليك الأشرقية وحاول تدبير مؤامرة للقبض على السلطان جقمق ، إلا أن السلطان علم بها فاحتاط لذلك وذلك أثناء لعبهما الكرة ، ففشلت المؤامرة ، فقام الصراع العلني بين الرجلين وحاصر قرقماش القلعة ، ولكن جقمق تمكن من القضاء على حركته وقبض عليه ، وأرسله إلي سجن الإسكندرية ثم قتله بعد ذلك[106].

نوروز نائب الشام:

وفى الشام أعلن الأمير أينال الجكمي خروجه على طاعة السلطان جقمق وانضم إلي نائب حلب ، ولكن جقمق استطاع أن يرسل جيشا إلي الشام تمكن من هزيمة أينال وحلفائه وقبض عليهم وقطع رؤوسهم[107].

السلطان جقمق وغزو رودس(842-857هـ/1438-1453م):

تعتبر جزيرة رودس من الجزر الهامة فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، حيث تمتاز بموقعها الإستراتيجي الممتاز خاصة وأنها تتوسط قارات العالم الثالث.

وقد أصبحت منذ أن وفد إليها الاسبتارية سنة 708هـ/1308م بمساعدة الجنوية وانتزاعها من الدولة البيزنطية حصنا من الحصون الباقية لحكم الصليبيين فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، حيث أنهم اتخذوها قاعدة لنشاطهم وأعمالهم[108] ، كما اتخذوها لمناوئة المسلمين[109] ، وذلك بعد سقوط عكا آخر المعاقل الصليبية فى الشام ، ونحن نعلم أن حملة بطرس لوزنيان على الإسكندرية سنة 767هـ/1365م أبحرت من رودس[110].

أهم الدوافع لفتح رودس:

1. حوادث القرصنة التي يقوم بها الاسبتارية وخاصة بعد استيلاء المسلمين على قبرص سنة 826هـ/1426[111] ، ومثال لذلك إغارة أربع شواني للفرنج على فرع رشيد سنة 743هـ/1439م وأخذت منها أبقارا وغيرها[112].

2. شجع السلطان العثماني مراد الثاني السلطان جقمق على ذلك ليشغل فرسان الاسبتارية عن المساهمة فى الحلف الصليبي الذي كان فى بداية تكوينه لشن حملة صليبية ضد العثمانيين فى البلقان[113].
3. كما شجع جقمق على غزو رودس أن أسطول برسباي الذي غزا قبرص كان لا يزال فى حالة جيدة[114].
4. قرب جزيرة رودس من قبرص التى سيطر عليها المسلمون وإمكان اتخذها قاعدة لغزو رودس.

وبعد أن هدأت الأمور الداخلية فى مصر شرع السلطان جقمق فى إعداد العدة لغزو رودس ، حيث أرسل إليها ثلاث حملات على التوالي (844هـ/1440م) ، (846هـ/1443م) ، (848/1444م).

الحملة الأولي 844هـ/1440م:

بعدما أتمت البحرية المملوكية استعدادها للقيام بالهجوم على رودس أقلع الأسطول المصري من بولاق فى 9 ربيع الأول سنة 844هـ/8 أغسطس 1440م ، وكان مكونا من خمس عشرة سفينة كاملة العدة والعتاد[115] ، وكان عليها مائتان من الجند بقيادة الأميرين تغري برمش الزردكاش ، ويونس المحمودي(أمير آخور) ، وانضم إليهما الكثير من المتطوعين من القاهرة ودمياط حتى بلغ عدد المحاربين ألف مقاتل[116] .

وسارت السفن المصرية من ساحل بولاق فى النيل حتى وصلت دمياط واتجهت إلي قبرص للتمويل ، ثم توجهت بعد ذلك إلي ساحل أسيا الصغرى ومنها إلي رودس[117] .

وهناك وجد المسلمون أن الفرسان الاسبتارية على أتم الاستعداد للهجوم ، ثم دارت عدة معارك برية وبحرية انتهت بفشل المسلمين فى اقتحام الجزيرة وعادوا إلي مصر بعد انسحابهم ليلا[118] ، وعلموا صراحة بأنه ليس لهم طاقة بأهل رودس[119] ، فكان سبب فشل هذه الحملة راجعا إلي تسرب أخبارها إلي أهل رودس عن طريق الرهبان والفرنسيسكان المقيمين بدير صهيون وبيت لحم.

الحملة الثانية 846هـ/1443م:

أخذ السلطان جقمق فى إعداد حملة ثانية تكون أشد بأسا وأوفر رجالا ، واسند قيادتها إلي اثنين من مقدمي الألوف ، وهما: الأمير أينال العلائي الناصري ، والأمير تمرباي[120] ، وأقلعت الحملة من دمياط فى المحرم سنة 846هـ/1443 ، وكان قوامها عدد كبير من المراكب تزيد على ثمانين غرابا وحمالات مربعات وزوارق وسلالير وغيرها مع المراكب ، وكان بها ما يزيد على ألف وثمانمائة مقاتل[121] .

وقد قصدت الحملة الشواطئ السورية أولا ، ثم توجهت إلي قبرص للتمويل ، وفى 7 أكتوبر سنة 1443م نزل المماليك إلي ساحل رودس وضربوا الحصار حول الحصن المعروف بقشطيل الروج chateau rouge أي الحصن الأحمر ، وشنوا عليه هجوما عنيفا حتى استسلمت حاميته ورفع المماليك الأعلام على الأبراج[122] ، ولم يواصل المماليك زحفهم على رودس لانتهاء موسم القتال بحلول فصل الشتاء وبسبب نفاذ الذخيرة ، فعادوا إلي مصر فى 21 ديسمبر سنة 846 هـ بعد رحلة دامت أربعة أشهر ونصف[123] .

الحملة الثالثة 848هـ/1444م:

لم يفت فى عضد جقمق ما أصاب حملته من عدم التوفيق فى الاستيلاء على رودس ، ولكنه احتذي بالسلطان برسباي فى حملته الثالثة على رودس ، وعين الأمير يلخجا الناصري لقيادة الأسطول ، والأمير إينال لقيادة القوات البحرية ، ويساعده الأمير تمرباي[124] .

أقلعت الحملة من بولاق 22 محرم سنة 848هـ/3 يوليو سنة 1444 م وكانت تتألف من أكثر من ألف مملوك ، غير المتطوعين الذين بلغ عددهم حوالي ألف وثمانمائة مقاتل[125]) ، كما انضم إليها الجنود الشامية ، وعندما خرجت الحملة من طرابلس ازداد عددها ، ثم أبحرت نحو جزيرة رودس ونزلوا على برها وأقاموا على وجه السرعة آلات الحصار[126] ، ونصبوا على مدينة رودس المجانيق ورموا أبراجها بالمكاحل والمدافع ،

ولكن المدينة كانت غاية فى المناعة والحصانة ، واستمر المماليك على حصارها أياما[127] .

وحاول الاسبتارية مهاجمة سفن المماليك غير أن جند البحر بقيادة يلخجا استطاعوا التصدي للأسطول الاسبتاري واشتبك معهم فى معركة عنيفة خسر على أثرها ثلاث سفن بعد أن رد هؤلاء مدحورين مهزومين[128] .

ولم تلبث أن قامت معركة حامية بين الروادسة والمماليك فى جمادي الأولى 848هـ / 24 أغسطس سنة 1444م قتل فيها ثلاثمائة جندي وجرح خمسمائة ، واضطر المماليك على أثرها إلي ترك مؤنهم ومتاعهم وأسرهم واتجهوا إلي سفنهم التى أقلعت بهم طلبا للنجدة[129] .

وكان جقمق قد أرسل بعض الإمدادات والنجدة إلي المماليك فى رودس بعد تحرج موقفهم إلا أن هذه الإمدادات ما لبثت أن عادت بدورها فى أثر رجوع الحملة إلي الإسكندرية ودمياط ، ثم إلي القاهرة وذلك يوم الخميس 12 رجب سنة 848هـ/1444م[130] .

وصفوة القول أن الحملات الثلاث التى قام بها جقمق ضد رودس لم تحقق النتائج المرجوة منها ، حيث كان فرسان الاسبتارية يتوقعونها ، فأخذوا فى الاستعدادات والتحصينات ، ونظرا لرغبة البابا يوجين الرابع فى وضع حد لحروب الاسبتارية مع المماليك جعل الاسبتارية يسعون لإيجاد حل يقبله الطرفان[131] ، فلم يسع لاستيك رئيس الاسبتارية إلا في توسيط رجل على ثقة وثيقة بالسلطان جقمق وهو التاجر الفرنسي جاك كير، فقام بهذه المهمة بين الطرفين ، وأرسل جاك كير مبعوثا من قبله للسلطان جقمق وبصحبته مسئول اسبتاري إلي الإسكندرية ، وعقد الصلح بين المماليك وفرسان الاسبتارية ، تعهد فيه الاسبتاريه بعدم العدوان على السفن والمتاجر الإسلامية أو التعرض لها[132] ، ودامت العلاقات بعد ذلك بين الاسبتارية وسلاطين المماليك حتى سنة 923هـ/1517م[133] .

وأخيرا توفي السلطان جقمق سنة 857هـ/1453م عن عمر يناهز إحدى وثمانين سنة ، حكم منها أربع عشرة سنة وعشرة أشهر ويوما ، بعد أن أعلن أثناء مرضه بولاية العهد لابنه عثمان[134] .

الفصل السادس

دولة المماليك الجراكسة بعد جقمق

الملك الظاهر خشقدم

الأشرف قايتباي المحمودي والدولة العثمانية

السلطان قانصوه الغوري

الأشرف طومان بأي ونهاية دولة المماليك

العلاقات المملوكية العثمانية

الفصل السادس

دولة المماليك الجراكسة بعد جقمق

الملك المنصور أبو السعادات عثمان بن جقمق (857هـ /1453م):

بعد وفاة السلطان جقمق بويع بالسلطنة ابنه الملك المنصور أبو السعادات فخر الدين عثمان بن جقمق ، وكان سنه يوم بويع تسع عشرة سنة ، تولي الأتابكية الأمير إينال العلائي[1] .

اتصف المنصور عثمان بالقسوة والغرور والجشع مما أدي إلي سخط جميع أحزاب المماليك عليه ، فاتفقوا على خلعه وذلك بعد شهر من سلطنته ، ووافق الخليفة العباسي والتف المماليك حول الأتابكي إينال العلائي وأرغموه على أن يتولي السلطنة ، فحاصر إينال القلعة وقطع الماء والطعام عن السلطان المنصور، واستولي على القلعة ، وخلع المنصور عثمان وبعث به سجينا إلي الإسكندرية ، ثم أطلق سراحه بعد ذلك الأشرف اينال (857-865هـ) ، وكانت مدة سلطنته ثلاثة وأربعين يوما[2] .

بويع بالسلطنة بعد خلع المنصور يوم الاثنين ثامن ربيع الأول ، ولقب بالملك الأشرف ، وكان يتولي قيادة الأسطول الذي شارك فى غزو رودس ، وأصله جركسي الجنسية جلبه الخواجا علاء الدين علي فاشتراه الظاهر برقوق وأعتقه أبنه فرج من بعده ، ثم ترقي فى المناصب وتولي فى عهد برسباي إدارة بعض المدن فى الشام ، ثم جاء إلي القاهرة وفى عام 849هـ عين أتابكا للعسكر، ومن هذا المنصب قفز للسلطة[3].

ورغم شجاعة إينال فى القتال إلا أنه كان يجهل القراءة والكتابة فضلا عن عدم درايته بشئون الحكم، ولذا كان لا يصلح لمنصب السلطنة ، فعمل على إرضاء المماليك، فأغدق عليهم الأموال مما أدي إلي خلو خزانة الدولة ، وبالتالي حدث تذمر من هذه السياسة بجانب انتشار الطاعون سنة 864هـ/1460م ، وهلك بسببه ثلث المماليك والأطفال والجواري والعبيد والغرباء ، واستمر لمدة خمسة شهور[4] .

أهم الأحداث الداخلية:

ثار المماليك الجلبان أثناء فترة حكم الأشرف إينال البالغة ثمان سنوات سبع مرات ، حيث هاجموا محلات التجار ونهبوها ، ثم أمتد هجومهم إلي مخازن وشون الأفراد أنفسهم[5] ، كما دبرت ضد السلطان مؤامرة تزعمها يشبك بن مهدي ، وأشترك معه الخليفة العباسي حمزة المعتز بالله ، ولكن إينال تمكن من القضاء على الثورة وخلع الخليفة وسجنه بالإسكندرية وعين أخاه أبو المحاسن يوسف محمد المتوكل على الله ، ولقب بالمستنجد بالله[6] ، ومن أهم أعمال أينال:

المؤيد أحمد بن إينال (865هـ/1461م):

بويع بالسلطنة فى عهد أبيه ولقب بالمؤيد وكان عمره يوم بويع بالسلطنة ثمان وثلاثين سنة ، وتولي منصب أتابك العسكر الأمير خشقدم الناصري ، وعلى الرغم أن أحمد بن إينال كان حسن السيرة غير أنه لم يبق فى الحكم إلا أربعة أشهر وثلاثة أيام حيث ثار عليه المماليك الجلبان وحرضوا عليه خشقدم الأتابك حتى عزله وأرسله إلي الإسكندرية مقيدا ، ثم أطلق سراحه وعاش فى منزله عدة سنوات فاضلة ، وتولي الأتابك خشقدم السلطة بدلا منه[9] .

الملك الظاهر خشقدم(865-872هـ/1461-1467م):

تم خلع السلطان المؤيد أحمد بن إينال ومبايعة خشقدم بمعرفة الخليفة والقضاة الأربعة والأمراء ، وقد عرف خشقدم بالرومي لأنه يوناني الأصل اشتراه السلطان شيخ وارتقي تدريجيا حتى صار حاكما لدمشق فى عهد جقمق ، ثم أتابكا للعسكر ، كما عرف بالناصري نسبة إلي التاجر الذي جلبه إلي مصر وهو الخواجا ناصر الدين[10] .

ويعتبر عهد خشقدم من العهود الهادئة ، ولم يشهد عهده سوي محاولة جانم بك نائب الشام ليلي السلطة ، واستطاع خشقدم أن يخدع جانم بك حتى أعاده إلي نيابته فى هدوء ، ثم أرسل سرا فى القبض عليه وانتهي أمره بالقتل على يد مماليكه[11] ، ولكي يحتفظ خشقدم بسلطنته راح يقتل من أمراء المماليك كل من يتصور أنه يهدده فى ملكه حيث دبر مقتل صديقه جاني بك الدوادار الكبير بالقلعة ، وشتت مماليكه حين ظهر له خطرهم على سلطنته[12] .

وأيضا قتل الأمير ماني نائب جدة لمجرد أن كثرت أمواله وبرزت شخصيته وبهر الناس بكرمه ومنشآته الخيرية[13] ، وفى أواخر أيامه وقع خشقدم فريسة للمرض حيث أصيب بانزلاق البطن واستمر مرضه أربعين يوما ، وانحطت صحته إلي حد أنه كان يفقد الرشد أحيانا ، وكان موته يوم السبت العاشر من ربيع الأول 872هـ/1467م عن عمر يناهز خمسا وسبعين سنة ، وكانت مدة حكمه ست سنوات وخمسة أشهر وعشرون يوما[14] .

بلباي المؤيدي(872هـ/1467م):

بعد وفاة السلطان خشقدم ظلت القاهرة خلال الشهرين التاليين لوفاته مسرحا للدسائس بين الأحزاب المتنازعة ، وقد تولي العرش بلباي المؤيدي سنة 872هـ ، وكان متولي منصب أتابك العسكر وأطلق عليه اسم بلباي المجنون[15] ، وكان دوداره الأمير

خاير بك المتصرف فى الأمور ، عزل بلباي بعد شهرين من سلطنته ، وقبض عليه يوم السبت السابع من جمادى الأول سنة 872هـ ، وأرسل إلي سجن الإسكندرية[16] .

الظاهر تمربغا(872/1467م):

كان تمربغا متولي منصب أتابك العسكر خلال عهد بلباي المؤيدي ، ولما عزل بلباي بويع تمربغا بالسلطنة ولقب بالملك الظاهر أبو سعيد ، ولكن سلطنته لم تدم أكثر من شهرين ، حيث قبض عليه فى يوم 6رجب من سنة 872هـ[17] .

الظاهر خاير بك(872هـ/1468م) سلطان ليلة :

كان خاير بك يمهد لنفسه تولي السلطنة منذ عهد بلباي ، وتحقق حلمه بعد القبض على تمربغا وعزله ، حيث جلس على سرير الملك ولقب نفسه بالملك الظاهر ، ولكن لم يصبح الصباح حتى كان الأمير قايتباي قد أقنع الأمير بأحقيته فى السلطنة ، واستولي على القلعة وقبض على الأمير خاير بك ، وأفرج عن السلطان الأسبق تمربغا وسمح له أن يسافر إلي دمياط ، وحكم خاير بك عدة ساعات ولذا يطلق عليه سلطان ليله ، لأنه مارس مهام الحكم فى هذه الساعات فأنعم بالوظائف وتصرف تصرف السلاطين[18] .

وبداية من سلطنة أحمد بن إينال 865هـ/1461م حتى سلطنة الظاهر خاير بك سنة 873هـ/1468م الذي تولي ليلة واحدة ، نجد أن هذه الفترة تعاقب فيها سلاطين المماليك فى سرعة متناهية حيث تولي بعضهم العرش أياما وعزل ، مما يشهد على عدم الاستقرار وكثرة الاضطرابات التى أصابت الدولة المملوكية خلال تلك الفترة ، ولم تستقر الأمور والأوضاع بعد تلك الفترة القلقة إلا بقيام السلطان الأشرف قايتباي المحمودي فى منصب السلطنة سنة 873هـ / 1468م.

الأشرف قايتباي المحمودي(873-901هـ/1468-1459م):

يعتبر عهد السلطان قايتباي من العهود البارزة فى تاريخ الدولة المملوكية الثانية ليس فقط لطوله إذ بلغ 29 سنة ، وإنما لأنه أثبت فيها مهارته فى ميدان الحرب ، وخبرته بشئون الحكم وكان أكثر السلاطين الجراكسة مقدرة وشجاعة وحكمة.

الأحوال الداخلية:

تمثلت مشكلة قايتباي الداخلية فى ثورات الجلبان وتكرارها حتى جعلته يزهد فى منصب السلطنة نظرا لأنهم لم يقدروا ظروف الدولة ولم يكن لهم من هدف سوي الحصول على النفقة ، ومثال ذلك ما حدث سنة 894هـ/1489م إذ عقد قايتباي مجلسا ضم القضاة والأمراء وشكا لهم سوء تصرفات الجلبان وسوء الحالة المالية ، وتنازل عن العرش بسبب ذلك ، ولكن القضاة ما زالوا به حتى استقر الأمر ببقائه على عرشه وترضية الجلبان ، وحدث ذلك أكثر من مرة[19] .

الأشرف قايتباي والدولة العثمانية:

بدأ قايتباي عهده بصد البدو ومواجهة الأخطار الخارجية ، فاضطر أن يطلب من الدولة العثمانية أن تكف عن مساعدة الثوار من قبل الإمارات التركمانية حيث وضع حدا لهم لكي لا يكونوا أداة لتغلغل النفوذ العثماني فى أطراف دولة المماليك من ناحية الشمال.

وحدث أن محمد الفاتح العثماني - ناصر شاه سوار حتى ولي إمارة دلغار سنة 871هـ/1466م ، ثم هاجم شاه سوار بمساندة العثمانيين أطراف الدولة المملوكية ، لذلك

فقد قام قايتباي بإرسال عدة حملات ضد شاه سوار ، وذلك سنة 876هـ/1417م ونجح الأمير يشبك فى إنزال الهزيمة بشاه سوار والقبض عليه وإرساله إلي القاهرة وانتهي الأمر بقتله[20] .

وبعد أن أتم العثمانيون سيطرتهم على شبه جزيرة البلقان أخذوا يحولون نشاطهم الحربي إلي آسيا الصغرى لاستكمال سيادتهم عليها ، وجاءت نقطة البدء فى الاحتكاك بين العثمانيين والمماليك فى الإمارتين التركمانيتين قرمان ودلغادر وهما تحت الحماية المملوكية حيث تدخل محمد الفاتح فى شئونهما ، ونجح فى أن يتولى شئونهما أميران موالیان للعثمانيين ، كما رحب السلطان العثماني بالأمراء الفارين من السلطان المملوكي خشقدم[21] .

وفى عهد قايتباي ساد الود بين الدولتين إلي وفاة محمد الفاتح سنة 886هـ/1481م ، وذلك لاتفاق الطرفين على عدم التدخل فى شئون الإمارتين ، وإلى انشغال محمد الفاتح فى توسيع إمبراطوريته[22].

غير أن العلاقات بدأت تضطرب على إثر توليه بايزيد الثاني العرش بعد أبيه محمد الفاتح سنة (886-918هـ/1481-1512م) وسبب هذه الاضطرابات نزاع السلطان بايزيد مع أخيه جم الذي هرب ولجأ إلي قايتباي فأكرمه ورحب به وجهزه للسفر لأداء فريضة الحج وذلك سنة 886هـ/1481م[23] .

تدخل قايتباي فى الصلح بين جم وبايزيد ، ولما رفضا اقتراحات قايتباي ترك الأمير جم أمه وولده فى مصر ، وسار باتجاه الشام بعد أن جهزه السلطان قايتباي بالعتاد ضد بايزيد ، ولكنه فشل فى القتال مرة أخرى ضد بايزيد[24] ، وكانت مساندة قايتباي لجم سببا فى توتر العلاقات بين قايتباي وبايزيد ، ولم يغفر السلطان بايزيد لقايتباي إيواء جم وتسهيل عملية الخروج عليه من مصر لمحاربته ، هذا بجانب رفض قايتباي طلب بايزيد السماح بإصلاح بعض القنوات فى مكة ، وتهاونه فى أمر هدية مرسلة من الهند إلي السلطان العثماني بايزيد عبارة عن خنجر من الماس النفيس[25] .

لذا تجمعت لدي بايزيد عوامل جعلته يتخذ موقفا عدائيا صريحا من السلطنة المملوكية ، فانتهز فرصة تمرد علاء الدولة أمير دلغادر على قايتباي حتى أمده بالتشجيع والسلاح والجند العثماني ، فأرسل قايتباي حملة سنة 889هـ/1483 تمكنت من الانتصار على علاء الدولة وأحلافه من العثمانيين ، وعادت بعد أن حققت النصر ، وهذه أول حرب بين المماليك والعثمانيين[26] .

وعلى الرغم من انتصار قايتباي فقد حاول أن يصلح ما بينه وبين بايزيد ، فعمل على خطب وده وبعث إليه سفيرا داهية هو جاني بك الذي عرف بالمهارة الدبلوماسية ، كما أرسل إليه تقليدا من الخليفة العباسي يوليه كل ما تحت يده من بلاد فى الدولة العثمانية ، وما سيفتحه الله على يديه بعد ذلك[27] ، ولكن السلطان العثماني استقبل جاني بك أسوأ استقبال ، ورفض المصافاة وأجاب بإرسال جيش لغزو بعض البلاد المملوكية فى الأطراف ، وكان لابد من اصطدام جديد حاسم يقع بين جيوش الدولتين.

ومن هنا بدأت حملات القائد أزبك فى سنة 890هـ/1485م والتقي جيش مصري ضخم مع جيش عثماني فى أقصي الشمال فهزم الجيش العثماني هزيمة ساحقة وقتل

حوالي أربعين ألف من العثمانيين ، وقبض على قائد الجيش العثماني أحمد بك هرسك ومعه عدد كبير من الأسري العثمانيين[28] .

عاود بايزيد هجومه على الدولة المملوكية ينتقم لهزيمته وزحف بجيش ضخم ، فاستعد قايتباي بحملة كبيرة تحت قيادة أزبك ، وذلك سنة 891هـ/1486م ، وفى الثامن من رمضان من هذه السنة دارت معركة كبيرة بين عسكر المماليك وعسكر بايزيد ، انتهت أيضا بانتصار الجيش المملوكي على الجيش العثماني والأسطول العثماني انتصارا حاسما ، وعاد الأمير أزبك ومعه عدد كبير من الأسري ، وسار فى موكب نصره عدد كبير من العثمانيين الذين آثروا الدخول فى خدمة المماليك حتى نهاية العصر المملوكي وصاروا فرقة وهي المعروفة بالعثمانية[29] .

لم يكف بايزيد عن الحرب فأرسل حملة ثالثة استولت على سيس وطرسوس وغيرهما ، ونظرا لسوء الحالة الاقتصادية ، وثورات الجلبان فى مصر أظهر قايتباى ميله إلي الصلح ، وأخيرا تم الصلح سنة 897هـ/1492م وأطلق سراح الأسرى وتبودلت الهدايا والمجاملات الودية ، وهكذا فتحت صفحة جديدة من الود بين الدولتين[30] .

سياسة قايتباي الداخلية ومنشآته:

فى سنة 896هـ/1490م تفشي الطاعون فى مصر وهو الطاعون الثالث الذي حدث فى عهد قايتباي ، وفى سنة 900هـ / 1495م نشب نزاع حاد بين مماليك السلطان الجلبان وبين الأمراء وعلى رأسهم الأمير أزبك أتابك العسكر ، وفى سنة 910هـ / 1496م اعتدي الجلبان على مجلس السلطان ورموه بالنشاب وتصادف عدم وجوده مما ثقل على السلطان وأمرضه ، وتوفي قايتباي يوم الأحد السابع عشر ذي القعدة ، وكان عمره يوم وفاته ستا وثمانين سنة ، ومدة سلطنته على مصر والشام والحجاز تسعا وعشرين سنة وأربعة أشهر وأحد وعشرين يوما[31] .

عماراته ومنشآته:

السلطان قايتباي ثالث ثلاثة بالغوا فى البنيان والإنشاء والتعمير أولهم الظاهر بيبرس ، وثانيهم المنصور قلاوون ، وثالثهم الأشرف قايتباي ، حيث أنشأ قايتباي فى عهده من المباني الفاخرة أشياء كثيرة منها:

- مدرسة بثغر دمياط.
- مدرسة بثغر الإسكندرية ، والبرج العظيم بالإسكندرية وهي قلعة قايتباي مكان الفنار القديم ذلك سنة 882هـ.
- البرج الذي أنشأه بثغر رشيد ، وهو قلعة قايتباي برشيد.
- وأقام بمصر مدفن الأشرف قايتباي بالصحراء وجامع بالروضة(أثر رقم 99).
- جامع برأس الكبش ، وجامع بباب الخلق ، والسبيل ، والمكتب وجامع لطيف خارج باب القرافه.
- مسجد وحوض وسبيل بالعباسية.
- جدد قبلة الإمام الشافعي.
- أنشأ مدرسة بالخانقاه.

- جدد المسجد النبوي بعد الصاعقة التى أحرقته سنة 886هـ/1481م ، وبني مقصورة الحجرة النبوية من الحديد.
- له فى الحجاز مسجد الخيف.
- جدد عمارة قناطر أبو النجأ ، والقناطر بشبرامنت.
- جدد مقام سيدي أحمد البدوي[32].

وفى سنة 880هـ/1457م شرع الأتابكي الأمير أزبك فى تعمير المنطقة التى سميت فيها بعد بالأزبكية نسبة إليه ، حيث بني عدة قاعات جليلة ودور ومقاعد ومبيتات ، وحفر بها بركة الأزبكية ، وأجري فيها الماء من الخليج الناصري ، ثم بني حول البركة رصيفا.

واقتدي بقية الأمراء بالأمير أزبك ، فأنشئوا القصور الفاخرة والبيوت العامرة حول البركة حتى زادت عمارتها وسكنها الناس ، وأنشأ بها الأمير أزبك جامعا كبيرا وحوله الربوع والحمامات ولم يبق منها إلا حديقة الآزبكية[33] .

الناصر محمد بن قايتباي(901-904هـ/1496-1498م):

بويع بالسلطنة يوم السبت سادس عشر من ذي القعدة يوم احتضار أبيه قايتباي ولقب بالناصر وكني بأبي السعادات،وكان عمره يوم ولي السلطنة أربعة عشر سنة وعدة أشهر ، وتم تعيين الأمير قانصوه خمسمائة أتابكا للعسكر.

قام قانصوه بالفتنة المعتادة ليخلع السلطان الصبي ، واستبد بالسلطة ، وساءت تصرفات محمد ابن قايتباي ، فأثار ذلك الأمراء حتى كثرت الفتنة والقلاقل فى مصر ونيابتها الخارجية ، وتمكن تابعوه من الإطاحة بزعماء الفتنة وجمع الخليفة والقضاة الأربعة يوم الأربعاء 18 جمادى الأولى سنة 902هـ/1497م وطلب منهم خلع السلطان فأجابوه إلي ما طلب ، وبويع قانصوه بالسلطنة[34] .

قانصوه خمسمائة(902هـ/1497م):

بعد عزل الناصر محمد بن قايتباي ومبايعة قانصوه خمسمائة قام مماليك السلطان محمد المقيمون بالقلعة بمحاربة قانصوه ، وانتهت المعركة بهزيمة قانصوه وفراره هاربا نحو الشام ، ولم تزد سلطنة قانصوه عن ثلاثة أيام[35] .

محمد بن قايتباي (الثانية)904هـ:

أعاد أتباع السلطان محمد بن قايتباي منصب السلطنة إليه بعد محاربتهم قانصوه ، وطلبوا منه تغيير لقبه من الناصر إلي الأشرف ، حتى يصير الجميع أشرفية نسبة إلي الأشرف قايتباي ، ولكن محمد بن قايتباي أرتكب خلال سلطنته الثانية الكثير من الأعمال التى نفر منها الأمراء والعامة حيث استمر فى طيشه وسوء تدبيره ، وكان يخرج المسجونين ويقتلهم بيده ، وعلمه المشاعلي التوسيط وأفضي فى عبثه الدموي حتى كان يقطع أيديهم وآذانهم وألسنتهم[36] ، ووصل به الأمر أن امتنع عن مقابلة الخليفة والقضاة والأمراء عندما صعدوا إلي القلعة ليهنؤه بعيد الفطر وذلك لانهماكه فى ألعاب الطيش[37] .

واستبد به المماليك الجلبان حيث قام بتوزيعهم على الأمراء ، وقام الجلبان بالاعتداء على الناس ونهب الأسواق ، ولما تزايدت شرور السلطان محمد بن قايتباي وبدأ يصدر مراسيم جنونية بجانب تفشي الطاعون فى مصر، قرر بعض أمراء المماليك

التخلص منه، فاستمالوا الأمير قانصوه خال السلطان محمد إلي جانبهم ، فسكت عما دبروه حيث استغل المتآمرون لهوه بين جوقات المغنين فى البر الغربي للنيل وظفروا به وقتلوه ، وكان عمره يوم قتل سبعة عشر سنة حكم فيها سنتين وثلاثة أشهر وتسعة عشر يوما ، وكانت أيامه كلها فتن وشرور وحروب مستمرة[38] .

الظاهر قانصوه الأشرفي:(904-905هـ/1498-1499م):

هو جركسي الأصل اشتراه قايتباي واعتقه عندما اكتشف أنه شقيق لجاريته "أم محمد"[39] ، وكان عمره وقت توليه السلطة خمسة وعشرين سنة ، لقب بالملك الظاهر أبي سعيد ، كان صاحب الدور الأكبر فى الحركة التى أطاحت بالسلطان محمد بن قايتباي.

تمرد الأمير طومان باي الدوادار على السلطان ، وساعده جانبلاط الأتابكي فتمت لهم الغلبة على السلطان بعد أن حاصروا القلعة واختفي السلطان ونجا بنفسه من الموت ، فخلع نفسه بعد أن حكم سنة وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوما[40] .

تولي بعد الناصر محمد بن قايتباي ثلاثة سلاطين ضعاف تعاقبوا على العرش وهم السلطان قانصوه الأشرفي (904-905هـ / 1498-1499) ، الأشرف جانبلاط(905-906هـ/1499-1500م) وطومان باي الأول (906هـ/1500م) ، وتميز عهدهم بقصر مدة الحكم وكثرة الاضطرابات ، وغارات البدو ، وثورات أهل الشام ، وظلم المماليك وتعسفهم وانتهي حكم كل منهم بالعزل نتيجة ثورات المماليك ومحاصرتهم القلعة وطردهم ، ويتضح مدى الضعف الذي أصاب سلاطين المماليك الجراكسة من أن السلطان قانصوه الأشرفى هرب من القلعة فى زى أمراة ، وأسر السلطان جان بلاط وسجن ،ثم قتل ، أما السلطان طومان باى الأول تمكن منة الفرار.

السلطان قانصوه الغورى(906-922هـ/1500-1516م):

اختفى السلطان العادل طومان باى الأول بعد سلطنته التى دامت ثلاثة اشهر وعشرة أيام ، وذعرت القاهرة عند اختفاء السلطان ولم تمض أيام قليلة حتى اختار الأمراء والمماليك قانصوه الغورى وهو مملوك جركسى من مماليك قايتباى ابدى زهده فى السلطنه وتردد وتمنع حتى سيق إليها سوقا ، ولأول مرة فى تاريخ المماليك يتهرب الأمراء من هذا المنصب الذى انتهى بأصحابه فى السنوات الأخيرة إلى الذبح أو الخنق أو السجن ، وقد أستقر رأى الأمراء عليه باعتباره لين العريكة سهل الإرادة يمكن إزالته فى أي وقت ، ولكن الغورى أثبت أنه رجل قوى صلب رغم انه جاوز الستين من عمره عندما ولى منصب السلطنة.

وقد أخذ الغورى العهود والمواثيق وحلف له الأمراء وقال:**"أقبل ذلك بشرط ألا تقتلوني بل إذا أردتم خلعي ووافقتكم"**[41] .

السياسة الداخلية:

- عمل على إعادة الأمن والاستقرار وعين فى المناصب من يثق فيهم من كبار الأمراء.
- عالج الأزمة المالية بفرض ضرائب تعسفية لإعمار خزانة الدولة وجمع مكوس عشرة أشهر مقدما دفعة واحدة.
- فرض ضرائب على الطواحين والمعديات ودواب النقل ، والعقارات والحوانيت ، وخدمة القصور ، والأوقاف الخيرية.

- تلاعب فى العملة.
- أنفق الغوري هذه الأموال فى شراء المماليك ، وفى الإصلاحات العامة مثل تحصين الإسكندرية ورشيد وغيرها.
- أنشأ مسجدا ومدرسة،أمام تربتة فى الجهة الغربية.
- شيد مدفن وخانقاه على رأس تقاطع شارع الغورية.
- اهتم بطريق الحج وزوده بالآبار والاستراحات.
- نجح فى الوصول إلي مخبأ السلطان طومان باي الأول بعد هروبه وقضي عليه وعلى أنصاره[42].

الثورات الداخلية:

خروج الجازاني في مكة909 هـ:

خرج الجازاني ابن أمير مكة عن طاعة السلطان الغوري ، وشرع فى مهاجمة الحجاج والاعتداء على الرجال والنساء ونهب الأموال ، وقتل الناس ، واشتد ساعده بعد أن انضم إليه بعض قبائل العرب ، وبعد انضمام أمير ينبع إليه ، فهاجم مكة واستولى عليها فأرسل الغوري إليه حملة على رأسها الأتابكي قيت الرجبي تمكن من هزيمة الجازاني الذي فر هاربا ، وتتبعه المماليك حتى وقع فى الأسر فقتل وقطعت رأسه وأرسلت إلي مصر[43].

ثورات الجلبان916 هـ/1510م:

تمرد المماليك الجلبان سنة 916هـ ، ورشقوا المارين فى الطرقات بالحجارة وطالبوا السلطان بأن يدفع لكل واحد منهم مائة دينار ، ولكن السلطان امتنع عن إجابتهم لطلبهم ، بل وهدد بخلع نفسه ولكن هذا التهديد أحدث أثرا عكسيا حيث زادت ثورتهم ونزلوا من الطباق فى القلعة إلي الشوارع ، ونهبوا الدكاكين الكائنة فى سوق جامع بن طولون من دكاكين صليبية وغيرها حتى كانت مصر تخرب[44].

واستمر الحال على ذلك السلب والنهب حتى ملت جموع الشعب وفى اليوم الثالث من هذه الفتنة قصد المماليك دولات باي أمير السلاح وأرادوا أن يسلطنوه بدلا من الغوري ، ولكنه خزلهم ولجأ إلي الغوري بالقلعة ، وبعد ذلك قام الأمراء لينقضوا على الجلبان ، ويمسكوا بهم ولما علموا بذلك دب الفشل فى صفوفهم ، وتسللوا عائدين إلي الطباق فى القلعة ، وقدرت قيمة ما تم نهبه على يد الجلبان من الدكاكين وغيرها بعشرين ألف دينار ذهب[45].

الأحداث الخارجية:

تتمثل الأحداث الخارجية فى ذلك الوقت فى خطرين هددوا مصر فى كيانها وهما: الخطر البرتغالي من ناحية المدخل الجنوبي "البحر الأحمر" ، ثم الخطر العثماني من ناحية الشمال.

كان الخطر البرتغالي بطريق البحر الأحمر بعد أن عرف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح الذي تم لهم اكتشافه فى إبريل سنة 903هـ/1498م ، حيث توصل فاسكو

دي جاما على رأس مركب برتغالي لأول مرة من اكتشاف هذا الطريق ، دائرا بذلك حول أفريقيا وواصلا إلي الهند ، وذلك بمساعدة الملاح المسلم أحمد بن ماجد[46] .

وكان هذا الاكتشاف جسيما ويعتبر انقلابا فى التجارة العالمية ولم يلبث الشرق الإسلامي وخاصة مصر أن أحس بآثار هذا الانقلاب فى طرق التجارة ، حيث كانت دولة المماليك تفيد كثيرا من التجار عند المرور عبر مصر[47] .

وعندما استنجد أمراء المسلمين فى الهند بسلاطين المماليك فى مصر يطالبون إمدادهم بالقوات اللازمة لصد البرتغاليون ، بعد أن هاجم البرتغاليون الأساطيل التى كانت تحمل التجار والحجاج من الهند إلي البحر الأحمر ، وأوقعوا الرعب فى قلوب أهالي هذه الجهات فطلب أمراؤها وأمراء اليمن النجدة[48] .

حاول الغورى مساعدتهم فبعد الأنتهاء من إعداد الأسطول المملوكي أمر السلطان الغورى سنة911 هـ/1505م بإنزال المراكب فورا إلي البحر الأحمر ، وتولية الأمير حسين الكردي نائب قيادة الأسطول الذى كان قوامه خمسين سفينة استطاع بناءها ، وأرسل مع هذا الأسطول عددا من الصناع والبنائين لبناء سور حول ميناء جدة ، وإنشاء الأبراج اللازمة للدفاع عنها إذا ما هاجمها البرتغاليين[49] .

وما أن علم البرتغاليون بوجود الأسطول المصري فى جدة حتى هربت السفن البرتغالية نحو الجنوب ، ثم إلي ساحل الهند ، وسار الأسطول المصرى جنوبا متعقبا السفن البرتغالية إلى أن وصل ساحل الهند الغربي فالتقى بأسطول برتغالي مكون من 12سفينة فى ميناء شول choul على الشاطئ الغربي للهند ، واشتبك الأسطولان فى موقعة انتهت بهزيمة البرتغاليين[50] ، وفرار بقية السفن البرتغالية ، وأسر أحد الأغربة البرتغالية[51] .

وبعد هذا النصر اتجه الأسطول المملوكي إلى جزيرة ديو للتمويل والإصلاح وحتى ينقضي فصل الأمطار[52] ، فأنتهز البرتغاليون لجوء الأسطول المملوكي لهذه الجزيرة وفاجأوا الأسطول المصرى ومعه الأساطيل الهندية المتحالفة ، ووقعت بين الأسطولين معركة بحرية هائلة فى شهر صفر سنة 915هـ/1509م ، انتهت بهزيمة الأسطول المملوكي وأسر بعض قطعه وتحطيم البعض الأخر مما اضطر الأمير حسين الكردي إلى الانسحاب بما تبقى معه من مراكب إلى جدة[53] .

تعرض البحر الأحمر لهجوم برتغالي بعد موقعة ديو البحرية إذ فرض البرتغاليون حصار قوى لمنع السفن القادمة من الهند من دخول البحر الأحمر ، وتمكنوا من عزل موانى البحر الأحمر وبخاصة جدة وسواكن والسويس، وحاصروا عدن وحاولوا الاستيلاء عليها ، ومنعوا دخول التوابل والسلع إلى موانى البحر الأحمر[54] .

عمل الغورى على إعادة بناء الأسطول المملوكي بعد هزيمة ديو 915هـ ، فاشترى من الدولة العثمانية الأخشاب والمعدات إلا أن الاسبتارية هاجموا السفن واستولوا على هذه الموارد واطاحوا بها ، ولم يصل الإسكندرية سوى ست سفن خاوية من عدد 18 سفينة[55] .

لجأ السلطان الغورى مرة أخرى إلى السلطان بايزيد العثماني طالبا منه شراء الأخشاب والنحاس والحديد ، وطلب منه المساعدة للمحافظة على المقدسات الإسلامية ، ورفض السلطان بايزيد أخذ المال وأرسل عدة سفن محملة بالمواد اللازمة من أخشاب

ومجاديف والمكاحل والنشاب والبارود وغيرها ، ووصلت السفن إلي ساحل بولاق سنة 916هـ/1511م[56] .

وفى أثناء ذلك هاجم البرتغاليون عدن سنة 919هـ/1513م بقصد السيطرة على مدخل البحر الأحمر ، كما هاجموا سواكن ، واستولوا على جزيرة تمران من اليمن لفترة زادت عن ثلاثة شهور[57] .

نجح الغوري فى إعادة بناء الأسطول المملوكي ، وضم إليه عسكرا من الترك والمغاربة ، وعين عليه القائد حسين الكردي،ولما علم البرتغاليون بقوة هذا الأسطول انسحبوا من مياه البحر الأحمر ، فتبعهم الكردي إلي شواطئ الهند إلا أنه لم يتمكن من هزيمتهم ، وأرسل إليه الغوري نجدة أخري بقيادة سليمان العثماني(الذي أرسله بايزيد لمعاونته)[58] .

وبالرغم من ضخامة القوة البحرية المصرية إلا أنها لم تستطع إحراز النصر الحاسم ضد البرتغاليين ، وذلك بسبب القواعد القوية التي أنشأها البرتغاليون على الشاطئ الهندي ، إلا أنها نجحت فى إبعاد خطر البرتغاليين عن البحر الأحمر مؤقتا ، علاوة على استيلاء الأسطول المصري على زبيد سنة 922هـ/1516م[59] ، ثم توجه الأسطول المصري إلي عدن حيث تمكن من هزيمة أسطولا برتغاليا[60].

ونتيجة لأعمال السلب والنهب التى قام بها الأمير حسين الكردي ضد المسلمين فى عدن ، فقد وقع الخلاف بينه وبين زميله القائد العثماني سليمان ، وعاد الأسطول على أثره إلي جده[61] ، وكان قد استولى في طريقه على اليمن من بني طاهر ، وعين عليها نائبا مملوكيا هو الأمير برسباي الجركسي[62] ، وذلك لإحكام قبضته على البحر الأحمر ومنافذه.

وفى هذه الأثناء دخلت الدولة المملوكية مرحلتها الأخيرة ، حيث كانت الظروف التى مرت بها الدولة فى أواخر أيامها صعبة للغاية ، ففي الوقت الذي كان الغوري يحارب البرتغاليين لإعادة الحياة التجارية إلي البحر الأحمر ، فإذا بالعثمانيين يتحركون للاستيلاء على مصر ، فاضطر الغوري إلي الخروج على رأس جيش كبير لمواجهتهم.

قانصوه الغوري والعثمانيون:

كان الأتراك العثمانيون يعيشون فى بداية ق 7هـ/13م فى إقليم خراسان ، ونتيجة لغزو المغول اضطروا إلي الهجرة نحو الغرب حتى استقروا في أسيا الصغرى.

وقد أتاح للعثمانيين انهيار سلاجقة الروم بقونية سنة 707هـ/1307م فرصة طيبة ، فأخذوا يتوسعون بسرعة على حساب الممتلكات البيزنطية حيث استولوا على بروسه سنة 726هـ/1326م ثم استولوا على نيقية سنة 730هـ ، وعلى شبه جزيرة غاليبولي سنة 755هـ/1345م ، واستولوا على القسطنطينية سنة 857هـ/1453م وهكذا أخذت الدولة العثمانية الناشئة تتوسع على حساب الدول المجاورة لها حتى اقتربت حدودها من حدود الدولة المملوكية مما أوجد نقطة احتكاك بين الطرفين[63].

كانت العلاقات بين الدولتين تسير فى اتجاه واحد حيث كانتا تتحالفان ضد الخطر البرتغالي ، وضد غارات تيمورلنك ، وضد ملوك الصليبيين ، ثم بدأ التنافس بين الدولتين بسبب حدودهما المشتركة.

وبعد وفاة بايزيد الثاني819 هـ/1512م وولاية ابنه سليم الأول تحولت العلاقات ، حيث وضع سليم لنفسه خطط توسعية نحو الشرق ، وكان ذلك يعني الاصطدام بدولتي الفرس والمماليك ، وطمع سليم في انتزاع الأراضي المقدسة من المماليك حتى يدعم مركزه فى العالم الإسلامي ضد الشيعة الفرس(64).

بعث سليم رسالة إلى الغوري سنة 920هـ/1514م يوضح فيها نواياه ضد فارس ، فقرر الغوري إرسال جيش يرابط في حلب دون أن يتدخل في النزاع الفارسي العثماني ، ويراقب ما تسفر عنه الأحداث ، وانتهي الأمر بانتصار سليم على الصفويين في موقعة جالديران سنة 920هـ/1514م ، ثم قضي على إمارة دلفار سنة 921هـ/1515م(65) .

اندلعت نيران الحرب بين سليم الأول والشاه إسماعيل الصفوي وانتهت بهزيمة الشاه ، وكان على الغوري أن يدرك أن مصير مصر سيتقرر على نتيجة هذه المعركة وكان عليه ألا يقف موقفا سلبيا ، ولكنه كان يؤثر السلام ، وكان مستعدا للدفاع عن حدود بلاده.

أرسل السلطان سليم إلى الغوري مبعوثا يحمل له أخبار هذا الانتصار، وكان الغوري يعي معني هذا الانتصار ، ولذلك لم يأمر بدق الكوسات كما جرت العادة في هذه المناسبات حيث أدرك بفكره أن المعركة التالية ستكون في مصر(66) .

أمضي الغوري طوال سنة 921هـ/1515م وهو يجهز للحرب التى كان متوقعا بقربها بينه وبين السلطان سليم ، وساء موقف الجلبان وعدم تقديرهم للخطر الداهم للبلاد ، فأنبههم بقوله: **" لا تشمتوا العدو فينا ، وابن عثمان متحرك علينا ، ولابد من خروج تجريده له عن قريب"** ، وصرف لهم الغوري بعض الجرايات ، وخمدت تلك الفتنة قليلا ، ولكن الفتنة لم تختفي في الظاهر إلا لتظهر في الأوقات الحرجة في ساحة المعركة وفي مواجهة العدو حيث سيخذلوا سلطانهم(67) .

ولما هاجم سليم دولة التركمان التابعة لمصر ، وقتل حاكمها على دولات ، وقطع رأسه ورءوس أولاده وبعث بها إلى الغوري ، بجانب إهانته لسفراء الغوري وتعذيبهم ، صمم الغوري على أن يخرج لمواجهة سليم الأول(68) .

وفي أثناء هذه الاستعدادات للقاء العثمانيين وصلت رسالة من خايربك نائب حلب يذكر فيها أن السلطان سليم العثماني ينوي مهاجمة الشاه إسماعيل الصفوي ، والحقيقة أن خايربك كان على أتصال بالسلطان سليم ، وما أراد من هذه الرسالة إلا إضعاف همة الغوري وصرفه عن الاستعدادات القائمة ، ولكن الغوري لم يركن إلى رسالة خايربك ، وضاعف من جهوده ، وأعلن انه سوف يقود الجيش بنفسه(69)

معركة مرج دابق:

أمر الغوري عساكره بالخروج قبله إلى الريدانية ، فخرجت أطلاب المماليك من القاهرة ، وكانت خمسة عشر طلبا ، فضلا عن الفرق الإضافية التى ألحقت بالجيش من بلاد الشام ، وتلا ذلك طلب السلطان نفسه ومعه خزائنه ، والتي تجمعت في خزائن بيت المال عبر السنين ، وكانت محملة على 500 جمل فيها الذهب والفضة وآلات السلاح(70) .

وخلال إقامة الغوري بخيمته بالعباسية جاءته رسالة من خايربك تنم عن الخديعة التى دبرها سليم الأول وعميله خايربك ، حيث أوضح فيها خايربك بأن رسولا جاءه من قبل السلطان سليم الأول للتفاوض في أمر الصلح ، ومع رسالة خايربك كتاب من السلطان

سليم كله ألفاظ رفيعة: " **أنت والدي ، وأسألك الدعاء ، وأني ما زحفت على بلاد علاء الدولة إلا بأذنك ، وكان قتله عين الصواب..وجميع ما ترونه ويريده السلطان فعلناه**"[71]

استبشر الغوري بحديث الصلح ، ولم يتراجع الغوري ، وواصل سيره حتى دخل دمشق ، وفى حماة احتفي به نائبها جان بردي الغزالي ثم توجه إلى حلب فدخلها[72] .

نزلت جيوش المماليك في منازل الحلبيين فضاق بهم أهل المدينة لما ارتكبوا من أعملا السلب والنهب والمنكرات ، وفى حلب استقبل الغوري بعثة عثمانية ، وظل محافظا على هدوئه مظهرا رغبة في السلم والصلح[73] .

خلع الغوري على سفراء سليم وردهم إليه ، ومعهم كتاب يعرض فيه التوسط في الصلح بينه وبين الشاه إسماعيل الصفوي ، وأرسل كاتم سره الدوادار الأمير مغلباي ليؤكد للسلطان سليم رغبته في الصلح ، وتجنب الحرب[74] ، وكان معه عشرة من خيار العسكر، ولما دخلوا ووقفوا بين يدي السلطان سليم ، نظر إليهم مليا وامتلأ غيظا منهم ، ثم أمر برمي رقبة مغلباي لولا شفاعة بعض وزراء سليم فأمر بحبسه ورمي برقبة العشرة أمام رجاله واحدا بعد واحدا ، ثم أحضر مغلباي من حبسه وحلق ذقنه وألبسه طرطور ، وركبه على حمار أعرج معقور ، وقال له: **"قل لأستاذك يجتهد جهده ، وها أنا حضرت إليه كالبرق الخاطف ، والرعد القاصف**[75] **، وقل لأستاذك يلاقينا على مرج دابق"**[76] .

ولما رجع مغلباي للغوري على هذه الصورة صعب ذلك عليه وصمم على قتال السلطان سليم ، ثم أمر الغوري بأن يخرج العسكر من مدينة حلب ويتهيئوا للقتال بعد أن حلفهم جميعا على ألا يخونوه ، ولا يغدروا به بعد أن علم أن العثمانيين قد تحركوا فعلا ، ووصلت أوائل جيوشهم إلى عنتاب ، واستولت على ملطيه وكركر وغيرهما من القلاع[77] ، وحلف الغوري أمراءه للمرة الثانية ، ولم يطق الأمير سيباي نائب الشام أن يرى خايريك والمعركة توشك أن تدور رحاها ، فقبض على خايربك نائب حلب وجره من طوقه بين يدي السلطان الغوري ، وقال: "يا مولانا السلطان ، إذا أردت أن الله تنتصر على عدوك فاقتل هذا الخائن"[78] ، فقام الأمير جان بردي الغزالي نائب حماة ، وقال: **" يا مولانا السلطان لا تفتن العسكر ، وتبدأ في قتال بعضهم بعضا ، وتذهب أخباركم إلى عدوكم ، ويزداد طمعه فيكم ، وتضعف شوكتكم والرأي لكم"** ، فأصغي الغوري لهذا الرأي ، وترك خايريك حرا طليقا ليتمم دوره في الخيانة[79] .

نادي الغوري في عسكره بالرحيل قبيل أن يلحق السلطان بجيشه ، وبعث برسالة إلى طومان باي نائب الغيبة في مصر يوصية بالرعية ، وفى جمادى الثانية 922هـ/أغسطس 1516م تلاقي الجيشان المملوكي والعثماني في المكان الذي حدده السلطان لهذا اللقاء وهو مرج دابق وهي إحدى قري بلده عزاز بمحافظة حلب بسوريا- والمرج ، وهو الموضع الذي ترعي فيه الدواير(وذلك عندما قال المغلباني رسول الغوري قل لأستاذك يلاقينا على مرج دابق)[80] .

وأخذ الغوري يرتب صفوف جيشه بنفسه ويلقي أوامره ، وتقدمت الجيوش العثمانية ، وكان الغوري على أتم استعداده وبدأ المعركة بهجوم خاطف على العثمانيين زلزل أقدامهم وأنزل بهم خسارة فادحة حتى فكر سليم الأول في التقهقر ، وطلب الأمان لكي يعيد ترتيب صفوفه ، ويقال أنه قتل في هذه الهجمة السريعة نحو 20ألف من الجنود العثمانيين[81] ، وردوا على المماليك كالبحر إذا سال بعرض الوادي ، فتراجع الجميع ،

وأطلقوا المدافع والبندقيات ، وحملوا على الجراكسة والعربان والمشاه ، وكان المدفع يقضي على خمسين أو ستين أو مائة نفس ، فصارت ساحة المعركة كالمجزرة، فتقهقر المماليك ، ورجع خايربك والغزالي مع من انهزم من المماليك ونادوا بأعلى أصواتهم "الفرار الفرار فإن السلطان سليم أحاط بكم وقتل الغوري والكسره علينا" ، واتجه نحو حلب وتبعه الجلبان وتشت العساكر ، وظنوا أن الغوري قتل كما قال خايربك ، وإنما كان ذلك بغضا ومكيدة في الغوري الذي كان واقفا مكانه وحوله بعض الجلبان القريبين منه[82] .

لما علم الغوري بما جري لعسكره من التشتيت صار ينادي **"يا أغوات الشجاعة صبرا ساعة "** ، فلم يلتفت إليه أحد منهم لبغضهم سلطانهم ، ومازال الغوري على ذلك حتى بقي وحده ، ومن شده ما حصل انكسر قهرا ، ووقع على الأرض مغشيا عليه"[83].

لجأت فلول المماليك الهاربة إلى حلب حيث أنتقم منهم الحلبيون لما ارتكبوه في حقهم من قبل ، وطردوهم فخرجوا إلى دمشق ، ثم خرجوا إلى مصر ، وتعرضوا خلال الطريق لأذى العربان وكان دخولهم القاهرة في رمضان سنة 922هـ/أكتوبر1516م[84] .

وبات السلطان في مرج دابق ، ثم أصبح وأمر أن تعد القتلى من الفريقين فوجدوا أن الذي قتل من الجراكسة ألف نفس ، وأكثرهم من المدافع والبندقيات ، والذي قتل من عسكر الروم أربعة آلاف[85] .

هذه واقعة مرج دابق الفاصلة في أمر السلطة المملوكية ، وأمر استقلال مصر، وقام نائب الغيبة - طومان باي - بما ينبغي عليه ولما تيقن من مقتل الغوري ، أمر بالدعوة على المنابر باسم الخليفة المتوكل.

وبعد انقضاء عهد الغوري بمقتله في مرج دابق سنة 922هـ/1516م ، فإننا نري أنه كان من أعظم سلاطين المماليك الجراكسة ، الذين حكموا مصر وحسبه وهو الشيخ الذي أشرف على الثمانين من عمره أنه خرج على رأس جيشه.

كما أنه أرسل أسطولا بحريا لقتال البرتغاليين ، وأبلي هذا الأسطول بلاء حسنا وقد ثبت الغوري في المعركة أعظم ثبات ، وكان من الممكن له أن يحقق النصر لولا الخيانة في صفوف جنده ، وقد ظل في المعركة حتى قتل ولم يفر وينجو بنفسه ، ثم يعيش في ظل الذل والهوان ، وقد عالج الكثير من الأمور في دولته ، وأنشأ الكثير من المنشآت المعمارية ، وكان السبب الأساسي في تدهور البلاد في عهده هو تحول التجارة إلى رأس الرجاء الصالح وأنقطاع سلع المشرقعن أسواق مصر والشام.

السلطان الأشرف طومان باي(922-923هـ/1516-1517م):

حين تحقق طومان باي من مقتل السلطان قانصوه الغوري أمر بالدعوة على المنابر باسم الخليفة المتوكل ، وقبض على بعض التجار في خان الخليلى ، وثبت لديه أنهم كاتبوا السلطان سليم بما جري في مصر ، وكانوا وكرا لجواسيس العثمانيين[86] .

واستقر أمراء المماليك في القاهرة على سلطنة طومان باي حيث كان الغوري قد خلفه وراؤه نائبا عنه في حكم البلاد أثناء غيابه فاختير سلطانا سنة 922هـ/1516م ، وتلقب بالأشرف وهو آخر السلاطين المماليك في مصر والشام[87]

كان طومان باي يعرف ما أصاب أخلاق المماليك في تلك الفترة من تدهور وفساد،فلم يقبل السلطنة إلا بعد أن أحضر مصحفا شريفا وحلف الأمراء بأنهم إذا سلطنوه لا يخونونه ولا يغدرونه ولا يخامرون عليه ويرضون بقوله وفعله[88] .

كان طومان باي محبا للعوام لين الجانب قليل الأذى غير متكبر مع العامة ، أما مع خصومه فكان قوى الشكيمة لا يلين في الوقت الذي زاد فيه حبه للعدل والانصاف ، وتميز بشجاعته الخارقة وإقدامه وذكائه وحيويته[89] .

أخذ طومان باي يستعد لحرب العثمانيين ، وكانت خططه تقضي بلقاء الأعداء بالشام قبل وصولهم إلى الحدود المصرية ، وذلك بعد أن أرسل سليم الأول خطابا له شديد اللهجة يأمره فيه بأن يعلن خضوعه له ، ويضرب السكة باسمه ، ويخطب له في صلاة الجمعة ، ولكن طومان باي رفض ذلك[90] .

أرسل طومان باي حملة بقيادة جان بردي الغزالي الذي عينه نائبا للشام في سنة 922هـ/ ديسمبر1516م ، ولكنه عندما وصل إلى غزة كان العثمانيون قد استولوا عليها ، فعرض الغزالي عنها واتجه شمالا حتى يثبت دوره في الخيانة[91] .

موقعة الريدانية 923هـ/1517م:

استقر رأي طومان باي على الخروج بنفسه إلى الريدانية لملاقاة الجيوش العثمانية ، وكان قد أعد خطا حصينا عندها ، ووضع في القاهرة أنواع من الأسلحة المختلفة ، كما نجح في استثارة حماس أفراد الشعب ليحاربوا إلى جوار المماليك ، ولكن هذا كله كان بغير جدوى حيث لعبت الخيانة مرة أخري دورها ، فالأعراب وبعض أمراء المماليك قد دلوا الجيش العثماني على طرق أخرى وصلتهم إلى القاهرة بغير حاجة للمرور على هذه الخطوط المحصنة التى أقامها طومان باي[92] ، هذا في الوقت الذي دأب فيه خاير بك الخائن على تسهيل مهمة العثمانيين ، فواصل إرسال الكتب إلى أمراء مصر يرغبهم في الدخول تحت طاعة ابن عثمان ، ويبالغ لهم في محاسنه وعدله في الرعية[93] .

أراد طومان باي ملاقاة العثمانيين في صحراء مصر الشرقية وهم في طريقهم إلى القاهرة متعبون من مشقة الطريق ، ولكن أمراء المماليك رفضوا الأخذ برأيه اعتقادا منهم أن خنادقهم في الريدانية ستعصمهم من الهزيمة ، فاضطر طومان باي إلى اتخاذ تلك البقعة مركزا للدفاع ضد الغزو العثماني للبلاد ، ولكن العثمانيين الذين وصلوا عن طريق الشرقية في 23 يناير1517م حاولوا دخول القاهرة وتحاشوا الاصطدام بالمماليك[94] ، فاضطر طومان باي إلى اللحاق بهم ودارت معركة رهيبة تفوق معركة مرج دابق من حيث الشدة ، وأبلي فيها طومان باي بلاء منقطع النظير ، واستطاع أن يذبح الصدر الأعظم سنان باشا كبير وزراء السلطان سليم[95] ، ولكن مدافع العثمانيين وبنادق الرصاص كانت لها الغلبة في نهاية المطاف ، ولم يكن هناك مناص من هزيمة الريدانية لأن الخائن جان بردي الغزالي اتصل بالخائن خاير بك وأعلمه بخطة السلطان طومان باي الدفاعية ، وهذا مما جعل العثمانيين يتجنبون في زحفهم المرور بالتحصينات التي أقيمت بالريدانية[96] .

وفي اليوم الثاني لموقعة الريدانية دخل السلطان سليم الأول القاهرة من باب النصر ، وكان موكبه حافلا ، وكان يسير أمامه في موكبه الخليفة والقضاة الأربعة[97]

أما طومان باي الذي فر من الريدانية فإنه لم يلق السلاح وإنما استمر يقاوم ، وهاجم السلطان سليم الأول داخل معسكره الذي أقامه على ساحل بولاق[98] ، وكان قد اتخذ من مسجد شيخو مركز العمليات الحربية غير أن الجراكسة تقاعدوا عن القتال ، وصاروا يختفون في الزوايا ، وتمكن العثمانيين من القاهرة ، وأحرقوا بعض أجزاء مسجد شيخو[99] ، فاضطرا طومان باي إلى الفرار إلى البهنسا ، حيث استطاع أن يؤلف قوة جديدة أخافت السلطان سليم الأول مما جعله يشرع في اتفاق مع طومان باي.

المفاوضات بين طومان باي وسليم الأول:

أرسل طومان باي إلى سليم الأول قاضي البهنسا يعرض عليه أن يكون نائبا عنه في حكم مصر ، ويجعل الخطبة والسكة باسمه ويجعل له خراج حسبما يقع الاتفاق عليه ، بشرط أن يرحل سليم وجنوده عن مصر إلى الصالحية ، قال له: **"وإن كنت ما ترضي بذلك أخرج ولاقيني في الجيزة ويعطي الله النصر لمن يشاء..وما أنا بعاجز عن قتالك ولكن الصلح أصلح لصون دماء المسلمين"**[100].

وافق سليم على الصلح بحسب شروط طومان باي ، وكتب صورة معاهدة إليه ووقع عليها ، على أن يقوم الخليفة المتوكل والقضاة بحملها إلى طومان باي ، وخرج الوفد ومعه مندوب عثماني ، على أنه حدث عند وصول الوفد إلى البهنسا أن هاجمه بعض الجراكسة وقتلوا المندوب العثماني[101].

حنق سليم الأول من ذلك وتحقق أن طومان باي لا يريد إلا الحرب ، ودارت اشتباكات بين طومان باي وبين العثمانيين بالقرب من الجيزة ، ثم تقهقر طومان باي والتقي الجيشان قرب وردان حيث نشبت معركة حامية استمرت يومين انتهت هذه المعركة بهزيمة المماليك وانتصار العثمانيين ، وهرب طومان باي لثالث مرة[102].

لم ييأس طومان باي رغم هذه الهزائم المتكررة ، وظل يرسم الخطط لمواصلة المقاومة ، وكان آخر ما هداه إليه تفكيره أن يلجأ إلى شيخ العرب حسن بن مرعي زعيم قبائل البحيرة وابن عمه شكري ، وكان يرتبط معه برباط الأخوة والصداقة[103].

رحب آل مرعي بقدوم السلطان ، وركن السلطان إلى ولائهم وأحضر لهم مصحفا وحلفهم على ألا يخوناه ولا يغدران به ولا يدلسان عليه بشيء من الأشياء ولا لسبب من الأسباب ولا يدلان عليه ، وحلفا له على المصحف سبع مرات فطاب قلبه واستقر عندهم[104].

ولكن حسن بن مرعي نسي ما كان لطومان باي من فضل عليه فتنكر له وأرسل سرا إلى السلطان العثماني سليم الأول يعلمه بوجود طومان باي عنده ، ويذكر ابن زنبل أنه حدثت مجادلة بين ابن مرعي وأمه في أمر الخيانة ، وحذرته أمه من هذا العمل ، وأخذت تذكره بفضل السلطان طومان باي عليه ، فلم يصغ لنصيحتها بل طمع في المكافأة وشجعه شكري بن عمه[105].

القبض على طومان باي:

أرسل السلطان سليم الأول بفرقة من جيشه بلغت أربعمائة جندي قبضت على طومان باي ، وقيدته في الحديد وعادت به ولما علم أنصار طومان باي نبأ القبض عليه تشتتوا في البلاد[106] ، ودخل طومان باي على سليم الأول وهو في زي عرب الهوارة ،

فقام السلطان سليم ، وأخذ يتأمله معجبا بشجاعته وفروسيته ، ثم عاتبه واتهمه بقتل رسله الذين أرسلهم لمفاوضته في الصلح ، ولكن طومان باي نفي التهمة عنه ، وظل محتفظا بشجاعته وهيبته ووقاره[107] ، وقال أنه لم يفعل غير ما أملاه عليه الواجب وان الله تعالي أمر بالدفاع عن النفس ورد المعتدين وقاله له :**" أن الأنفس التي ترتب في العز لا تقبل الذل ، وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب؟ ، لا أنتم أفرس منا ولا أشجع منا وليس في عسكرك من يقايسني في حومة الميدان"**[108] .

لم يسع سليم الأول إزاء قوة الحجة وسلامة المنطق إلا أنه عبر عن إعجابه بقوله لمن حوله **"والله مثل هذا الرجل لا يقتل ، ولكن أخروه في الترسيم- الحجر- حتى ننظر في أمره"**[109] ، فأخذه إياس أغا وذهب به إلى خيمته وأجلسه بها ، وأخذ السلطان سليم الأول يتكلم مع الحاضرين في شأنه ، وشاع بين الناس عند ذلك أن السلطان سليم سوف يبقي على طومان باي ، ويأخذه معه إلى القسطنطينية أو يرسله منفيا إلى مكة مدة حياته[110].

شنق طومان باي:

غير أن خايربك وجان بردي الغزالي قد اضطربا أمرهما وأخذا يدبران الأمر لتحريض السلطان سليم على قتله بحجة أنه لا بقاء لملكة ما دام طومان على قيد الحياة ووافق سليم على إعدام طومان باي وأخرج طومان باي من سجنه يوم الاثنين 11 ربيع الأول سنة 923هـ الموافق 23 إبريل 1517م ، وجاءوا بالبغلة وأركبوه عليها وقيدوه من تحت البغلة ، وحوله حرس عدته 400 جندي حتى وصلوا إلى بولاق ومنها إلى باب زويلة ، وظل طومان باي سائرا وسط حراسه رافع الرأس ، وهو يسلم على الناس طول الطريق حتى إذا وصل إلى باب زويلة ، وأرخى لة المشاعلى حبل المشنقة ، وهنا دعا السلطان طومان باى الملأ الذي اجتمع حولة أن يقرأ له الفاتحة ثلاث مرات وبسط يده وقرأ الفاتحة على نفسه في صوت مسموع ثم التفت إلى المشاعلى ، وقال له: **" أعمل شغلك"** ، فشنق[111] ، ثم أنزلوه وساروا به في نعش إلى قبة السلطان الغوري ، وغسلوه وكفنوه وصلوا علية هناك ودفنوه في الحوش الذي خلف مدرسة عمه السلطان الغوري[112].

وبشنق طومان باي كان ذلك فصل الختام بالنسبة للدولة المملوكية التى تحملت عبء التصدي للمغول والصليبيين ، وفقدت مصر استقلالها وسيادتها وتخلت عن دورها كقوة إسلامية صاعدة جديدة وصارت ولاية عثمانية وعليها خايربك الخائن واليا من قبل السلطان سليم الأول ، بل صارت له إقطاعا طول حياته وذلك بعد أن تولاها يونس باشا العثماني ، ومن ثم صفا الجو للسلطان سليم الأول الذي خرب مصر وأفقرها ماليا وعسكريا وحضاريا[113].

وبعد ذلك يجب أن نوضح أسباب سقوط دولة المماليك ، نجد أن ذلك يتضح فيما يلي:

1- النزاع الأبدي بين الجديد والقديم ، يتمثل الجديد في الدولة العثمانية ونظمها الجديدة بجانب أساليب الحرب والمعدات والقديم المتمثل في المماليك رغم ما عرفوا به من الشجاعة والفروسية الخارقة.
2- استخدام العثمانيين البنادق واعتمادهم عليها بصفة أساسية.

3- استقرار النظم الداخلية عند العثمانيين من حيث ولاية العرش والمحافظة على اتباع نظام الولاية ، وذلك على عكس ما صارت عليه الأمور في دولة المماليك وخاصة في الفترة الأخيرة.
4- كراهية الرعايا لسلاطينهم من المماليك وخاصة العرب.
5- سوء تدبير الغوري في أمر النفقة والشحه فيها.
6- الخيانات التي وقعت في صفوف المماليك كان لها أثر كبير في تعجيل سقوط دولة المماليك وعلى رأس الخونة خاير بك وجان بريدي الغزالي.
7- خيانة جانم السيفي كاشف الفيوم الذي تخلي عن طومان باي بعد واقعة الريدانية وانضمامه إلى سليم الأول.
8- خيانة ابن مرعي التي عجلت بنهاية الدولة وقطعت مشوار النضال المملوكي.

الفصل السابع

نظم الحكم والإدارة

- السلطان .
- نائب السلطان .
- الوزير .
- ولاية الإقليم .
- الدواوين .
- القضاة .
- الحبسه .

- أصحاب الشرطة .

الفصل السابع
نظم الحكم والإدارة

تأثرت النظم الإدارية في مصر والشام خلال العصرين الأيوبي والمملوكي بعدة عوامل منها الأساس التاريخي الذي قامت عليه الدولة الأيوبية ، وورثته الدولة المملوكية وهذا الأساس ينحصر في الدولة النورية ، حيث عرف أبناء الأسرة الأيوبية النظم الإدارية في عاصمتها حلب ودمشق ، وهي تحمل معها تأثيرات مهمة من النظم والرسوم السلجوقية في كافة المجلات الإدارية كنظم ورسوم السلاطين ، وأسلوب الإدارة ، أو الشئون القضائية الممثلة في تولى قضاة سنيين أمر القضاء فى البلاد أو الشئون العسكرية.

كما تأثرت النظم الإدارية الأيوبية بالنظم الإدارية الفاطمية التي شغل أبناء البيت الأيوبي معظم وظائفها العسكرية والمدنية في المرحلة الأخيرة من أيامها بمصر.

وأفادت الدولة الأيوبية ومن بعدها الدولة المملوكية من الخلافة العباسية لما لها من أثر روحي في هيكل الدولة الإداري والذي كان يمثل قائمته السلطان وساعده في إدارة البلاد جهاز مكون من نائب السلطنة ، والوزير والولاة وبعض الأفراد والجنود وغيرهم.

السلطان [1] :

لقد تغير النظام السياسي لمصر بانتهاء الخلافة الفاطمية ، حيث ورث الأيوبيون ومن بعدهم المماليك حكم البلاد وذلك في الفترة من سنة 567-923هـ/1171-1517م) ، وفي هذه الفترة شهدت البلاد حكم العديد من السلاطين الأيوبيين والمماليك بداية من السلطان الأيوبي صلاح الدين وانتهاء بالسلطان المملوكي الأشرف طومان باي آخر سلاطين المماليك.

اتخذ السلاطين من القلعة - قلعة الجبل - مقراً لحكمهم ، ومركزاً لإدارة شئون البلاد وهذه القلعة بنيت على جزء مرتفع من جبل المقطم من الحجر الأسود والأصفر الذي أتي به من أهرامات مصر الصغيرة أو نحت من الصخور ، وقد أحيطت بسور وخندق وأبراج وكان لها عدة أبواب ، وكانت تشمل على ما كان يشتمل عليه أي بلاط إسلامي باذخ حيث حوت عدة قصور بنيت في عهد سلاطين مختلفين(2) ، ومنها دور خاصة بالحريم ومساكن المماليك السلطانية وأمرائهم ونسائهم وأولادهم ، وبها حوانيت وأسواق وميادين وملاعب ، وإصطبلات ، وبها مخازن ، ومساجد ، وحمامات ، ومدارس ، وسجون(3).

وكان صلاح الدين قد بدأ في بناء القلعة سنة 572هـ/1176م للأسباب الآتية:

1- تعفف صلاح الدين عن السكن في قصور الفاطميين لعلمه بما كان يجري فيها من لهو وفساد أدي في النهاية إلى تفكك الدولة الفاطمية وانهيارها.
2- تخوف صلاح الدين من الاغتيال على أيدي الشيعة أنصار الفاطميين .
3- أراد أن يحصن القاهرة ضد أي غزو خارجي متوقع من الصليبيين أو من سيده نور الدين محمود.
4- كان الغرض الأساسي من بنائها أن تكون مقراً له ولجنده وتخزين العتاد والتدريب على القتال(4).

وكان تسلم السلطان لمنصبه خلال العصر الأيوبي يستتبعه مرسوم من الخليفة العباسي الذي يخلع على السلطان(5) ، كما كان جميع الأمراء يقومون بأداء القسم على الولاء والطاعة للسلطان ، ويحلفون له على المصاحف بأن لا يخونوا ولا يغدروا ولا يثبوا عليه ، وبعد ذلك يصافح السلطان الخليفة ، بعد أن يمنحه التشاريف ، ويمنحها لرجال الدولة(6) ، وقد يخرج الأمراء ورجال الدولة وعلى رأسهم السلطان في موكب حيث يحمل تقليد السلطان في كيس من الحرير الأسود يوضع على رأس الوزير ، وتكون القاهرة قد زينت ، وكذا يمد السماط السلطاني للأمراء بعد ذلك(7) ، وترسل المكاتبات بالبشارة بتولية السلطان إلى جميع جهات الدولة.

وعمل السلطان هو الحرب ، فهي وظيفته الأولي التى لا نجدها للخلفاء الفاطميين الذين كانوا لا يذهبون إلى الحرب وإنما يولون قواداً من قبلهم ، ولكن سلاطين الأيوبيين والمماليك كانوا يذهبون على رأس الجيوش للحرب أو لقمع الثورات والفتن ، هذا بجانب دوره المهم في السياسة الداخلية ، فموظفوا الدولة مسئولون أمامه ، وكان ينظر في أمور الدين ، وحفظ بيت المال ، وتوزيع الإقطاعيات في موضعها السليم ، وزيادة العطاء للعلماء والفقراء والنظر في المظالم ، واستقبال الوفود الخارجية(8).

وكان للسلطان القائم ألقاب عديدة أهمها لقب سلطان ، وهو لقب يعني صاحب السلطة العليا ، وقد اتخذه سلاطين الأيوبيين ومن بعدهم المماليك فيسمي السلطان أو سلطان جميع بلاد الإسلام ، أو سلطان الإسلام والمسلمين(9) ، أو غير ذلك مثل لقب "ملك"(10) ، وهو لقب يعني صاحب السلطة العليا.

وقد أتي هذا الاسم لبعض السلاطين وإن أتي بعد لقب سلطان بسبب أن اسم سلطان أعم وأشمل ، فيسمي السلطان الملك - مثل لقب صلاح الدين باسم الملك الناصر صلاح الدين ، أو الملك الكامل ، أو الملك الصالح نجم الدين أيوب ، أو الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وغيرها من ألقاب السلاطين(11).

كما اتخذ كل سلطان لقباً خاصاً لا يلقب به سواه ، ومن ذلك لقب الناصر الذي لقب به صلاح الدين ، والعزيز الذي تلقب به ابنه عثمان(12) ، ويذكر القلقشندى أن كل لقب تلقب به الأيوبيون يعد لقباً ملوكياً لا يطلق إلا على صاحبه(13) ، وكان لسلاطين المماليك ألقاب درج عليها الحكام منها: المظفر، الظاهر ، الأشرف ، القاهر ، المنصور ، وكانت الألقاب السلطانية تنقش مع اسمه على العملة والمنسوجات التي تهدى كخلع لكبار الأمراء والموظفين لتصبح مميزة عن غيرها من الطراز(14).

كما اتخذ السلاطين الأيوبيون ومن بعدهم سلاطين المماليك ألقاباً تشتمل على كلمة الدين مثل: نجم الدين ، سيف الدين ، ركن الدين ، حسام الدين ، هذا بجانب الألقاب الدينية الأخرى مثل خادم الحرمين الشريفين ، نصير أمير المؤمنين ، قسيم أمير المؤمنين ، ناصر الملة المحمدية ، خادم المساجد الثلاثة(15).

وكان للسلطان توقيعات خاصة على كافة المناشير(16) الصادرة عنه ، وقد اعتبر ذلك علامة تميز السلطان عن غيره ، وهو ما عرف باسم الرنوك(17)

وساعد السلطان في شئون الحكم والإدارة عدد من كبار الموظفين هم: نائب السلطنة ، كاتب السر ، الخاصكية ، الاستدار، الجاشنكير، الحاجب ، المهتار، الجميدار،

أمير آخور ، الجوكاندار ، أمير شكار ، الباز دار ، وغيرهم وفيما يلي توضيح عن مهام كل منهم:

كاتب السر: كانت مهمته التوقيع على المكاتبات السلطانية والاطلاع على أسرار السلطان ، وتوضيح الأمور له لكثرة مشاغله وأعماله ، وكان يساعده في عمله بعض الكتاب الذين يقومون بكتابة رسائل السلطان أو نائبه.(18)

الأستدار:(19) بضم الهمزة لقب مملوكي يطلق على القائم على الشئون الخاصة للسلطان ، والأستادارية وظيفة موضوعها التحدث في أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خانة ، والحاشية والغلمان ، ويمشى صاحبها بطلب السلطان ، ويحكم فى غلمانه وباب داره ، وله حديث مطلق وتصرف تام فى استدعاء ما يحتاجه كل بيت السلطان من النفقات والكسوة وما يجري ذلك للمماليك وغيرهم(20).

الجاشنكير:(21) كانت مهمته تذوق الطعام قبل أن يتناوله السلطان خشية أن يدس له السم فيه ، وكان يشرف على الولائم والأسمطة وكان رنكة عبارة عن صورة مائدة صغيرة "خونجا لتدل على وظيفته"(22)

الحاجب: ووظيفته أن يحجب السلطان عن الرعية ، وينظم عملية الدخول على السلطان فلا يدخل إليه إلا من يريد السلطان رؤيته في مجلسه أو موكبه ، وعلت مكانته في بعض الأحيان حتى صار يلي النيابة ، وكانت مهمته أن يمسك بعصا ويسير أمام الموكب ، وأحيانا كان ينظر في المظالم(23).

شاد الشربخاناه: وهو المختص بإدارة شئون بيوت الشراب وما تحويه من أنواع الشراب ، وفيها على الخصوص الثلج الذي يجلب من الشام إلى مصر بالطريق البحري في مراكب كانت ثلاثاً إلى عهد بيبرس ثم صارت إحدى عشر مركباً ، وكان الثلج يخزن في صهاريج ، هذا بجانب إشرافه على أدوات الشراب النفيسة من أنواع الصيني الفاخر ، والكيزان ، وطاسات نحاسية ، بجانب أنواع الأشربة والحلوى والسكر والفاكهة والعطريات ، وحتى الأدوية والعقاقير(24).

وساعد شاد الشربخاناه في عمله المهتار(25) ، منه مهتار الفرشخانه الذي يشرف على بيوت الفرش من البسط والخيام وغيرها ويعاونه الفراشون(26) ، ومهتار الطشت خانة الذي يختص بالإشراف على الطشت خانة التى كانت تشمل أنواع الطسوت التي يستخدمها السلطان في غسل يديه أو تستخدم لغسل ملابسه(27).

السلحدار: وكان يشرف على السلاحخانه ، ونظراً لأهميته كان يلقبه السلطان بالأخ ، وكانت السلاح خاناه تحوي جميع أنواع الأسلحة الثقيلة والخفيفة ، وأيضاً الأسلحة التي تستخدم في حفلات السلطان من ركوب وجلوس ، وتكون عامة مطعمة بالذهب والفضة والجوهر(28).

مهتار الطشتخاناه: وهو الذي كان يشرف على الطشت خانه ، والتي سميت بيت الطشت خلال العصر الأيوبي(29) ، وكانت تحوي أدوات غسل الملابس الخاصة بالسلطان والساكنين في القلعة ، وفيها يوجد كل ما يتعلق بالحمامات ، وكانت هناك طسوت خاصة بغسل يديه أو غسل ملابسه(30).

الركابدار: الذي يشرف على الركبخاناه ، حيث يوجد فيها ما يتعلق من معدات ركوب الخيل من السروج والأكوار - وهي مقاعد الهجن والقرابيس - وهي الخشبة الصغيرة في مقدمة السرج وخلفه ، واللجم - وهو ما يكون في فك الفرس..وكذلك السيور ، والمخاطم - وهي الجلاجل التي تكون في مقدمة الخيل - والركاب ، والمهماز هو آلة من حديد تكون في رجل الراكب فوق كعبه تركب على الخف ، والكنابيش وهي البراذع أو ما يوجد أسفل السرج ، والمخالي وهي أكياس توضع فيها رأس الخيل(31).

الباشمقدار: وهو حامل نعل السلطان.

الجمدار: وهو الذي كان مكلفا بإلباس السلطان.

الساقي: الذي كان يتولى سقاية السلطان وتقديم الأشربة له(32).

المهمندار: وهو متولي استقبال ضيوف السلطان القادمين من خارج مصر ، أو من خارج القاهرة ، وكان يقوم بعمل قائمة عن كل ما يتعلق بالضيوف ، فيكتب تاريخ وصولهم ومكانهم ، وما كانوا يقدمونه من هدايا(33).

الدوادار: والمقصود به حامل الدواة للسلطان ، وكان عمله تبليغ أوامر السلطان إلى من يريد بالحضور ، ويحمل إليه البريد ، وكان رنكة المقلمة(34).

أميرآخور: كان يقوم على خدمة الإصطبلات السلطانية ، ويكلف برعاية الخيول ويساعده مجموعة من الغلمان.

الجو كاندار: وهو الذي يحمل المحجن والعصا للسلطان التي يلعب بها الكرة ، ورنكه عصوان.

الكلابزية: وهم الذين يهتمون بكلاب الصيد.

أمير شكار: وهو المشرف على بيت الطيور وخاصة التي تستخدم في الصيد.

البازدار: وهو الذي يحمل طيور الصيد من الجوارح ، وخاصة الباز.

البندقدار: وهو الذي يحمل جراوة البندق الذي يرمي به في الصيد ، وهو الرصاص أو الطين أو الحجر(35).

هذا عن رسوم السلطان وبعض مساعديه ، وكان على السلطان أن يكون قوياً لتبقي السلطة الزمنية في يديه ، فهو غالباً لم يكن يستقل برأيه في الأمور بل كان حوله جماعة من كبار الأمراء يسمون بأرباب المشورة ، بجانب العلماء والقضاة.

وهكذا يمكن القول بأن السلطان خلال العصريين الأيوبي والمملوكي هو كل شئ في تنظيم الدولة ، ولم يمنع بعض كبار الأمراء ، وخاصة خلال العصر المملوكي من الذين تولوا الوظائف الكبرى في البلاط أو الجيش وخاصة منصب أتابك العسكر من التحكم بنفوذهم في السلطان وذلك إذا كان السلطان صغير السن - وفي هذه الحالة كانت سلطته تذهب إلى نهايتها.

وهناك بعض الاختلافات الجوهرية فيما يتعلق بالسلطان خلال العصر الأيوبي ، وأيضاً خلال عصر المماليك منها:

- كان السلطان خلال العصر الأيوبي من أبناء البيت الأيوبي ، ينسب إلى الأيوبيين ، أما خلال العصر المملوكي فلا بد أن يكون واحداً من المماليك فيتساوى معهم في ظروف النشأة والتربية والتقاليد ، وكان سائر المماليك ينظرون إلى السلطان باعتباره مملوكاً منهم ، لا يميزه عنهم سوي توليه ذلك المنصب ، ولذا كثرت المنافسات والثورات خلال العصر المملوكي.
- كان السلطان في العصر المملوكي أميراً من الأمراء ، وزعيماً مكنته قوة شخصيته وكثرة مماليكه من التفوق على زملائه والوصول إلى منصب السلطنة ، وبذلك يكون صاحب الحق في الهيمنة على بقية الأمراء ومماليكهم.
- اتبع الأيوبيين نظام الوراثة في تولية السلاطين ، وانحصر النزاع في البيت الأيوبي ، أما المماليك فلم يهتموا بهذا النظام الوراثي ، فكانت السلطة للأقوى ، وإن كانت السلطنة المملوكية انحصرت أحياناً في بعض البيوت المملوكية مثل بيت بيبرس ، وقلاوون.

نائب السلطنة:

النيابة(36) لقب يطلق على من ينوب عن شخص آخر أعلي منه سواء في أعماله كلها أو في عمل من أعماله بمعني أن النائب أصبح يعني في المقام الأول القائم مقام السلطان في عامة أموره أو غالبها(37).

وكان نائب السلطان يلي السلطان مباشرة في المرتبة ، حيث كان ينوب عن السلطان في معظم الأمور ، ويسمي "الكفيل" لأنه يقوم بكفالة السلطان كما أطلق عليه أيضاً نائب الحضرة حيث كان ينوب عن السلطان في حضرته(38).

ولم يكن منصب نائب السلطنة موجوداً قبل العصرين الأيوبي والمملوكي ، بل عرفته البلاد منذ عهد السلطان صلاح الدين الذي اتخذ له نواباً لكثرة غيابه عن البلاد بسبب خروجه للجهاد ، وسار على نهجه كافة السلاطين الأيوبيين ومن بعدهم السلاطين المماليك(39).

وقد منح السلطان صلاح الدين لنواب السلطنة إقطاعات كثيرة ، مثل الملك العادل أخو السلطان صلاح الدين الذى تولي نيابة السلطنة بمصر أثناء خروج السلطان صلاح الدين للجهاد ، وفى عهد الملك العزيز عثمان عيّن أخاه الملك المؤيد مسعود نائباً عنه في سلطنة القاهرة حينما توجه إلى بلاد الشام لحسم الصراع مع أخيه الملك الأفضل سنة 589هـ/1193م(40).

وفى سنة 625هـ/1227م عندما خرج السلطان الكامل لتأديب الملك الناصر الذي رفض تسليم الشوبك له ، جعل ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب نائباً عنه بالديار المصرية وأنزله بدار الوزارة وأشرك معه الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ، ليقوم بالإشراف على تحصيل الأموال وتدبير أمور البلاد ، ولكن فخر الدين خاف على نفسه من صرامة الصالح نجم الدين أيوب فمضي إلى خدمة الملك الكامل(41).

وفي سنة 629هـ/1231م خرج الملك الكامل من مصر لصد المغول استجابة لنداء الخليفة العباسي المستنصر ، واستناب على مصر ابنه العادل الثاني واصطحب معه ابنه الصالح وجعله على رأس الجيش الذي وجهه إلى المغول(42).

وبعدما آلت السلطنة إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب في سنة 638هـ/1240م ولي نيابة السلطنة عنه في القاهرة الأمير جمال الدين بن يغمور ، ثم عزله الصالح وعندما

سافر إلى دمشق سنة 644هـ/1246م استناب حسام الدين ابن على الهذباني بمصر وفوض إليه أمور المملكة كلها ، وأنزله دار الوزارة ، وظل نائباً عن السلطان حتى سنة 645هـ/1247م بسبب وجوده في بلاد الشام(43).

وبعد وفاة الصالح نجم الدين أيوب تولي السلطنة ابنه تورانشاه الذي استناب في سنة 648هـ/1250م الأمير جمال الدين أقوش النجمي في القاهرة أثناء غيابه في الشام ، وكان هذا الأمير آخر من تولي نيابة الغيبة بالقاهرة خلال العصر الأيوبي(44).

وقد جعل الصالح نجم الدين أيوب سنة 638هـ/1240م من وظيفة نائب السلطنة منصباً دائماً ، وتبعه في ذلك السلاطين الذين جعلوا منصب نائب السلطنة يحتل المركز الثانى بعد السلطان أيضاً أو صار نائب السلطنة في وظيفته يلي السلطان مباشرة في المرتبة ويتمتع بكل ما يتمتع به الوزير من قبل ، الأمر الذى أدى إلى إضعاف مكانة الوزير بعد أن طغى نائب السلطنة عليه واستحوذ على ما كان له من سلطان(45).

ومع هذا فمن الواضح أن منصب نائب السلطنة ظل طوال العصر الأيوبي منصباً مؤقتاً بمعنى أن النائب كان يحل محل السلطان في حالة غيابه فقط عن البلاد وسرعان ما ينتهى دوره بعودة السلطان إليها(46).

ولذا يمكن القول أن وظيفة نائب السلطة خلال العصر الأيوبي كانت تنقسم إلى ثلاثة أنواع رئيسية:

- نيابة السلطنة بالولايات.
- نيابة السلطنة بالغيبة
- نيابة السلطنة بحضرة السلطان بالقاهرة.(47)

مثال للنوع الأول - نيابة السلطنة بالولايات - ما حدث سنة577 هـ/1181م نائب صلاح الدين الأيوبي بالشام وهو ابن أخيه المعروف باسم فرخشاه(48) ، وكان على نواب السلطنة في الولايات تنفيذ أوامر السلطان وإعلان الطاعة والولاء له ، وإذا خالف أحدهم أوامره تعرض للعقاب الشديد والعزل من الولاية(49) ، وكان السبب الأول في عزل النائب عن ولايته هو الخروج على السلطان.

وفيما يتعلق بالنوع الثانى من النيابة خلال العصر الأيوبى وهو نيابة السلطنة بالغيبة بالقاهرة ، التى استخدمها السلطان صلاح الدين الأيوبي أثناء غيابه عن السلطنة بسبب الحرب أو الزيارة وغيرها ، فقد يعهد بها إلى نائب يحل محله في حالة غيابه عن البلاد وينتهي دوره دائماً بعودة السلطان إلى البلاد.(50)

وأما عن مهام نائب الغيبة فهي تتمثل فى الآتى:

1- الخروج وقيادة العساكر بناء على طلب السلطان في أثناء وجوده خارج البلاد.
2- الدفاع عن البلاد وقيادة الجيوش وإعدادها أثناء غياب السلطان من تلقاء نفسه.
3- أن يقوم بتجهيز الإمدادات وإرسالها مع المؤنة بناء على طلب السلطان.
4- القيام باستقبال السلطان بعد عودته من السفر.(51)

أما النوع الثالث من النيابة ونعنى به نائب الحضرة ، فنجد أن هذا المنصب لم يكن موجوداً من قبل ، إلا بعد أن تولى الصالح نجم الدين أيوب السلطنة وجعل من هذا المنصب منصباً دائماً كذلك في سنة 645هـ/1247م عندما عهد به إلى الأمير حسام الدين بن على الهذبانى ، وكان يلى السلطان في المرتبة ، ويتمتع بكل ما يتمتع به الوزير(52) لدرجة أنه

كان بمثابة سلطان مختصر ، يشترك في توزيع الإقطاعات ، والترشيح للمناصب ، وتعيين الموظفين ، ومن حقه توقيع المراسم والمنشورات ، وتنفيذ القوانين ، والركوب في المواكب ، كما كان ديوان الجيش يجتمع برئاسته ، ويكاتبه نواب الشام ، ويتقدم الناس إليه بشكاياتهم ، وكانت بعض القرارات تصدر باسمه ، وكانت دار الوزارة بالقاهرة مقراً لنائب الحضرة ، كما كانت مقراً لنائب الغيبة.(53)

هذا وقد ورثت دولة المماليك(648-923هـ/1250 -1517م) كثيراً من النظم من الدولة الأيوبية ومن بينها وظيفة نائب السلطنة ، وكان منصب نائب السلطنة من أرقى مناصب الدولة ، لأن نائب السلطنة كان أكثر الأمراء نفوذاً وأكثرهم اختصاصاً بل هو السلطان الثاني.(54)

وقد شهد العصر المملوكي أكثر من نوع من النيابة ، هي:

- النيابة العظمى وهى نائب السلطان في حضرته بالقاهرة.
- نيابة الإسكندرية.
- نيابتي الوجهين القبلي والبحري.
- نيابة الغيبة.

وهناك أمثلة كثيرة لنواب السلطنة خلال العصر المملوكي ، منها الأمير أيدكين البندقدار أول نائب غيبة خلال عصر المماليك البحرية ، حيث استنابه السلطان المعز أيبك في سنة 648هـ/1250م عند خروجه للقاء الملك الناصر صاحب حلب ومحاربته ودفعه عن مصر.(55)

وخلال عهد المنصور على بن المعز أيبك (648-655هـ/1250-1257م) تولى منصب نائب السلطنة الأمير قطز(56) ، وخلال سلطنة الملك المظفر سيف الدين قطز تولى منصب نائب السلطنة الأمير عز الدين أيدمر بن عبد الله الحلبى(57) ، وتولى منصب نيابة السلطنة خلال فترة حكم الظاهر بيبرس الأمير بيلبك بن عبد الله الظاهرى الخازندار في الفترة من سنة 658-659هـ ، ثم الأمير بيلبك بن عبد الله الظاهرى للمرة الثانية(1268-1277م)(58) ، وبعد وفاته تولى الأمير آق سنقر بن عبد الله النجمي(676-1266م) وعزل فى نفس السنة.(59)

نيابة الغيبة

كانت مهمة نائب الغيبة إخماد الثورات وخلاص الحقوق ، ولا يعبر عنه بالكافل وحكمه في رسم الكتابة إليه رسم مثله من الأمراء أي حكمه في الكتابة كحكم نائب الحضرة في المكاتبة إليه .(60)

وهذا النائب يقوم بعمل السلطان فقط إذا غاب عن البلاد وإذا لم يوجد نائب السلطنة "نائب الحضرة" فيكون لقبه "نائب الغيبة" وهو أقل درجة ومقاماً من نائب الحضرة بالقاهرة.(61)

وكان السلطان عند خروجه من البلاد ورحيله عنها يكتب لنائب الغيبة "تذكرة" يذكر فيها تفاصيل ما يوكل إليه من أمور أثناء غيابه ، وكانت تتضمن الآتي:

- أن يتشدد في تنفيذ أحكام الشرع الشريف.
- أن يعمل على نشر الحق والعدل والإنصاف.
- أن يوفر الحراسة والحماية للقاهرة بأن يأمر ألا يمشي أحد في ضواحيها ليلاً.

- أن يضاعف الحراسة على السجون ليلاً ، وأن يرتب جماعة من الخفراء للطواف حول المدينة ، والتأكد من إغلاق أبواب الدروب وغيرها.
- وكان على نائب الغيبة أن يشرف على خليج القاهرة وإعادة حفره ، وأن يهتم بجسور ضواحي القاهرة ، وأن يتفقد القناطر والترع ويصل ما تهدم فيها.
- أن يتصل بولاة الأقاليم ويحثهم على ضرورة الحفاظ على الأمن ، واستخلاص الحقوق الديوانية وأموال الخراج من جهتها.
- ضرورة الحفاظ على الثغور.
- الاهتمام بمصالح الحضور والغائبين في ميادين القتال.(62).

نيابة الولايات:

شملت هذه النيابة نيابة الإسكندرية ، ونيابتي الوجهين القبلي والبحري.

نيابة الإسكندرية:

كان يتولى أمر الإسكندرية في عصر المماليك البحرية ولاة من أمراء الطبلخانة، وقد حظي ثغر الإسكندرية بعناية ورعاية سلاطين المماليك الذين قاموا بتزويده بالقلاع والحصون ، حتى صار أهم ثغور مصر وأعظم مركز تجاري في العالم الإسلامي(63).

وخلال عهد السلطان شعبان(764-778هـ/1362-1376م) هاجم بطرس لوزنيان الإسكندرية سنة 767هـ/1365م ، وبعدها أحس السلطان الأشرف شعبان بضرورة تحصين المدينة والعناية بشئونها ، فعمد بتحويلها من ولاية إلى نيابة وأصبح هذا النائب يختار من بين أمراء المئين بعد أن كان يتولى أمرها من قبل ولاة من أمراء الطبلخانة(64) ، وكان أول نائب عليها الأمير بكتمر بن عبد الله صفي الدين سنة 767هـ/1365م ، وكان آخر من تولى نيابة الإسكندرية الأمير تنم السيفي مغلباي سنة 922هـ/1516م(65).

نيابة الوجه القبلي:

عرفت النيابة في الوجه القبلي أيام الظاهر برقوق ، وقبل ذلك كان يشرف عليه موظف كبير يعرف باسم الكاشف ويطلق عليه والي الولاة ويمتد نفوذه على جميع أقاليم الصعيد من الجيزة إلى جنادل النيل ، ثم عيّن على الوجه القبلي نائباً كما هو الحال بالنسبة للإسكندرية(66) ، وكان أول من استقر نائباً بالوجه القبلي هو الأمير شرف الدين موسى بن قرمان وذلك سنة 780هـ/1378م وذلك في عهد الملك المنصور على بن الأشرف شعبان(67).

وكان نائب الوجه القبلي يتم اختياره من بين أمراء المئين ، وهو في رتبة مقدم العسكر بغزة ، وفى رتبة نائب الوجه البحري ، بل أعظم خطراً منه ، وكان مقر نيابته مدينة أسيوط(68).

نيابة الوجه البحري:

كان الوجه البحري أوائل عصر المماليك يحتوي على 22 إقليماً خارج القاهرة والإسكندرية ، وكان يشرف عليه مجموعة من الولاة ، وأما نيابة الوجه البحري ، فلم تعرف إلا خلال عهد الظاهر برقوق ، حيث لم يكن به نائب ، وإنما كان يشرف عليه "كاشف" كما هو الحال فى الوجه القبلي ويطلق عليه اسم " والي الولاة " ويتمتع بنفوذ كبير على الأقاليم التابعة له ، وكانت سلطته تمتد إلى جميع أقاليم الدلتا عدا نيابة الإسكندرية(69).

ويشير المقريزي أن نيابة الوجه البحري وجدت منذ عصر المماليك البحرية ، حيث استقر الأمير بكتمر سنة 782هـ/1380م نائباً بالوجه البحري بعد أن خلع عليه الملك المنصور على بن الأشرف شعبان بنيابة السلطنة ، وبذلك أصبح أول من ولي في نيابة سلطنة الوجه البحري وهذا يعني أن نيابة الوجه القبلي أسبق من نيابة الوجه البحري في الظهور بسنتين(70) ، وكان من أمراء المئين ومقر نيابته مدينة دمنهور ، أو بلبيس من الشرقية(71).

الوزير:

تمثل الوزارة قسماً أساسياً من أقسام السلطة التنفيذية خلال العصرين الأيوبي والمملوكي ، وقد ورد لفظ الوزير في القرآن الكريم وذلك في قوله تعالي ﴿ **وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي ۞ هَارُونَ أَخِي ۞ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۞ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي** ﴾(72).

واختلف في أصل كلمة الوزارة فالبعض ذكر أن أصل الكلمة فهلوي مأخوذ من فيشيراً ومعناه الأمر والتقرير ، وقيل أن أصلها عربي واختلف في اشتقاقها حيث ذكرت على أنها اشتقت من ثلاثة أوجه هي:

1- **أنها مأخوذة من الوَزِر**: بمعني الحمل الثقيل ، لأنه يحمل عن الملك أثقاله.
2- **أو من الوَزَر:** وهي الملجأ لأن الملك يلجأ إلى رأيه ومعونته ، لأن عليه مدار السياسة وإليه تفوض الأمور ، وهي من قوله تعالي: ﴿ **كَلَّا لا وَزَرَ** ﴾(73)أي لا ملجأ.
3- **أو من الأزر:** وهو الظهر ، لأن الملك يتقوى بوزيره كقوة الجسم بالظهر(74).

وقد استعان الأيوبيون والمماليك وغيرهم من دول الإسلام بالوزير على اختلاف بينهم في مدي الصلاحيات الممنوحة له منهم ، وقد راعي السلاطين عند اختيار وزرائهم بعض الخصال التي يجب أن تتوفر فيهم ، فيجب أن يكون الوزير عنده تيقظ ودين وورع وعفة ورزانة وحلم ورأي أصيل ، وأن الرأي لا يصلح إلا بثلاثة أشياء: دراية بالأمور ، وبصير بالسياسة ، وفكر في العواقب ، ويستحب أن يكون الوزير ناصحاً مشفقاً مؤتمناً ، ومن الله خائفاً ، فإذا كملت له هذه الخصال تقبل مشورته ويستمع قوله ولا يخالف أمره(75).

ويجب أن يكون الوزير مقدماً في صناعته عارفاً بالحساب ، خبيراً بآداب الرياسة وقواعد الملك ، وآداب السلاطين ، عارفاً بأحوال الرعية ، والأعمال ضابطا للأموال ، حسن الخط ، وأن يتميز بالذكاء والفطنة والتيقظ والحزم والحلم والوقار ، والأمانة والصدق ، والشهامة والعفة ، وأن يكون عزيز النفس كبير الهمة(76) ، وهذه الخصال المحمودة لم تجتمع لأحد من الوزراء وكان التفاوت فيها واضحاً بين وزير وآخر.

أما عن أنواع الوزارة فكانت تنقسم إلى نوعين:

الأول وزارة تفويض : وهي أن يستوزر السلطان من يفوض إليه تدبير الأمور برأيه وإمضاءها على اجتهاده ، ولا يستشير الوزير فيها السلطان ، أي أن السلطان لا يملك ولا يحكم(77).

الثاني وزارة تنفيذ : وهي أن الوزير ينفذ أمر السلطان الذي يشرف على جميع تصرفاته ، ولا ينفذ الوزير شيئاً إلا بعد مشورة السلطان(78).

والفرق بين التفويض والتنفيذ يتمثل في الآتي:-

1- أنه يجوز لوزير التفويض مباشرة الحكم والنظر في المظالم وليس ذلك لوزير التنفيذ.
2- أنه يجوز لوزير التفويض أن يستبد بتقليد الولاة ، وليس ذلك لوزير التنفيذ.
3- أنه لوزير التفويض أن ينفرد بتسيير الجيوش وتدبير الحرب.

4- أن وزير التفويض له حق التصرف في أموال بيت المال بقبض ما يستحقه له ويدفع ما يجب منه ، وليس ذلك لوزير التنفيذ(79).

وكان مستقر الوزير خلال العصرين الأيوبي والمملوكي بالقاهرة قلعة الجبل بقاعة تعرف بقاعة الوزير ، ولقد خصصت لممارسة أعمال الوزارة ، والواقع أن منصب الوزير ظل فردياً ، وكان الوزير يحتل المرتبة الثانية من حيث الوظيفة بعد السلطان ، ولكن خلال العصر المملوكي كانت سلطة نائب السلطنة تغطي على منصب الوزير في كثير من الأحيان(80).

وكان يقام لتعيين الوزير حفل كبير يقرأ فيه التقليد للمنصب الذي يكتب في ديوان الإنشاء ، وكان التقليد يتضمن بعض النصائح والأوامر ، وترسل الأخبار إلى جميع الأقاليم بتولية الوزير ، ويصرف له لباس رسمي يشمل الدراعة وقميصاً ومبطنة وخفا وهو المعروف بخلعة الوزير(81).

كما يصرف له مرتب وتوابل ولحم وكسوة ، واختلف راتبه على مر العصور أو اختلاف الأشخاص(82) ، وكان للوزير مواكب تتفق ومكانته ، وقد اتخذ الوزراء لهم عدداً من الحجاب الموظفين من أجل معاونتهم في أداء أعمالهم هذا بجانب أعداد من الخدم والفراشين(83).

أما عن مهام الوزير:

فقد اختلفت المهام من عهد لآخر ، ومن سلطان لسلطان ، ومن الوظائف التى كان الوزير يقوم بها سواء كان وزير تنفيذ أم وزير تفويض ، الإشراف علي دواوين الدولة ، فكان العمل اليومي له شاقاً مجهداً ، حيث كان من مهامه أن يغدو إليه الكتّاب فيوافقهم على الأعمال ويسلم إلى كل منهم ما يتعلق بديوانه ، أو يوجهه بما يريد وصايته به ، ثم يروحون إليه بما يعطونه من أعمالهم فيوافقهم عليه ، وإذا خف العمل نهض من مجلسه وانصرف الجماعة بعد قيامه ، ويذهب الوزير إلى السلطان في أيام معينة من كل أسبوع للمثول بين يدي السلطان وإطلاعه على شئون الدولة وتلقي الأوامر منه(84).

ولذا كان الوزير يلقب بالرئيس ، وكان ينظر في الأحوال التي ترفع للسلطان وبيت المال كالمكوس وغيرها ، والوزير هو الملجأ أي أن السلطان يرجع إليه في أمور الناس خاصة الصراعات الداخلية ، وكيفية تصدي السلطان لخصومه ومنافسيه(85) وكان يشرف على القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ولحفظ البلاغة ، وأيضا جعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها(86).

وهذه الوظائف التي أسندت إلى الوزير كانت تتفاوت بين وزير وآخر تبعاً لطبيعة شخصية الوزير من جهة وطبيعة شخصية السلطان من جهة أخرى ، وكذلك طبيعة العلاقة بين السلطان والقوي الأخرى في المجتمع ، وكان نفوذ الوزير ومكانته لدي السلطان ترجع في المقام الأول إلى شخصيته وكفاءته ، وكذلك علاقته بالسلطان حيث كان لاستبداد بعض السلاطين خلال العصر المملوكي الذي اتسم بكثرة تغير السلطان في فترة وجيزة أثره في عدم استقرار الوزير وكذلك تغيره أيضاً ، ويلاحظ فى ذلك أن بعض الوزراء لم يمكث في منصبه أشهراً أو شهراً ، بل أياماً قليلة مما أدي إلى عدم كفاءته(87).

وممن تولى منصب الوزارة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي الأمير الطواشي ، والأمير بهاء الدين قراقوش "الطائر الأسود" حيث توليا الوزارة للسلطان صلاح الدين

الأيوبي ، وقد استمر قراقوش في الوزارة خلال عهد الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين (589-595هـ/1193/1198م) حيث توفي سنة 596هـ/1199م(88).

وتولي الوزارة صفي الدين بن شكر الدميري خلال عهد السلطان العادل الأول وعهد ابنه السلطان الكامل(89) ، وفى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب تولي الوزارة الصاحب معين الدين بن شيخ الشيوخ صدر الدين علي(90) وكان كفاءة عالية وقدرة فائقة في تدبير أمور الدولة(91) ، وبعد وفاة الوزير معين الدين تولي الشيخ عز الدين عبد السلام الوزارة فكان خير من تولاها بما عرف عنه من حسن المعاملة وتقوي الله ومراعاته في كل شئ(92).

وتولي الوزارة خلال عهد السلطان المظفر سيف الدين قطز الوزير زين الدين يعقوب بن الزبير ، وذلك سنة 658هـ/1259م ، وخلال عهد السلطان قلاوون تولي الوزارة علم الدين سنجر الشجاعي ، وقام الأشرف خليل(689-693هـ/1290-1293م) بعزله وعيّن بدلا منه أميراً من أمرائه هو شمس الدين محمد ابن السلعوس الذي زاد نفوذه في الدولة بعد أن ألقي إليه السلطان مقاليد أمورها ، وجعل من اختصاصه الإشراف على شئون الأمراء(93) ، وخلال سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الأولي (693هـ/1293م) كان الأمير علم الدين سنجر متوليا الوزارة(94) ، وخلال فترة حكم السلطان العادل كتبغا(694-696هـ/1294-1296م) تولي الوزارة الأمير الصاحب فخر الدين الخليل ، وتولي الوزارة الأمير طومان باي خلال عهد الظاهر قانصوه الأشرفي(904-905هـ/1498-1500م)(95). وتولى الغورى الوزارة خلال عهد السلطان العادل طومان باى (906هـ / 1501م) (96)

وفي سلطنة الأشرف قانصوه الغوري(906-922هـ/1501-1516م) لم يلي الوزارة أحد من الأمراء بل أسند الوزارة إلي نفسه(97) ، وهذه بعض أمثلة للوزارة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي:-

ولاة الأقاليم:

كانت البلاد منذ قيام الدولة الأيوبية مقسمة إلى أربع ولايات وهي:

1. **ولاية قوص**: وصاحبها أكبر الولاة وبيده حكم الصعيد الأعلى ، وربما أضيف إليه إقليم الأشمونية أي بني سويف الحالية.
2. **ولاية الشرقية**: وكانت تشمل محافظة الشرقية ، والدقهلية ، والقليوبية.
3. **ولاية الغربية**: وكانت تشمل محافظات الغربية ، والمنوفية ، وكفر الشيخ حالياً.
4. **ولاية الإسكندرية**:وتضم الإسكندرية ومحافظة البحيرة الحالية.(98)

واحتوت هذه الولايات الأربع على ثلاثة وعشرين إقليماً انقسم كل منها إلى قري وكفور ونواحي ، وقد استمر هذا التقسيم الإداري حتى عصر الملك الكامل الأيوبي (635-637هـ/1237-1239م) الذي رأي إعادة النظر في التقسيم الإداري فقسمت البلاد إلى قسمين إداريين بدلا من أربعة أقسام هما:

- **القسم الأول**: ويشمل الوجه القبلي على أن تكون مصر ـ الفسطاط ـ عاصمة إدارية له.
- **القسم الثاني**:الوجه البحري وتكون القاهرة عاصمة إدارية له.

ويكون هذان القسمان بيد حاكم إقليمي إداري يشرف على جميع أجزاء إقليمه فاصبح بجوار الكامل إداريان كبيران أحدهما بالقاهرة والآخر بالفسطاط(99).

أما خلال العصر المملوكي فكان الوجه البحري مقسماً إلى اثنين وعشرين إقليماً هي : الإسكندرية ، البحيرة ، فوة والمزاحمتين ، رشيد ، النستراوية ، الطمريسية الدنجوية ، دمياط،الأبونية ، الفاقوسية ، الشرقية ، المرتاحية ، الدقهلية السمنودية ، السخاوية ، السنهورية ، حوف رمسيس ، جزيرة بني نصر ، الطندتاوية جزيرة قويسنا المنوفيتان ، القليوبية(100) ، ثم أصبح عدد هذه الأقاليم بعد الروك الناصري سنة (715هـ/1315م) كالآتي:

خواص مصر ، القليوبية ، الشرقية ، الدقهلية ، المرتاحية ، دمياط ، الغربية ، المنوفية البحيرة ، الإسكندرية ، قطيا(101).

وكان يشرف على أقاليم مصر مجموعة من الولاة موزعين كالآتي:

- والي الغربية ومقر حكمه المحلة الكبرى ، والي القليوبية ومقره قليوب.
- والي الشرقية ومقره بلبيس ، والي الدقهلية والمرتاحية ومقره أشمون.
- والي المنوفية ومقره منوف ، والي دمياط ومقره دمياط.
- والي البحيرة ومقره دمنهور.
- والي قطيا ومقره قطيا الواقعة بمنطقة الحدود بين شبه جزيرة طور سيناء وفلسطين ، وكان يشرف على البحر أحياناً نائب سلطنة(102).

أما الوجه القلبي فقد وردت أقسامه خلال العصر المملوكي على النحو التالي الجيزة ـ الفيومية ـ الأشمونين ـ الأخميمية ـ الاطفيحية ـ البهنساوية ـ الأسيوطية ـ القوصية(103) ، وفي سنة (715هـ/1315م) مسحت أرض مصر في عهد الناصر محمد بن قلاوون "الروك الناصري" وصار إقليم أسوان مستقلاً بنفسه لا حكم لوالي قوص عليه بعد أن كان تابعاً لعمل قوص.(104)

وكان ولاة الوجه القبلي كالتالي:

- والي البهنساوية ومقره البهنسا ـ والي الأشمونيين والطحاوية ومقره الأشمونيين.
- والي القوصية والأخميمة ومقره قوص.
- والي الاطفيحية ومقره أطفيح.
- والي الفيومية ومقره الفيوم(105).

كان والي قوص أعلي ولاة الوجه القبلي مكانة ، حتى أنه كان يركب بالشبابة السلطانية في المواكب أسوة بنواب السلطان ، بل كان يفوق والي الغربية وهي أعظم ولايات الوجه البحري مكانة ، ولم يكن في أسيوط والٍ ولكنها ما لبثت أن أصبحت مقراً لنائب الوجه القبلي ، وقد عيّن والٍ لثغر عيذاب أحد ثغور مصر الواقعة على البحر الأحمر وذلك خلال عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون(106).

هذا وقد بقيت التعابير الجغرافية لمصر كما هي: الوجه البحري أو أسفل الأرض ، الوجه القبلي أو أعلي الأرض.

- يضم الوجه البحري ثلاثة أقسام هي: بطن الريف في الوسط ، الحوف الشرقي شرقي الدلتا ، الحوف الغربي غرب الدلتا.

- ويضم الوجه القبلي قسمين: هما الصعيد الأعلى وهو من أسوان إلى أخميم والصعيد الأدنى ويمتد إلى الفسطاط(107).
- وهؤلاء الولاة يخضعون للسلطة الزمنية للسلطان وجميعهم من أمراء المماليك ويعين الواحد منهم بمرسوم ، ومن مهام الولاة في أقاليمهم ومدنهم الآتي:

- حماية أمن المدن والقرى الخاضعة لولاياتهم وذلك من خلال التصدي للجناة واللصوص والمجرمين ، بجانب تأمين أبواب المدن.
- كما كان عليه تنفيذ الأوامر الصادرة له من السلطان بشأن الأحداث التي قد تحدث في إقليمه ، مثل إخماد بعض الفتن والثورات ، أو تنفيذ الأوامر الصادرة بشأن أهل الذمة ، أو ملاحقة المجرمين من قطاع الطرق والأشخاص الذين صدرت ضدهم أحكام وضرورة القبض عليهم.
- وكان من مهام الولاة في ولاياتهم الإشراف على شئون العمارة في ولاياتهم وخاصة الحربية.
- وعليهم تنفيذ أوامر السلطان بالخروج للجهاد وإعداد الجيوش اللازمة لذلك.
- الإشراف على شئون الري من حفر الترع وتطهيرها ، وصيانة الجسور ، وجباية الخراج(108).

وكان الوالي يتم اختياره من أمراء الطبلخانات ، وقد أطلق عليهم هذا الاسم لأنه كان لهم الحق في دق الطبول وغيرها من الآلات الموسيقية لهم في المواكب الرسمية ، أو حين التوجه لأمر مهم ، وكان تشريفاً لهم(109).

وكان هناك منصب الكاشف الذي جرت العادة على تسميته "والي الولاة" حيث كان هناك للوجه البحري كاشف وآخر للوجه القبلي ، ويتمتع الكاشف بنفوذ كبير على الأقاليم التابعة له(110).

الدواوين:

ضم الجهاز الإداري لمصر خلال العصرين الأيوبي والمملوكي بجانب السلطان ونائب السلطنة والوزير وولاة الأقاليم عددا من الدواوين التي شملت مجموعة من الموظفين لإدارة شئون الدولة الحربية والمالية وغيرها فضلاً عن أعداد من المكاتبات والرد على الرسائل وإرسال التعليمات والرغبات وغيرها ، وساعد على ذلك أن الأيوبيين ومن بعدهم المماليك حافظوا على استقلال مصر بل ظلت خلال تلك الفترة قلب الدولة الإسلامية ، ومن هذه الدواوين الآتي :

ديوان النظر :

يسمى صاحبه **"ناظر الدواوين"** حيث كان يشرف على الشئون المالية في الدولة من حيث الإيرادات والمصروفات ، فقد كان يقوم بنفس الدور الذي يقوم به بيت المال أي أنه كان يشرف على جميع الشئون المالية(111).

وكان يساعد رئيس ديوان النظر مجموعة من الموظفين منهم:

متولي الديوان : الذي كانت علاقته وطيدة برئيس الديوان(112).

ومستوفي الديوان: وكانت مهمته مطالبة مستخدمي الديوان بجباية أموالهم ورفع حساباتهم والإشارة على متولي الديوان بما يجب استخراجه من أموال في الأوقات المقررة لتحصيلها(113).

وكان يساعد المستوفي موظف يطلق عليه **"المعين" و"الناسخ"** الذي كان يسند إليه نسخ كتابات الديوان الصادرة والواردة إليه كما أنه كان مسئولاً عن سجلات الديوان وما تحويه من بيانات وحسابات وغيرها(114).

ومن موظفي ديوان النظر **"العامل"** الذي كان يقوم بعمل الحسابات الخاصة بالديوان ورفعها إلى مستخدمي الديوان بعد توقيعها بخط يده(115) وذلك خلال العصر الأيوبي ، أما خلال العصر المملوكي فكلف العامل بنظم وإعداد الحسابات(116).

والماسح: وهو كاتب بالديوان كان يشرف على مسح الأراضي مع القصاب وعمل إحصاء بتلك المساحات وتقديمه للديوان ، وخلال العصر المملوكي اختلف عمله بعض الشيء حيث كان يتصدى لمسح الأراضي الزراعية ، وكان يقوم بدور القصاب الأيوبي وقام أيضا بعمل المكلفات(117).

ومن موظفي ديوان النظر أيضا **" الشاهد"** وهو غير مكلف بعمل الحسابات ولكنه مكلف بالتوقيع عليها ويشهد بمتعلقات الديوان نفياً وإثباتاً(118).

المشارف: وكانت مهمته الإشراف على المتحصل والختم عليه وعمل جميع الحسابات إذا توفي العامل والتوقيع عليها(119).

والصيرفي: وهو من كتاب الأموال كان اختصاصه تحصيل الأموال وصرفها ، وكان يقوم بعمله الجهبذ خلال العصر الأيوبي(120).

ومن موظفي ديوان النظر " **الحايز"** الذي كان يشرف على أجران الغلال ويضبطها ويمنع المزارعين من التصرف فيها(121) ، وأيضا النائب ، والأمين ، والدليل والخازن ، والحاشر ، والضامن(122).

- **النائب:** هو كاتب يتبع صاحب الديوان،ويطالب بالحسابات والإجابة عن الرسائل.
- **الأمين:** وهو كاتب يساعد الشاهد وينوب عنه في غيابه.
- **الدليل:** وهو مكلف برفع القوانين والسجلات عن المساحة ، ويميز أنواع الأراضي وأسماء مزارعيها.
- **الخازن:** مكلف بقبض وتخزين الغلال وإخراجها وقت الطلب.
- **الحاشر:** أحد الكتاب المكلفين بإحضار أهل الذمة.
- **الضامن:**

وقد أشرف ديوان النظر على موارد ونفقات الدولة الأيوبية التي زادت مواردها على ستة وأربعين مورداً حسب ما ذكره بن مماتي ، وربما زاد عن ذلك وفي عصر الأيوبيين طرأ تغيير على ديوان النظر ، وهو أن السلطان صلاح الدين الأيوبي قام بإلغاء ديوان التحقيق ، ولكنه اضطر إلى الإبقاء إلى وظيفته المجلسية لضرورة استمرار أعمال

المقابلة المالية فاستعاض عن ذلك الديوان بـ **"مجلس أصحاب الدواوين"** وكانت مهمته هي مقابلة المصروفات والإيرادات الفعلية في مختلف الدواوين على المبالغ الرسمية المقررة في سجلات الدولة(123).

وقد أعاد الملك الكامل محمد العمل بديوان التحقيق الذي ظل معطلاً سنة 624هـ/1227م ، وعيّن في رئاسته ابن كوجك اليهودي ، غير أنه عاد وألغي العمل بديوان التحقيق بعد مرور سنتين من العمل به(124).

ومجلس أصحاب الدواوين هو الذي يتكون من نظار ورؤساء الدواوين.

ديوان الإنشاء:

كان ديوان الإنشاء من أهم الدواوين الموجودة في مصر خلال العصرين الأيوبي والمملوكي حيث كانت تبدو أهميته من خلال المهام التي كان يقوم بها ، فهو ديوان عظيم المقدار ، كثير الأخطار ، وهو خزانة الأسرار شريف بمراسلة السلطان إلى الناظر فيه في الليل والنهار يعظم بذلك قدره ويكبر شأنه وقدره(125).

وقد اختص هذا الديوان بالتوقيع على القصص ـ الشكاوى ـ التي يرفعها أصحاب الحاجة إلى السلطان ، وكذلك النظر في الكتب الواردة من دخل البلاد وخارجها ، والإجابة عليها والتدقيق في اختيار الجواسيس(126).

وكان ناظر ديوان الإنشاء يعرف بكاتب السر ، وقد اشترط النابلسي في اختياره أن يكون عارفاً بالعلوم ولا سيما الأدب ، عارفاً بكتاب الله والحديث النبوي الشريف للاستشهاد بهما ، عارفاً بأخبار الملوك والخلفاء ، وهذه المقومات تجعل صاحبها شخصية عالمة ومتعددة المواهب(127).

وكان منصب صاحب ديون الإنشاء منصباً سياسياً ، خلال العصرين الأيوبي والمملوكي وذلك لأنه صار من أكبر أعوان السلطان الذي يطلع على أسراره ويتجمع لديه خفايا أخباره ، وكان السلطان يعتمد عليه كتابة الرسائل حيث كان يختار له أفصح الألفاظ وأبلغ العبارات وأرجح المعاني ، واستعمل في كل مقام ما يليق به(128).

والإنشاء ديوان عظيم له ... يختار كل فتى أريب
له فضل يفوق به البرايا ... وذو نظم وذو نثر عجيب
يفتح فى رياض الطرس نوراً ... له نور من الأدب الغريب
يكون السر منه فى مكان ... كقلب العاقل اليقظ اللبيب(129)

وقد وجد بديوان الإنشاء عدد كبير من الكتاب الرئيسيين يقومون بالكتابة والإنشاء وآخرين مساعدين يقومون بالتلخيص والتبييض ، وكان لابد للعاملين به أن يتقنوا اللغة العربية وأن يعرفوا لغات أجنبية أهمها في تلك الفترة اللغة الفارسية والتركية واليونانية والأرمينية ، وذلك لأن السلاطين المماليك وأمراءهم من الترك ، فكان هؤلاء المتخصصون يقومون بتعريب الكتب الأعجمية(130).

وتولي منصب ناظر ديوان الإنشاء خلال عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي العلامة القاضي الفاضل ، وذلك بعد وفاة رئيس ديوان الإنشاء الموفق يوسف بن الخلال سنة 566هـ/1170م ، وصار القاضي الفاضل مشيراً أميناً للسلطان صلاح الدين وساعده الأمين فيما قام به من إصلاحات مالية وإدارية وجهاد ضد الصليبيين(131).

وممن عمل في ديوان الإنشاء خلال عهد السلطان صلاح الدين ، القاضي عبد الرحمن بن قريش المتوفى سنة 586هـ/1190م الذي كان كاتباً في ديوان الإنشاء ، وتعرض ديوان الإنشاء لبعض المشاكل خلال عهد السلطان العادل الأول تتمثل فيما قام به الوزير صفي الدين بن شكر من اضطهاد لبعض موظفي ديوان الإنشاء ، وفي عهد الملك الكامل عاد لديوان الإنشاء أهميته وازدهاره(132) ، وخلال عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب كان بهاء الدين زهير كاتباً لديوان الإنشاء ، أما رئيسه فكان الصالح فخر الدين إبراهيم بن لقمان الذي استمر في رئاسة الديوان حتى نهاية العصر الأيوبي وبداية العصر المملوكي(133).

ومن المهام التي أسندت إلى ديوان الإنشاء الإشراف على المكاتبات الصادرة من السلطان إلى كافة الأنحاء وفي مقدمتها مراسلات السلطان للخليفة العباسي ، كما أشرف ديوان الإنشاء على المكاتبات الواردة للسلطان من الخارج ، وقام هذا الديوان بدور إدارة المحفوظات في عصرنا الحالي ، حيث كانت تحفظ به الوثائق الصادرة عنه والواردة إليه ، وكذلك صور المكاتبات الصادرة من الدواوين الأخرى(134).

ديوان البريد:

البريد هو تبليغ إجراءات ولاة الأمر إلى الأطراف ، وتوصيل الترتيبات المتعلقة بهذه الأطراف إليها ونقل أخبار هذه الأطراف وحاجاتها إلى ولاة الأمر ، ومن ثم الوقوف على مجريات الأمور والأحداث في الدولة(135).

وكان للبريد ديوان يشرف عليه موظف يعرف بصاحب البريد ، وكانت مهمته تنفيذ ما يصدر من السلطان إلى عماله بالأقاليم ، ويتلقى ما يرد منهم وقد حدث تطور كبير في نظام البريد خلال العصرين الأيوبي والمملوكي لما كان له من أهمية كبري خلال تلك الفترة في حياة المدن الإسلامية ، وقد خصص السلاطين الأيوبيون ومن بعدهم سلاطين المماليك النفقات اللازمة للصرف على البريد(136).

ولا شك أن الحروب الهائلة ضد الصليبيين في عصر الأيوبيين وضد المغول في أوائل عصر المماليك أثرت في تقدم هذا النظام حيث أوقفت تطوره ثم بلغ تقدمه وازدهاره بعد استقرار الأوضاع للدولة المملوكية من عهد السلطان الظاهر بيبرس ففي سنة 659هـ/1260م جعل بيبرس من البريد نظاماً سلطانياً وسماه البريد المنصور ، وجعله يتناول أموراً عديدة كنقل المراسلات الإدارية والديبلوماسية والأوامر الحربية ، وإرسال الأمراء إلى السجن ، وأخبار السرقة وجرائم القتل ، وكل كبيرة وصغيرة ، فكان هذا النظام يدخل في اختصاص رئيس ديوان الإنشاء(137).

وقد عرف البريد خلال العصرين الأيوبي والمملوكي ثلاثة أنواع هي:

البريد البري :

وهو ما عرف بالبريد بواسطة الخيل والجمال والبغال ، وكانت الطرق البريدية تبدأ من القلعة مقر حكم السلاطين نحو الأمصار ، وتنتشر على هذه الطرق منازل أو محطات للبريد ، هذه المحطة تتألف من خان ومسجد وساقية وفيها دواب البريد ومن يتعهدها بالخدمة والعناية(138) ، وهذه الطرق بين مصر والشام امتدت حتى وصلت إلى جبال طوروس بعد خروج الصليبيين من الشام ، ووضعت كباري على الأنهار لعبور خيل البريد(139) ، وقد انطلق من القلعة أربع طرق بريدية رئيسية إلى داخل وخارج مصر(140) ، وكانت المسافة بين الاستراحات البريدية تزيد على ستة أميال(141).

وكان الذي يحمل البريد يسمي **"بريدي"** وله رؤساء يسمون "مقدمي البريدية" وكان البريدي يتميز بعدة صفات منها اللباقة والفصاحة والحلم والصدق والخبرة الطويلة في هذا المجال(142) ، وكان يحمل علامة خاصة يتميز بها ، وكانت عبارة عن لوح مدور من الفضة نقش على أحد أوجهه عبارة **"لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدي ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون" " ضرب بالقاهرة المحروسة"** ، وعلي الوجه الآخر **" العز لمولانا السلطان ..سلطان الإسلام والمسلمين "** ، وهذه العلامة بذلك تشبه العملة حيث كانت تضرب في دار السكة(143) ، ويجعلها البريدي في شرابة من الحرير الأصفر في عنقه ويصير اللوح أمامه تحت ثيابه ، والشرابة خلفه من فوق ثيابه فكل من رأي تلك الشرابة خلف ظهره علم أنه بريدي(144).

وإذا حضرت الرسالة إلى كاتب السر ، دفع إلى البريدي لوحاً من تلك الألواح فيجعلها البريدي على صدره ، وكتب له إلى صاحب الإصطبل السلطاني ليفرج له عما يلزم من الخيل ، وكان يكتب اسم البريدي في أخر الكتاب الذي ينفذ معه بين السطور ، ويختم الكتاب ويسلم إليه ، ويكتب له ورقة طريق بالتوجه إلى جهة قصده ، ويترك اسمه ، وتاريخ سفره أو الجهة التي توجه إليها والشغل الذي توجه بسببه في دفتر الديوان ـ ديوان الإنشاء ـ (145) ، وبعد انتهاء البريدي من مهمته يعيد ذلك اللوح إلى ديوان الإنشاء ، وكان البريدي يحمل سيفاً للدفاع عن نفسه إذا حاول أحد التعرض له في الطريق(146).

وفي بعض الأحيان كان يركب مع البريدي سائق ليسوق له فرسه ويخدمه طوال المسافة التي يسيرها ، وكان لا يركب أحد خيل البريد إلا بمرسوم سلطاني ، وكانت الخيل البريدية تختم بعلامات مميزة(147).

البريد الجوي :

بالإضافة إلى البريد البري عرف الأيوبيين والمماليك نظام البريد الجوي الذي كان يستخدم في نقل الأخبار العاجلة مثل أنباء الحروب وبعض أسرار الدولة التي لا يتمكن البريد البري من نقلها في الوقت المطلوب(148).

واعتمد البريد الجوي على الحمام الزاجل الذي كان يقطع المسافات الطويلة في وقت قصير ، حيث كانت سرعة الحمام تصل إلى 50 ميلا في الساعة ، مما يسهل مهمة المرابطين والمجاهدين لتوصيل الأخبار إليهم بسرعة ، وصار الحمام الزاجل متجراً من المتاجر بين الناس وبلغ ثمن الفارة من معه سبعمائة دينار ، وشاع استعماله في زمن

السلطان نور الدين محمود بن زنكي ، وفي القاهرة زمن الأيوبيين والمماليك ، وبلغت مساحات طيرانه ما بين القاهرة والبصرة والقاهرة ودمشق(149).

وكان الحمام الزاجل الذي يستخدم في نقل البريد يميز ببعض العلامات حيث كان يبصم عليه ببصمات خاصة على منقاره أو ينقش اسم السلطان عليه ، أو قص ريشة بطريقة مميزة ، أو يبصم رقم علي رجليها ، كذلك كان يصبغ الحمام بلون أزرق مثل لون السماء حتى لا يري إذا أطلق نهاراً ، وكذلك كان يصبغ بالسواد لكي لا يراه العدو إذا أطلق ليلاً(150).

أما عن كيفية التراسل بالحمام فقد أقيمت له أبراج في الطرق ، وكان ينقل من حمام كل برج إلى البرج الذي يليه ليطلب برجه الذي هو مستوطنه إذا أرسل ، وكان يوضع في أبراج دمشق من حمام مصر وفي أبراج مصر من حمام دمشق للغرض نفسه(151).

وكانت الرسالة التي ترسل مع الحمام الزاجل تشد تحت جناح الحمامة أو إلى ذيلها ، وجرت العادة لزيادة الاطمئنان أن تكتب الرسالة من صورتين ترسلان مع حمامتين وتطلق إحداهما بعد الأخرى بساعتين ، كما جرت العادة أيضاً ألا يطلق الحمام في الجو الممطر ، ولا أن يطلق قبل تغذيته الغذاء الكافي(152).

وكانت الرسائل التي يحملها الحمام من ورق خفيف يسمي بطائق ، وكان يكتب عليها أمور مختصرة من لب الكلام ، وكان الإيجاز والتركيز من أهم مميزاتها ، إذ يستغني فيها عن البسملة والمقدمات والألقاب الكثيرة ، ويكتفي بذكر اليوم والساعة ولا داعي لذكر السنين والعنوان(153) ، وكان الخط الذي يستعمل في هذه الرسائل هو المعروف باسم "الغبار" لأنه دقيق يشبه ذرات الغبار ، لهذا كان حجم الرسالة في بعض الأحيان لا يزيد طولها عن سلامي الأصابع(154) ، وكانت الرسالة إذا مرت على إقليم ما كتب الوالي في ظهرها أنها وصلت إليه ونقلها حتى تصل مختومة(155).

وقد زودت القلعة خلال العصريين الأيوبي والمملوكي بأبراج لاستقبال الحمام الزاجل وإطلاقه(156) ، وكانت طرق البريد الجوي مزودة بمطارات ـ أبراج ـ للحمام ويحفظ فيها الحمام ، ويوجد بها أعلاف للحمام الزاجل والمراقبين الذين يطلقون الحمام من برج إلى برج باستخدام جياد السلطان ، وكان الذي يشرف على طعام الحمام وتدريبه يسمي برجي(157) ، انظر الخريطة الموضح عليها مطارات الحمام على الطرق البريدية.

نقل الرسائل بطرق أخرى :

بجانب طرق البريد البرية والجوية عرف الأيوبيون والمماليك طريقة نقل الرسائل والإشارات عن طريق إشعال النيران ، حيث وضع نظام لاستعمالها وعمال لمراقبتها ، وعرفت الأماكن التي تشعل فيها النيران " بالمناور" ، ومواضع رفع النار في الليل والدخان في النهار وذلك للإعلام بقدوم عدو(158) ، وكانت هناك شارات يتفق عليها المنورون عند نقل الخبر ، كاختلاف حال النار بين شدة توهجها وضعفه ، وتعداد مشاعلها في الموضع الواحد ، ومدي ارتفاعها في السماء(159).

وقد نشرت المناور من الإسكندرية حتى طنجة على طول الساحل الإفريقي الشمالي فإذا وقعت واقعة ذات خطورة أوقدت النيران من طنجة ولا تزال من برج إلى

آخر حتى يبلغ ذلك الإسكندرية في ليلة واحدة،ومن طرابلس إلى الإسكندرية تصل الرسالة النارية في ثلاث ساعات أو أربع ساعات(160).

هذا وكان يدير أعمال البريد سواء البري أو الجوي ديوان الإنشاء ، وكان يتولى رئاسة البريد الدوادار ويلقب أمير البريد ، وكان من واجبه العمل على سرعة إرسال بريد السلطان وتبليغ أوامره ، وكان كاتب السر بديوان الإنشاء يتولى بنفسه تصدير البريد(161).

والسبب في إسناد إدارة البريد إلى ديوان الإنشاء ، وعدم إنشاء ديوان خاص به يرجع إلى طبيعة عمل كل من ديوان الإنشاء والبريد ، فكلاهما جزء مكمل للآخر حسب النظم الديوانية في الدولتين الأيوبية والمملوكية ، وكان كاتب السر هو الذي يتولى بنفسه قراءة الرسائل السلطانية.

ديوان الخاص السلطاني:

كان له الإشراف على الإقطاع السلطاني ، وشئون الدور السلطانية ، والمطابخ السلطانية ، والأسمطة ، ونفقات المواكب السلطانية ، لعب الكرة ، الصيد ، الخروج في الأعياد والمناسبات ، النفقة على الهدايا والمنح والهبات التي يرسلها السلطان إلى الخلفاء والأمراء ، وكان المسئول عن ذلك هو صاحب ديوان النظر وذلك تحت إشراف الوزير(162).

وكان يوجد بهذا الديوان مباشرون عليهم ضبط أسماء وأرباب المستحقات ومقادير استحقاقهم من اللحوم ، والسكر ، والشمع ، والزيت ، والحلوى ، وصرف الأضحية إلى أصحاب الاستحقاقات في عيد الأضحى ، وإطعام قصّاد دار الضيافة والرسل(163).

ديوان الأحباس " الأوقاف "

انقسمت الأوقاف خلال العصرين الأيوبي والمملوكي إلى ثلاثة أقسام:

الأول: الأحباس التي وقفت على المساجد والزوايا والصدقات.

الثاني: الأوقاف الحكمية التي حبست على الحرمين ، وفداء الأسري من المسلمين.

الثالث: الأوقاف الأهلية التي حبست على النواحي التي يريدها صاحب الوقف.

وقد اختص ديوان الأحباس بشئون الأوقاف الخاصة والعامة والتي تشمل الأبنية والأعمال الخيرية والدينية مثل الخانقاوات ، والبيمارستانات ، والمدارس ، والكتاتيب والأسبلة ، وغيرها ، وكان له حق الإشراف على رواتب العلماء ، والفقهاء ، والقراء وأرباب الحديث ، والخطباء ، وأئمة المساجد ، والمدرسين ، وافتداء الأسري(164).

وكانت أموال الأوقاف تنفق على جهات البر المطلقة حيث كانت تنفق على الأشراف ـ المنتسبين للرسول ﷺ ، وعلى الفقهاء ، والصوفية ، والفقراء ، والقراء ، وابن السبيل ، والمرضي ، والمجنون ، وتجهيز الموتى ، وتحصين الثغور ، وعمارة المساجد ، ومصالح المدارس ، والرباطات ، والخنقاوات (165).

كذلك رصد جزء من مال الأوقاف الحكمية لفداء الأسري ، ووقفت بعض الأراضي ليصرف ريعها على إصلاح الجسور ، كما تولى ديوان الأحباس الصرف على خزائن السلاح وما يلزمها من معدات وأسلحة(166).

وكانت الأوقاف العامل الأساسي في تثبيت أركان المدرسة والتعليم خلال العصرين الأيوبي والمملوكي ، من حيث صرف رواتب المدرسين ، وجرايات الطلاب وغيرها(167).

ومما سبق يتضح أن الأوقاف أسهمت في الصرف على العديد من أوجه البر ، وغيرها من النواحي الاقتصادية والاجتماعية ، ونظراً لأهمية ديوان الأحباس فقد اشترط فيما يتولاه أن يكون عالماً متقناً مفتياً في أنواع كثيرة من العلوم ، مشاركاً في الفضائل والأدب ، شريف الهمة ، عظيم المقدار في نفسه وعند سلطانه ، وأن يكون أهلاً بما فيه الكفاية من العلم ، والعفاف ، والنزاهة ، وحسن السمعة حتى يميز بين من يصلح للخطابة ، والإمامة ، والتدريس ، ومن لا يصلح(168).

ديوان المواريث الحشرية:

كان يختص بأموال من لا وارث له أو من توفي ، ويرث أقاربه جزءاً من تركته ، ويصبح الجزء الباقي من حق ديوان المواريث ، كما اختص هذا الديوان بالتصرف في أموال المرتدين عن الإسلام ، وكانت جهات صرف أموال هذا الديوان معظمها خيرية بحتة ، كالصرف على دفن الفقراء ، وتقديم المعونات لليتامى ، والعجزة(169) ، وكان ذلك خلال العصر الأيوبي ، وتغير ذلك خلال العصر المملوكي حيث زيدت على هذه النفقات صرف الدواء للفقراء ، وعلاجهم ، والصرف على مؤسسات الرعاية الاجتماعية(170).

ديوان الزكاة:

لقد حدد الله تعالي مصارف الزكاة بقوله:﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (171).

ومن ذلك يتضح أن الزكاة كانت تنفق على الفقراء ، وأرزاق عمال الدولة ، وفي تحصين الثغور ، والقلاع ، ومساعدة الأيتام.

ديوان الجوالي:

كان ديوان الجوالي ضمن جهات إيراد الدولة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي ، وكانت حصيلته تذهب إلى ديوان بيت المال ، وذكر أن الجوالي كانت تحصل من الثغور ، وتنفق على عمارة الدين ومصالح المسلمين كدفع أرزاق الولاة والقضاة والعلماء ، والمقاتلة ، ورصد الطرق ، وعمارة المساجد ، والقناطر ، والرباطات ، وإصلاح الأنهار ، وسد الثغور ، وكان جزء من أموال الجوالي يدفع في تكاليف عمل الأسمطة خاصة السماط المسمي "سماط الحلال"(172).

ديوان الخراج:

اختصت نفقات ديوان الخراج بمجموعة من النواحي في دولة سلاطين المماليك منها الصرف على المجاهدين ، والفقهاء ، وكذلك أولادهم من بعدهم ، وبعض المصالح العامة مثل بناء المساجد ، والقناطر ، والجسور ، ودفع الديات ، وقضاء الديون ، وتزويج العزاب(173) ، وكان من أهم النواحي التي يصرف عليها ديوان الخراج هي إقامة

الجسور وخاصة السلطانية ، وحفر الخلجان وتطهيرها وذلك لما لهذه النواحي من اتصال وثيق بالزراعة ، وهدف السلاطين من ذلك تحسين الأراضي الزراعية للحصول على خراج كبير(174).

النظم القضائية

القضاة:

استقلت مصر قضائياً على يد الفاطميين حيث أصبح يوجد فيها منصب قاضي القضاة ومقره القاهرة بعد أن كان القضاء تابعاً لقاضي القضاة في بغداد ، ولما قامت الدولة الأيوبية تغير نظام القضاء ـ الفصل في المنازعات ـ وأصبح وفقاً للمذهب السني ، وتمتع القضاة بمنزلة رفيعة لم يتمتع بها الكثير من أرباب الوظائف خلال تلك الفترة.

وقد روعي في اختيار القاضي شروط معينة هي: الذكورة مع البلوغ ، والإسلام ، والعقل ، والعدالة ، والحرية ، والعلم بالأحكام الشرعية ، وسلامة الحواس(197) لأن القضاء كما يذكر ابن شاهين: **" أعظم الأركان وقعا وأعمهم نفعا ، وعليهم مداد مصالح الأمة عقلا وشرعا "**(198) ، ولذا كان السلطان إذا عين أحد القضاة خلع عليه وأحيط بمظهر الحفاوة والتكريم وتصحب برسوم فخمة(199).

والقضاة بأيديهم أزمة الأمور وصلاح الرعية ولهم الحكم على الأرواح والأشباح والأموال والفروج وأمور الدين ، والدنيا ، وعلى السلطان ألا يهمل أمرهم بل يمتحنهم في مجلسه ، ويسألهم عن أمور دينهم ودنياهم ، وليجعل عليهم عيناً ورقيباً ليعلم من فيهم يخاف الله ، ويتبع الحق ولا يقبل الرشا ، فإن أهمل أمرهم فسد حاله(200).

ومن مهام القضاة الآتي:

- إقامة الحدود بين الناس.
- التحدث في أمر الصلاة ودار الضرب.
- تحديد غرة شهر رمضان.
- الاشتراك في مجالس العلم وتدريس العلوم الدينية بالمدارس.
- وضع أموال اليتامى تحت أيديهم حفاظاً عليها من التبديد والضياع.
- النظر في الأحباس والأوقاف.
- ولاية الحج ، والبيعة للخليفة أو السلطان ، ومصاحبة الجيوش.
- الإشراف على المكاييل ودار السكة(201).

ونتيجة لكثرة الأعمال المسندة للقاضي فقد أتخذ له نواباً في الأقاليم وأتخذ الكثير من المعاونين له في عمله **منهم:**

<u>الجلواز:</u> وكان من اختصاصه الإشراف على مجلس القاضي وكان يحمل في يده سواطاً(202).

<u>المترجم:</u> ولعل ذلك راجع إلى وجود المماليك الترك حيث لغتهم المختلفة هذا بجانب انتشار الجاليات الأجنبية في مصر لاتساع نطاق التجارة ، وكان المترجمون يقومون بدور الوسيط في التفاهم بين المتقاضين بعضهم وبعض ، أو بينهم وبين القاضي إذا كانوا لا يعرفون العربية ولا يحسنونها ، واشترط في المترجم الأمانة والعلم ، وأن يكون مسلماً ديناً لا يحرف الكلم عن مواضعه ، بل ينقله بتحفظ ودقة(203).

<u>الحاجب:</u> كان يتولى مهمة إدخال المتخاصمين على القاضي ، ورفع الأمور إليه(204).

<u>النقيب:</u> وكان يتولى مهمة إدخال الشهود لسماع أقوالهم(205).

الكاتب: وهو الذي يتولى تحرير أقوال القاضي وأحكامه ، ولذلك اشترط فيه أن يكون ملماً بجوانب اللغة ، وأساليب المتحدثين.

الأمناء: وكان القضاة يستعينون بهم في التحفظ على أموال الأيتام والغائبين صوناً لها من الضياع والتبديد(206).

الشهود العدول: ويجب أن يتصفوا بالأمانة والعدل ، ولا يشك في ذمتهم ، وكان القاضي يراقب تصرفاتهم(207) ، ولهم رئيس يسمي مقدم الشهود ، وكان هؤلاء الشهود يتعرفون على أحوال الناس ويشهدون في القضايا ، وكانت لهم حوانيت معلومة ، فإذا أحتاج أحد المتقاضين إلى شاهد أحضروه للقيام بالشهادة مقابل أجر معين ، وكان لكل قاضٍ شهود معينون ، وفى القضايا التي تحتاج إلى خبرة معينة مثل قضايا المباني ، كان القاضي يأخذ برأي الفنيين المختصين فيكلف أحد المهندسين بالمعاينة والإدلاء برأيه(208).

وخلال العصر المملوكي أكثر القضاة من النواب والشهود ، مما دفع بعض السلاطين في بعض الأحيان إلى تحديد عدد معين من النواب لكل قاضٍ لا يجوز أن يتعداه.

أما عن الإجراءات القضائية ، فكان قاضي القضاة ينظر في قضايا متنوعة دون تفرقة ، أي كان هناك نظام توحيد القضاء ، حيث كان ينظر في القضايا الجنائية ، وقضايا السرقات ، وقضايا شرب الخمر ، والزنا ، والمواريث ، والزواج ، والطلاق وكذلك قضايا الأحوال الشخصية.

وكان الحكم في القضايا يسير وفقاً للشريعة الإسلامية وللمذهب السني ، وكان للقاضي حق التصرف في القانون وفقا لاجتهاده ، وقد يلجا أحياناً إلى المفتي ، حيث يوجد مفتٍ لكل مذهب من المذاهب الأربعة(209).

وكان كل ما يدور في الجلسة من أحكام وشهادة يسجل ، فنسمع بأرشيف قضائي يسمي: سجلات الحكام أو دواوين الحكم ، وهي عبارة عن الأرشيف القضائي وكانت توضع في منزل القاضي ، ثم أصبح يحتفظ بها في المسجد ، وكان يذكر فيها اسم القاضي ولقبه ومذهبه(210).

أما عن عقوبات القضاة وأحكامهم ، فشملت العديد من العقوبات من ذلك عقوبة الإعدام التى حكم بها على زعماء ثورة الشيعة التي حدثت في القاهرة ضد السلطان صلاح الدين سنة 569هـ/1172م(211).

ومن ذلك الحكم بالشنق على بعض الأشخاص والأمراء الخارجين على السلطان ، وحكم الإعدام في بعض الجند الصليبيين الذين قبض عليهم أثناء محاولتهم مهاجمة الأماكن المقدسة الإسلامية(212) ، وغيرها من العقوبات التي شملت اللوم والتقييد والسجن والتشهير وغيرها ، وكان يعهد بتنفيذ الأحكام التي يصدرها القاضي إلى والي الشرطة ، وهو أداة التنفيذ في الدولة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي(213).

أما رواتب القضاة فكانت تصرف من ديوان المال ، لكي يحتفظ القضاة بالعدالة والنزاهة ، حيث كانوا يتسلمون مرتبات ثابتة تسمي معلوم خلال العصر المملوكي أكثر من خمسين دينار شهريا ، هذا بخلاف الخبز ، واللحم ، والزيت ، والشعير ، والشمع والكسوة ، وكانت مرتباتهم تزداد كلما زاد أشرافهم على مناصب أخري ، مثل التدريس والإشراف على ديوان الأحباس ، والخطابة ، وغيرها(214).

هذا وكان لكل قاضٍ نواب يجلسون بحوانيت الشهود ، وبالشوارع للتكسب من الحكم بين الناس ، ومقاسمة الشهود فيما يتكسبونه من عملهم بالشهادات(215).

وكان معظم النواب خلال العصر الأيوبي وأوائل العصر المملوكي من الشافعية والمالكية وأقلهم من المذهب الحنفي والحنبلي ، حيث كان قاضي القضاة الشافعي هو الذي يستنيبهم جميعا(216) ، ولما عين القضاة الأربعة أصبح لكل قاضي قضاة أن يستنيب نوابه من مذهبه(217).

الحسبة والمحتسب:

الحسبة هي وظيفة أصلها من باب الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله ، وفى المعني هي الأجر والثواب ، وهي مشتقة من حسبك بمعني اكفف ، وسمي المحتسب بذلك الاسم لأنه يكفي الناس مؤونة من يبخسهم حقوقهم ، وهي تعني الردع والإنكار لكون المحتسب يردع المنحرف وينكر الباطل(218)وهذا الأصل الديني له سند في القرآن الكريم في قوله تعالي: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(219).

هذا المبدأ الديني المثالي ما لبث أن تطور في البيئة الإسلامية ، وتعدي إلى واجبات عملية تتفق مع مصالح المجتمع ، وبخاصة سكان المدن الذين كان معظمهم من أرباب الحرف والتجارة ، فلم تعد الحسبة تعني مراقبة الأخلاق فقط ، وإنما مراقبة للغش في الصناعة والمعاملة ، ولذا كانت الحسبة تعني مراقبة الأسواق.

والحسبة في المفهوم الشرعي هي أن يتطوع أحد المسلمين بالتدخل في حياة الآخرين إذا فعلوا جرماً في حق الله تعالي أو في حق البشر.

وحقوق الله تعالي هي ما تشمل العقائد والعبادات ، مثل الإيمان بالله تعالي وملائكته وكتبه ورسله ، وتأدية الفرائض كالصلاة ، والزكاة ، والحج ، والصيام والتسبيح ، والاستغفار ، وتلاوة القرآن ، أما حقوق العباد فهي حفظ الأموال ، والدماء والأعراض.

وكانت الحسبة وظيفة جليلة كالقضاء ومن يقوم بها يعرف بالمحتسب أو ناظر الحسبة(220) ، وقد وضح الفقهاء شروطاً يجب توافرها في الشخص الذي يتولى أمر الحسبة نظراً لأهمية هذا المنصب ، ولكي يؤدي واجبه على أكمل وجه **وهذه الشروط تتمثل في الآتي:**

- أن يكون مسلماً عادلاً في أمور الدين والدنيا.
- عاقلاً قادراً على فهم الأشياء شجاعاً صلباً في الأمور الدينية.
- عالماً بالمنكرات الظاهرة.
- غني النفس ، عفيفاً عن قبول الهدايا لأي سبب من الأسباب.
- بارعاً في الاجتهاد ليحسم ما اختلف عليه أهل الرأي والفقهاء(221).
- ويجب على المحتسب أن يعمل بما يعلم ، ولا يكون قوله مخالفا لفعله حتى لا يتعرض لسخرية الناس من ناحية ، وتكون دعوته مقبولة لديهم من ناحية أخري لأنه لا يجوز أن

يدعوا لشيء يفقده(222) ، وأيضا ليتجنب قول الله تعالي في ذم مثل هذا: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ (223).

- كما أوجب الفقهاء بعض الأمور التي يجب أن يتحلى بها المحتسب منها الرفق واللين في القول والفعل ، وطلاقة الوجه وحسن الخلق(224) ، وأن يكون مواظباً على سنن الرسول ﷺ من قص الشارب ، وتقليم الأظافر ، ونظافة الثياب ، وتقصيرها والتعطر بالمسك ونحوه من جميع سنن الشرع ومستحباته مع القيام بالفرائض(225).
- ويجب أن يكون عارفاً بأصناف المهن والمعايش والحرف بأنواعها المختلفة ، وله خبرة في الموازين والمكاييل ، ملماً بوحدات المقاييس(226) حتى لا يخفى عليه حيل الباعة والصناع في الغش ، وحتى يميز بين الصحيح وغيره ، ولا يتحقق ذلك إلا إذا كان المحتسب فطناً يقظاً(227).
- وكان يشترط في المحتسب أن يكون مأذوناً من أولي الأمر ، حيث لا تجب الحسبة بدون إذن أو تفويض من السلطان(228).

وكان تعيين المحتسب يتم من خلال مرسوم سلطاني صادر من ديوان الإنشاء ، ويتضمن هذا المرسوم الكثير من عبارات الثناء والتقدير للشخص الذي يتولى هذا المنصب بجانب الشروط التي يجب أن تتوفر في هذا الشخص ، وكذلك تحديد المهام التي يقوم بها في شتي مناحي الحياة ، وكان هذا المرسوم يقرأ على المنابر في المدينة التي يعين بها من أجل أن يعرفه الناس ، ثم يقوم الأهالي بالطواف بالمحتسب في موكب كبير في شوارع المدينة ، وبعد ذلك يقوم المحتسب بممارسة عمله(229) ، ونظرا لأن وظيفة المحتسب من الوظائف الدينية ، فقد كان القاضي يشارك أحياناً السلطان في اختيار المحتسب(230).

وكان للمحتسب أعوان اتخذ معظمهم من أرباب الصنائع والحرف ، حيث جعل لكل صنعة عريفاً من أهلها خبيرا بصناعتهم ، بصيراً بغشهم ، مشهوداً له بالثقة والأمانة يشرف على أحوالهم ، ويطالعهم بأخبارهم(231).

زي المحتسب:

كان لكل طائفة ملابسها الخاصة ولكل مهنة أيضاً ولذا كانت هناك ملابس خاصة للمحتسب كانت عبارة عن: لباس الرأس وهي العمامة ، وقد أعتبر المؤرخون المحتسب من طبقة العلماء وكبار الفقهاء ، ولذا يكون له الحق في أن يلبس زيهم ، وأن يلبس العمامة على رأسه ، أما لباس البدن فكان المحتسب يرتدي دلقاً ـ فراء أو جلد السمور في جميع حالاته ـ متسع الأكمام مفتوحا فوق كتفيه بدون فتحة ، متدلية على قدميه ، وفي الشتاء يرتدي الفوقاني من الصوف الأبيض ، ولا يلبس الملون إلا في بيته أو أثناء سفره(232) ، وكان المحتسب يرتدي في قدميه الخفاف من الأديم الطائي بغير مهاميز(233).

وكان مقر عمل المحتسب في القاهرة ويطلق عليه دار الحسبة(234) التي كانت تضم دكة المحتسب التي كان يجلس عليها أثناء وجوده بدار الحسبة ، وقد جرت العادة أن يمارس المحتسب وأعوانه أعمالهم في الأماكن التي يكثر فيها التعامل مثل الأسواق والمساجد ، والحمامات ، والطرقات ، وغيرها(235).

أما عن واجبات المحتسب واختصاصاته فقد ازدادت واتسع نطاقها على ضوء تطور المجتمع الإسلامي ، وقد تعددت مهام المحتسب وتطرقت لنواحي الحياة الاقتصادية ، والاجتماعية ، والدينية ، والصحية ، وغيرها(236).

مهام المحتسب الاقتصادية:

يتجلى دور المحتسب الاقتصادي في ذهابه إلى الأسواق وتفتيشه على البضائع من حيث الجودة والرداءة ، ومنعه التجار من الغش والتطفيف في الكيل والميزان ، وكذلك مراقبة الأسواق وما ينبغي أن تكون عليه من الارتفاع والاتساع(237) ، وكذلك إلزام التجار بالبيع والشراء بالسعر المحدد ، وكان يلزمهم للحضور إلى دار العيار لختم المكاييل والصنج الخاصة بهم بخاتمه الموحد ، والتأكد من سلامتها وصلاحيتها ، وكان عمل المحتسب أن يعمل لديه معدلاً لكل عمل ، وعيار يقيس عليه الأعمال والمعايير ليعرف الصحيح منها والمغلوط(238).

وكان المحتسب يأمر أصحاب المكاييل والموازين بمسحها من الأقذار والدهون العالقة بها ، ويجب أن يكون المحتسب على علم تام بطريقة الوزن الصحيحة ويأمر البائعين باتباعها ، وأن يكون على علم أيضاً بالحيل التي يتبعها الباعة للغش الخفي في الميزان(239).

وكان المحتسب يشرف إشرافاً دقيقاً على أصحاب الحرف والمهن التي تتعلق بالمجال الاقتصادي ، وكان له دفتر خاص يسمي "دفتر المحتسب" يسجل فيه أسماء الخبازين ومواضع حوانيتهم ، وكان يخصص لكل حانوت من هذه الحوانيت كمية معينة من الدقيق كل يوم لئلا يختل اقتصاد البلد من قلة الخبز ويلزمهم بذلك(240).

وكان المحتسب يزن الخبز حيث كان له وزن معلوم ، وكان يلزم الفرانين بألا يخرجوا الخبز من بيت النار إلا بعد تمام نضجه(241).

وكان أعوان المحتسب يقومون بحملات تفتيشية على الشوايين ، والطباخين والعطارين ، والنحاسين ، والحدادين ، والسقايين ، والخياطين ، والبرازين للاطمئنان على عملهم(242) والتأكد من أن أحداً لم يرتكب أية مخالفة ، فإذا عثر على شيء من ذلك كان عليه أن يمنعه في الحال(243).

وكان المحتسب وأعوانه يقومون بترتيب وتنظيم الصناعات المختلفة من خلال إقامة كل صنعة في مكان خاص بها ، وكان الهدف من ذلك هو تسهيل عملية الإشراف عليها ومراقبة ما يتم فيها من صناعات ، ولكي لا تتلف صنعة أخري(244).

ومن مهامه الاقتصادية أنه كان يراقب شوائي اللحوم بأن يزن عليهم الحملان قبل إنزالها في التنور ، ويسجلها في دفتره ، ثم يعيد وزنها مرة أخري بعد إخراجها من التنور ، فإن كان الشواء قد نقص إلى الثلث فيكون تم نضجه ، وإن كان دون ذلك أعاده إلى التنور فإنه لا يزال نيئاً(245).

وكان يمنع القصابون بائعي اللحوم من خلط لحوم الضأن ، وأن تكون أذناب الماعز معلقة على لحومها إلى آخر البيع(246).

ويأمر الخياطين بجودة التفصيل وحسن فتح الجيب ، وسعة التخاريص ما زيد في عرض الثوب واعتدال الكمين والأطراف ، واستواء الذيل ، وأن تكون الخياطة متينة ، والإبرة دقيقة ، وكان يأمرهم بوزن الثياب الحريرية قبل خياطتها ، وأن يزنها بعد الخياطة

أيضا(247) ، وكان يأمرهم أيضاً بعدم مماطلة الناس في الخياطة ويمنعهم من خلط الحرير الشامي مع الحرير البلدي ، ويمنع القطانون من خلط جديد القطن بقديمه ، ولا أحمره بأبيضه(248).

وكان المحتسب يتأكد من كون الدراهم والدنانير المتداولة في السوق غير مزورة وأنها مختومة بخاتم السلطان(249).

ولكي يتمكن المحتسب من أداء مهامه الاقتصادية كان يختار لكل صنعة عريفاً من بين أفرادها يشرف على أحوال طائفته ، ويطلع على أخبارهم وحيلهم وطرق غشهم حتى يتسنى له مراقبتهم.

مهام المحتسب الاجتماعية:

كان المحتسب وأعوانه يشرفون على أخلاق أفراد المجتمع وكان يحرص دائماً على توفر الأمانة والأخلاق الحسنة بينهم ، وكذلك اتباع السلوك الحميد ، والظهور بالمظهر اللائق(250).

وكان من واجباته الاجتماعية الإشراف على الآداب العامة ، ومنع اختلاط الرجال والنساء في المتنزهات والأسواق والطرقات وغيرها(251) ، وكان أعوانه يمنعون النساء من الجلوس في الطرقات والأزقة التي يعبرها الرجال وتتاح لهم فرصة الاختلاط بهؤلاء النسوة(252) ، وكان المحتسب يمنعهن من الجلوس على أبواب بيوتهن في طرقات الرجال ، أو أن يخلو رجل بامرأة(253) ، أو جلوس النساء على أبواب الحوانيت خاصة حوانيت القطانين والكتانين ، وراقب المحتسب النساء في الأفراح ، وكذلك في الجنائز والمآتم ، وسلوكهن وسيرهن في الطرقات ، والملابس التي كانت النساء ترتديها أيضاً(254).

وكان المحتسب دائماً يعمل على أن يسود الحب والمودة بين أفراد المجتمع من خلال منع الجيران من التعدي بعضهم على بعض(255).

وحفاظا على الآداب العامة كان المحتسب يأمر السقايين بأن يرتدوا سراويل سميكة زرقاء اللون حتى تستر عوراتهم نظراً لأنهم يتجولون في الشوارع ويدخلون البيوت(256) ، كما حرص المحتسب على مراقبة بيع الرقيق حيث يأمر التجار بعدم الإساءة إليهم ، وحفظ كرامة ما تحت أيديهم من الرقيق(257).

وكان أعوان المحتسب يراقبون أصحاب المراكب ، ويأمرونهم بعدم حمل أثقال أكثر من طاقة المراكب حفاظا على سلامتها ، ويراقبون أيضاً سائقي الدواب ومستخدميها ، ويأمروهم بالرأفة بالحيوان ، وذلك بألا يحملوها ما لا تطيق(258).

مهام المحتسب الدينية:

ومن المهام الدينية التي أشرف عليها المحتسب إقامة الشرع وإحياء السنة حيث كان من شروط تعينه معرفته بالأحكام الشرعية ، فكان يطبق الأحكام على من يفطر شهر رمضان ، وعلى النساء المطلقات اللائى لا يراعين العدة قبل زواجهن للمرة الثانية(259).

وحرص على أن تسير الجنازة وفقاً لما نصت عليه الشريعة الإسلامية ، وكان أعوانه يأمرون القائمين على غسل الموتى بمراعاة الله في أعمالهم لأنهم يطلعون على عوراتهم ، ومن ثم وجب عدم إفشاء أمرها بين الناس(260) ، كما كان المحتسب يمنع

النساء من كشف وجوههن ورؤوسهن خلف الجنائز ، ويأمرهن بأن يتأخرن عن الرجال ولا يختلطن بهم(261).

ومن المهام الدينية التي تولى شئونها المحتسب الاهتمام بأمر المساجد من خلال عمارتها وأمر عمالها بتنظيفها وحفظ الأمن بداخلها ، حيث كان يتم منع دخول الصعاليك للمساجد حتى لا يتعرضوا للمصليين بالسرقة ، وكان المحتسب يتحرى الدقة في اختيار أئمة المساجد حتى يطمئن على الأحوال الدينية ، وما يقال في الخطب من مواعظ وعلوم دينية(262).

وكان المحتسب يأمر الأئمة في المساجد بعدم الإطالة في الصلاة ، وكان يحث الناس على أداء صلاة الجمعة من خلال النداء ، ويراقبهم عند أوقات الأذان في الأسواق(263).

وكان يختار مؤذن المسجد واشترط فيه أن يكون ذكراً مسلماً عاقلا ، فلا يصح أذان امرأة أو كافر أو مجنون ، وكان يختبرهم في الأوقات ، فمن لم يعرف الأوقات منهم منع من الأذان ، وكان ينهي عن التغني في الأذان ، وكذلك التطويل(264) ، وأن يخرج الصوت بعيداً عن المسجد حتى يسمعه غير من في المسجد(265) ، وكان يمتحن الوعاظ والقراء ، ولا يجوز أن يعمل بالوعظ إلا من كان عالما بالعلوم الشرعية ، حافظاً لكتاب الله ، والأحاديث النبوية الشريفة ، وأن يكون صالحاً فاضلاً ذا سيرة محمودة بين الناس(266).

وكان المحتسب يراقب الحمامات ويأمر ضامن الحمام أن يحتفظ عنده بمياذر يكريها أو يعيرها لمن يحتاج ، فإن الفقراء والغرباء قد يحتاجون إلى ذلك حتى لا يكشفوا عوراتهم(267).

مهام المحتسب الصحية:

كان المحتسب يتولى الإشراف على أداء عمل الأطباء والكحالين ، والمجبرين وغيرهم من أصحاب الحرف التى لها علاقة بصحة الإنسان ، وكان يشترط على القائم بهذه الأعمال شروطاً خاصة ، وكان يعقد لهم اختبارات فمن ثبت كفاءته سمح له بممارسة المهنة وأعطي تصريحاً بذلك من العريف الخاص بمهنته.

وكان المحتسب يهدف إلى المحافظة على سلامة السكان ونظافة المدن والقرى فكان يأمر بإزالة الطين من الأسواق والطرقات إذا كثر ، وإذا تراكمت الأزبال والأتربة ونحوها ، وكان المحتسب يعين من يقوم بتنظيف الشوارع ورشها كل يوم(268) وكان يحذر الأطباء بشكل دائم من إعطاء أدوية لمرضاهم تسبب قطع النسل ، وحثهم على غض البصر أثناء الكشف على عورات مرضاهم وعدم كشف أسرارهم(269) ، وكان ينبه عليهم بعدم إعطاء مرضاهم أدوية لا يستطيعون تناولها أو أدوية مغشوشة تسبب ضرراً للمرضي لأن ذلك يعرضهم لأشد العقوبات(270).

وحفاظاً على صحة الأهالي كان المحتسب يأمر أعوانه بمراقبة الأسواق وحوانيت الأطعمة للكشف على الأطعمة وما يحدث بها من غش أو تلف(271) ، وأمر باعة الأطعمة بتغطية أوانيهم وحفظها من الذباب والهوام بعد غسلها بالماء النظيف(272).

وكان يراقب المخابز ويأمر العجان بارتداء ملابس خاصة تمنع سقوط العرق من تحت إبطيه في العجين ، وأن يشد عصابة بيضاء على جبينه حتى لا يسقط العرق من

جبينه في العجين ، وأن يكون ملثماً لأنه ربما عطس أو تكلم فقطر شيء من بصاقه أو مخاطه في العجين ، وألا يعجن بقدميه أو بركبتيه ، وإذا عجن بالنهار فليكن عنده إنسان في يده مذبه يطرد عنه الذباب(273).

وكان يشترط على أصحاب الأفران أن ترفع سقائفهم وتفتح أبوابها ، ويجعل في سقوف الأفران منافس واسعة يخرج منها الدخان لئلا يتضرر بذلك الناس ، وإذا فرغ الخباز من إحمائه مسح داخل التنور بخرقه نظيفة ثم شرع في الخبز(274).

وكان المحتسب يراقب السقايين ويأمرهم بجلب المياه من داخل البحر حتى يبعد عن موضع الأوساخ(275) ، ويأمرهم بنظافة قربهم وتغطيتها وكيزان الشراب التي اشترط فيها عدم استخدام كيزان المجذوم والأبراص ، وأمر بجلاء الكيزان وتطيبها بالمسك والبخور(276).

ومن مهام المحتسب الصحية إشرافه على الحمامات وتفقدها كل يوم ، وكان يأمر ضامن الحمام بنظافته وكنسه وغسله بالماء الطاهر وبالأشياء الخشنة لئلا يتعلق بها الأوساخ والصابون(277).

وكان يأمر عمال الحمام بأن يكثروا فيه من البخور والروائح الطيبة ويعمل ذلك في اليوم مرتين على الأقل لترتاح الروح ، وأن يكون الحمام مصوناً من الدخان والغبار لأنهما يورثان الهرم والأمراض ، وأن يكون بناؤه محكماً حذراً من دخول الهواء(278)، هذا بجانب منعه دخول المصابين بأمراض معدية الحمامات العامة حتى لا تنتقل العدوى لغيرهم من رواد الحمامات(279).

وكان المحتسب يمنع أصحاب العاهات من بيع الأغذية ، كالمجذوم والأعمى وصاحب القروح ، ويمنعون من استعمال الأماكن العامة(280).

وبعد دراسة الحسبة والمحتسب نجد أن الحسبة نظام رقابي قام بضبط الحياة في المدن والحواضر ، وتناول ذلك الأعمال والأقوال والهيئات والعمران ، وكان الهدف من الحسبة هو المحافظة على حياة الناس وابتغاء مرضاة الله في جميع تصرفاتهم ، وكان يقوم بذلك المحتسب الذي تطورت وظيفته واتسعت مهامه خلال العصرين الأيوبي والمملوكي ، فكان ينظر في أحوال الرعية وكشف أحوال الأسواق ومنع التجار من الغش والاحتكار ، وكذلك مراقبة صانعي الأطعمة من الخبز واللحوم والحلويات ، ومراقبة السقايين ، والإشراف على المساجد ، والتدقيق في اختيار الأئمة والوعاظ والمؤذنين حتى يطمئن على انتشار العلوم الدينية بالطريقة الصحيحة ، كما كان يشرف على الأطباء ويختبرهم ويتابع حالات المرضى بالبيمارستانات ، ويشرف على الحمامات ، بجانب مراقبته للعديد من أمور الحياة الاجتماعية ، فكان يطبق أحكام الشريعة على من يفطر في رمضان ، بجانب اتباع التعليمات الدينية أثناء تشييع الجنازة ومراقبة أماكن اللهو ، ومنع اختلاط الرجال بالنساء ، وغيرها من الأمور ، ولذا كان للمحتسب مكانة مرموقة بين أفراد المجتمع حيث كان له الحق في التدخل في كثير من الأمور ضد الفقهاء ، وكذلك القضاة والأمراء والسلاطين حفاظاً على الحق والعدالة وهكذا كانت الحسبة نظاماً متكاملاً يشرف على شتي مناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية والصحية.

أما عن العقوبات التي كان يفرضها المحتسب فهي كثيرة ، وسوف نتناولها بشيء من التفصيل في مهام أصحاب الشرطة حيث كانوا هم المكلفون بتنفيذ هذه العقوبات.

أصحاب الشرطة:

الشرطة(281) هي وظيفة من وظائف السيف وموضوعها تنفيذ العقوبات ، ولذلك اعتبرت تابعة للوظائف الدينية ، وأطلق عليها خلال العصر الأيوبي اسم الشحنة أو الشحنكية(282) ، وخلال العصر المملوكي أطلق عليها اسم الولاية(283) ، ومن يقوم بها يسمي الوالي أو متولي أو صاحب الشرطة(284).

وكان للشرطة داراً تعرف بدار الشرطة ، ويتخذ رئيس الشرطة أعواناً يساعدونه في أداء مهامه وواجباته ، وغالباً ما كان يتعين في منصب رئيس الشرطة خلال العصر المملوكي أفراد من المماليك أو الأتراك ، وكان تنظيم الشرطة يتم من خلال تولية رئيس للشرطة بالمدن الكبرى ويعاونه مساعدوه في الإشراف على القرى.

أما عن مساعدي صاحب الشرطة فمنهم الأعوان ، الخفراء والعسس ، والسجانون ، والمشاعلية الذين كانوا يكلفون بقطع الرقاب ، وسموا بهذا الاسم لأنهم كانوا يسيرون في المواكب وهم يحملون المشاعل ، وهذه الوظائف تدل على أنهم كانوا درجات ، وكان لكل منهم خصائص ومهمات مختلفة تتعلق بأعمال الشرطة ، حيث لم تعد الشرطة أداة تنفيذ الأحكام فقط ، وإنما لحفظ الأمن ليلاً ونهاراً(285).

وعن مهام أصحاب الشرطة:

- كانوا يساعدون الولاة في مهامهم بجانب مساعدة القضاة فى تنفيذ أحكامهم ، هذا بجانب تنفيذ العقوبات التي كانت تفرض على المخالفين والمذنبين من قبل القاضي والمحتسب.
- كانوا يحافظون على الأمن الداخلي بمنع وقوع الجرائم ، والقبض على الجناة ، وإقامة الحدود عليهم ، وتنفيذ عقوبات السجن ، وغيرها(286).
- ومن مهامهم إطفاء الحرائق ، وهدم المنازل الآيلة للسقوط ، وحراسة أبواب المدن خلال غلقها ليلاً ، وعدم السماح للغرباء بدخولها إلا بمعرفتهم(287).
- وكانوا يقومون بتنظيم المواكب السلطانية والإشراف عليها خشية وقوع اضطرابات نتيجة تزاحم الناس.(288)
- ومن مهامهم نشر الفضيلة ، والمحافظة على الأخلاق العامة ، ومنع الفساد.(289)
- وكانوا يساعدون في تحصيل الجزية والخراج وإصدار الدنانير.(290)
- الإشراف على السجون ، ومراقبة أسوار المدن.
- كانوا يتولون عملية إنقاذ الناس أثناء حدوث بعض الكوارث التى تحل بهم.

هذا وكان للشرطة زي خاص يميزهم عن العامة ، وكذلك أسلحة خاصة شملت الحربة والطبرزين ـ وهى عبارة عن سكين طويلة أو بلطة يعلقها الشرطي في وسطه ـ والسوط وكان يصنع من الجلد ويستخدم في ضرب المجرمين.(291)

أما عن العقوبات التى كان ينفذها أصحاب الشرطة فهي عقوبات عديدة كان يفرضها القضاة والمحتسبون ، وكذلك عقوبات يفرضها السلاطين **وتتمثل في الآتي:**

- تتمثل العقوبات في عقوبات نص عليها الشرع من رجم وقطع يد أو رجل وغيرها.
- أما العقوبات التي ظهرت على يد المماليك فهي عقوبات قاسية تدل على طبيعتهم منها: **التنصيف أو التوسيط:** وهو ضرب المذنب بالسيف تحت سرته ضربة قوية تقسمه إلى نصفين وتنهار أمعاؤه إلى الأرض(292) ، ومثال لذلك ما حدث للأمير صلاح الدين بن

عرام الذي تولى منصب نائب السلطنة بالإسكندرية أكثر من مرة خلال العصر المملوكي ، حيث حكم عليه بالتشهير والموت موسطاً بعد اتهامه بالتحريض على قتل الأمير بركة قسيم الأمير برقوق ، وذلك سنة 782هـ/1380م(293).

التسعيط: وهو إسقاء المذنب ماء بالجير والملح والخل من أنفه(294).

التخزيق: وهو أن يعلق المذنب في حبل ببكرة أعلي صاري ، ثم يشد الحبل فيرتفع المذنب ، ثم يرخي الحبل فيقع المذنب على أحد الخوازيق التي دقت ، فيخرج ذلك الخازوق من جسده أينما أصابه ، ومثال لذلك ما حدث لوالي الفسطاط خلال عهد الناصر محمد بن قلاوون(295).

التسمير: والمقصود بها دق بعض أعضاء المذنب في لوح من خشب بواسطة مسامير غليظة ، وأحيانا يوضع بهذه الصورة على ظهر جمل ليشهر بالمنطقة التي يعيش فيها ، فإذا حصلت له شفاعة نزعوا المسامير من جسده(296) ، أما إذا لم تحدث له شفاعة فينتهي أمره غالبا بأن يوسط(297).

العصر بالمعصرة: وهي آلة تتكون من خشبتين مربوطتين ببعضهما بحبل ، ويوضع بينهما أجزاء من جسم الإنسان المحكوم عليه ، ثم تشد الخشبتان شداً وثيقاً مما يؤدي في كثير من الأحيان إلى كسر عظام الأجزاء المعصورة بين الخشبتين(298) ، وقد استخدمت هذه الوسيلة غالباً لإجبار المذنب على الاعتراف بجريمته(299) ، أو يعصر الشخص المذنب إلى أن يموت(300).

التغريق: وهو أن يوثق المذنب مع حجرين ثقيلين ثم يلقي به في الماء فيغرق(301).

التشهير والتجريس: وهو أن يطاف بالشخص على حمار أو ثور ، ويضرب الجرس على رأسه والمشاعلية تنادي عليه ليتجمع الناس حوله ، وأحيانا تزفه المغاني "ويوضع في عنقه ماشه وهون" ، وفي نهاية المطاف يضرب وسط الناس بالسياط عقاباً له على ذنبه(302).

المقترح: وهي عقوبة عبارة عن ضرب المذنب على لوح كتفه وهو واقف ، فإذا مال المذنب إلى الأمام ضرب على صدره ، واستحدث هذا النوع من العقوبة خلال عهد الناصر محمد بن قلاوون(303).

الضرب: استخدم الضرب بالمقارع في عقاب بعض المذنبين ، ويكون الضرب على أي جزء من أجزاء الجسم بعد تعرية المذنب من ملابسه سواء الرأس أو الجسد أو القدمين وتستعمل فيه المقرعة أو العصا أو الدرة أو الضفيرة الخوص(304) ، وبلغ من قسوة هذا الضرب أحيانا ما سبب آلاماً مبرحة للمذنب ، ولشدة قسوة الضرب بالمقارع أبطلها الناصر محمد بن قلاوون سنة 726هـ/1325م ، وكتب بذلك مراسيم كثيرة قرأت على المنابر بمصر والشام(305).

القتل: وكان ينفذ بالعديد من الطرق منها جز الرأس ووضعها فوق رمح ويشهر بها في المدينة ، أو القتل بالنمجاة ، وكان المحكوم عليه بالقتل يوضع على عينيه عصابة قبل تنفيذ الحكم(306).

وكان الضرب مهما بلغت قسوته ووحشيته أخف كثيراً من أنواع العقاب الأخرى التي استخدمها المماليك مثل قلع أضراس المذنب وأسنانه ، ثم دقها في رأسه(307) ، أو تسخين دست من النحاس وإجلاس المعاقب عليه ، أو تسخين طاسة من المعدن وتلبيسها

في رأسه(308) ، ومنها أيضا قطع بعض أجزاء من الجسد للمذنب كجذع الأنف ، أو سمل الأذن ، أو قطع اللسان ، أو إخراج العينين أو تكحيلها بالنار(309).

ومن أنواع العقوبات أيضاً نعل الشخص في قدميه كما تنعل الخيل ، أو تعليقه من يديه وربط أثقال في قدميه حتى تنخلع أعضاؤه(310) ، أو يضرب الوتد في الأذن ، ووضع الأصابع في زيت مغلي ، ودق القصب تحت الأظافر(311).

الإعدام: إذا حكم بالإعدام على أحد الأشخاص سلم للمشاعلي لتنفيذ الحكم فيه بواسطة السيف ، والواقع أن عملية تنفيذ عقوبة الإعدام انطوت على كثيراً من العنف والقسوة خلال عصر المماليك ، فكثيرا ما أخطأ المشاعلي عنق المحكوم عليه بالإعدام في أول ضربة ، فيضربه بالسيف أكثر من مرة حتى يصيب عنقه ، فإذا لم ينفصل الرأس عن الجسد لجأ المشاعلي على حز الرقبة عدة مرات حتى ينجز مهمته ، ثم يطوف المشاعلي بعد ذلك بالرأس المقطوعة في أنحاء المدينة حتى يراها كافة الناس للعظة والاعتبار(312).

وكان عندهم الإعدام شنقاً ، فعلي سبيل المثال الحكم الذي صدر سنة 647هـ/1249م حينما فر قادة الجيش الأيوبي المكلفون بالدفاع عن دمياط ضد الحملة الصليبية السابعة ، فصدر في حقهم أحكام القاضي بالشنق ، ونفذ في جميع قادة المعركة(313) ، وكذلك الحكم الذي صدر ضد السلطان طومان باي بالإعدام شنقاً سنة 923هـ/1517م(314).

الترسيم: وهي تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه ، أي إحداث إعاقة له ، وهي من العقوبات طويلة الأمد(315).

السجون: كانت السجون أشبه بجهنم ، تجمع الكثير من المسجونين في موضع ضيق ، وكانت السجون على أنواع ، منها ما هو خاص بالأمراء والمماليك والجند مثل خزانة اليتود ومنها ما هو خاص بأرباب الجرائم من اللصوص وقطاع الطرق ونحوهم مثل خزانة شمايل ، وما هو خاص بالنساء المذنبات مثل سجن الحجزة ، إلى جانب الجب والمقشرة ، والعرفانة.

وقد بلغت هذه السجون درجة مخيفة من الحطة والقذارة وسوء المعاملة حتى أن الإعدام كان في كثير من الأحوال أهون من عقوبة السجن(316).

وفي السجون لقي المساجين معاملة سيئة ولم يطعموا عدة أيام خاصة خلال عهد الجراكسة ، ولم يكن للمساجين جراية ثابتة ، بل كانوا يعيشون على ما يتصدق به الناس أو السلطان عليهم ، حيث كان يصنع لهم خبزاً ، وما يصادر من أغذية مغشوشة(317) ، وكان المسجونون يستعملون في الحفر وفي العمائر ونحو ذلك من أعمال السخرة الشاقة(318) ، وكانوا يعملون وهم في الحديد ، فإذا انقضي عملهم ردوا إلى السجن في حديدهم ، وكانت هذه السجون مهولة الأحوال من شدة الظلام وكثرة الوطاويط والروائح الكريهة والقبائح المهولة(319) ، ويسمع من السجون صراخ المسجونين وشكواهم من الجوع والعري والأمراض ، وكان المسجونون يقاسون ما هو كالموت أو اشد منه(320) ، وقد وصف المقريزي هذه السجون بقوله **"وأما الحبس الذي هو الآن** زمن المقريزي **فإنه لا يجوز عند أحد من المسلمين ، وذلك لأنه يجمع الجمع الكثير في موضع يضيق عنهم.."** (321).

وإلى جانب السجون السابقة وجدت عدة سجون أخرى منها: الزردخاناه وهي سجن خاص يشرف عليه أمير جاندار ، وتعد أرفع قدراً من الاعتقال من السجن المطلق ، ولا تطول مدة المعتقل بها فإما أن يطلق سراحه منها ، وإما أن يقتل(322).

قصر الحجازية يعد خرابة ، اشتراه الأمير قوصون وجعله عشرة أفدنه ، ولما توفي اشترته خون تتر الحجازية ابنة الناصر محمد بن قلاوون ، وبعد وفاتها أجر الأمراء هذا القصر رغم أنه وقف ، وفي عهد الناصر فرج بن برقوق حوله لسجن أرباب الدولة المغضوب عليهم ، وظل من بعده على ذلك(323).

الجب بالقلعة: وكان قذراً عميقا بدليل نزول المساجين إليه عن طريق وضعهم في قفه ، ثم تدلي لأسفل ، وممن سجن فيه الشيعة المعتقلون بالقاهرة سنة 569هـ/1173م ، ويذكر أبو شامة أنه شاهد الأمير أبو الفتوح بن الخليفة العاضد الفاطمي ، وبعض الشيعة الآخرين وهم معتقلون في سجن القلعة(324) ، ومباشر الشام ومتولي بريد دمشق ، وكاتب سر دمشق ، ونائب دمشق سنة 695هـ/1295م(325).

سجن الإسكندرية: وكان كبيرا احتز عليه السلاطين لئلا يهرب الأمراء منه ، لذلك سجن به العديد من الأمراء من المماليك ، وأثناء الفتنة التي حدثت بالإسكندرية سنة 727هـ/1326م خاف السلطان من فتح هذا السجن ، وأمر بإرسال من به من أمراء إلي والي القاهرة(325) ، وإذا زاد عدد المحبوسين به كان السلطان يوزعهم على قلاع الشام ، وهذا ما فعله السلطان جقمق سنة 843هـ/1439م ، وممن سجن بالإسكندرية الكثير ، ففي سنة 709هـ/1309م سجن به واحد وعشرون أميراً ، وفي سنة 720هـ/1320م سجن به نائب غزة علاء الدين الجولي ، ونائب طرابلس سنة 740هـ/1339م ، وفي سنة 806هـ سجن به الأتابك صرغتمش ، وفي سنة 808هـ/1405م سجن به الأستادار يلبغا السالمي ، وفي سنة 841هـ/1437م سجن به العديد من الأمراء(326).

النفي: يلي عقوبة السجن عقوبة النفي وهذه العقوبة وقعت على الكثير ، ولم يكن النفي مقصوراً على بلد ، بل كثير من البلاد منها: قلعة الصبية ، والمدينة المشرفة ، ومكة ، والقدس ، والكرك ، وسواكن ، وطرسوس ، والشوبك ، صفد ، وقلعة المرقب ودمشق ، وقوص.

المصادر والمراجع

- **ابن الأثير(عز الدين علي)ت630 هـ.**

1- الكامل في التاريخ 12جزء بيروت 1398هـ/1987م.

- **ابن الأخوة(محمد بن أحمد الموتي)ت 729هـ.**

2- معالم القربة في أحكام الحسبة،القاهرة 1937.

- **ابن إياس(أبو البركات محمد بن أحمد) ت 930هـ.**

3- بدائع الزهور في وقائع الدهور.ط2 – تحقيق محمد مصطفي زيادة،الهيئة العامة المصرية،القاهرة 1982م.

- **ابن بسام(عبد الرحمان بن نصر)ت 589هـ.**

4- نهاية الرتبة في طلب الحسبة،نشر حسام الدين السمراني،بغداد 1968م.

- **ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد البلنسي)ت 614هـ.**

5- تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار،المعروف برحلة ابن جبير،دار الكتاب المصري واللبناني

- **ابن الحاج:(أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي) ت 837هـ.**

6- المدخل إلي الشرع الشريف،4 أجزاء،القاهرة،1029م.

- **ابن خلدون(عبد الله بن محمد بن جابر بن خلدون المغربي) ت 808هـ.**

7- العبر وديوان المبتدأ والخبر،المعروف بتاريخ ابن خلدون،مؤسسة جمال للطباعة والنشر،بيروت 1969م.

- **ابن شاهين الظاهري(غرس الدين خليل) ت 871هـ.**

8- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك،صححه بولس راويس،باريس 1894م.

- **ابن شداد(بهاء الدين أبي المحاسن يوسف بن رافع بن تميمة) ت632 هـ.**

9- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية المعروف بسرة صلاح الدين،تحقيق جمال الدين الشيال،اللجنة المصرية للتأليف القاهرة 1964م.

- **ابن عبد الظاهر(محي الدين عبد الله) ت 692هـ.**

10- تشريف الأيام والعصور بسرة الملك المنصور قلاوون،تحقيق ونشر مراد كامل،القاهرة 1961م.

- **ابن العميد(جرجس بن العميد أبو المكارم بن الطيب النصراني) ت 602هـ.**

11- أخبار الأيوبيين،نشر كلود كاهن،القاهرة 1966م.

- **ابن فضل الله العمري(شهاب الدين بن فضل الله) ت 749هـ.**

12- التعريف بالمصطلح الشريف،القاهرة،1312هـ.

13- مسالك الأبصال في ممالك الأمصار،تحقيق أحمد زكي،طبعة دار الكتب المصرية،القاهرة 1924م.

- **ابن واصل(جمال الدين محمد بن سالم بن واصل) ت 697هـ.**

14- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب،جـ3،جـ4،جـ5،تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور،حسنين محمد ربيع،مطبعة دار الكتب المصرية،القاهرة ،1972م.

- **أبو شامة(شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي) ت 665هـ.**

15- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية،تحقيق الدكتور محمد حلمي أحمد،القاهرة 1962م.

- **أبو المحاسن(جمال الدين يوسف بن تغري بردي) ت 874 هـ.**

16- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،دار الكتب المصرية،القاهرة 1930م.

- **إبراهيم على طرخان.**

17- النظم الاقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطي،دار الكتاب العربي،القاهرة 1968.

18- مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة،القاهرة،1959م.

- **أحمد أحمد بدوي.**

19- الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام،دار نهضة مصر للطبع والنشر،القاهرة،1972م.

- **أحمد محمود عنوان.**

20- العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي،الرياض،1985م.

- **البيومي إسماعيل.**

21- النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك،سلسلة تاريخ المصريين رقم 118 الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة،1998م.

- **حسنين محمد ربيع.**

22- النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين،دار النهضة العربية،القاهرة،1990م.

- **سعاد ماهر.**

23- البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية،دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة.

24- النسيج الإسلامي،مطابع دار الشعب،القاهرة 1977م.

25- العمارة الإسلامية على مر العصور،دار البيان العربي،جده 1405هـ.

- **سعيد عبد الفتاح عاشور.**

26- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك،دار النهضة العربية القاهرة،1962م.

27- الأيوبيين والمماليك في مصر والشام،دار النهضة العربية،القاهرة ،1988م.

28- مصر في عصر دولة المماليك البحرية،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة،1959م.

29- مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك،القاهرة1985 م.

- **سهام مصطفي أبو زيد.**

30- الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلي نهاية العصر المملوكي،الهيئة العامة للكتاب،القاهرة،1986م.

- **سوسن محمد نصر.**

31- دراسة في التاريخ الأيوبي والمملوكي،القاهرة 1987م.

- **السيد الباز العريني.**

32- مصر في عصر الأيوبيين،القاهرة،مطبعة الكيلاني.

- **السيد طه أبو سديره.**

33- الحرف والصناعات في مصر الإسلامية،الهيئة العامة للكتاب،القاهرة1990 م.

- **شفيق جاسر أحمد محمود.**

34- دولة المماليك البحرية نشأتها وفضلها في القضاء على الصليبيين،مجلة الدارة،العدد الرابع الرياض،1411م.

- **عاصم محمد رزق عبد الرحمن.**

35- مراكز الصناعات في مصر الإسلامية من الفتح العربي حتى مجيء الحملة الفرنسية،الهيئة المصرية العامة للكتاب،الألف كتاب الثاني،رقم 68 القاهرة 1989م.

- **عبد العزيز محمود عبد الدايم.**

36- مصر في عصري المماليك والعثمانيين،كلية الآثار،جامعة القاهرة،1994.

- **عبد الغني محمود عبد العاطي.**

37- التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك،القاهرة،دار المعارف 1984\م.

- **عبد المنعم ماجد.**

38- تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطي،ط3،مكتبة الأنجلو المصرية،القاهرة 1973م.

39- نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر،مكتبة الأنجلو،ط2،القاهرة،1989م.

- **على إبراهيم حسن.**

40- تاريخ المماليك البحرية،مكتبة النهضة المصرية،ط3،القاهرة،1967م.

- **قاسم عبده قاسم.**

41- دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي في عصر السلاطين المماليك،دار المعارف القاهرة،1986م.

- **محسن محمد حسين.**

42- الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة.

- **محمد حمدي المناوي.**

43- الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ،دار المعارف،القاهرة،1968م.

- **محمد عبد العزيز مرزوق.**

44- الفن الإسلامي في العصر الأيوبي،المكتبة الثقافية،القاهرة 1963م.

- **محمد فتحي الشاعر.**

45- الحضارة العربية والإسلامية في العصور الوسطي،دار المعارف،القاهرة،1992م.

- **محمد محمد أمين.**

46- الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر(648-923هـ/1250-1517م) دراسة تاريخية وثقافية،دار النهضة العربية القاهرة،1980م.

- **نبيل محمد عبد العزيز.**

47- الطرب وآلاته في عصر الأيوبيين والمماليك،ط1،مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة،1980م.

- **نظير حسان سعداوي.**

48- التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة 1957م.

49- نظام البريد في الدولة الإسلامية،دار مصر للطباعة،القاهرة 1953م.

- **نعيم زكي فهمي.**

50- طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب،أواخر العصور الوسطي،الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة،1973م.

- **هايد.**

51- تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطي،4 أجزاء مراجعة وتقديم عز الدين فوده،الهيئة العامة للكتاب،القاهرة.

- **سهام المهدي سليم.**
52- دار الضرب بالإسكندرية ونقودها من الفتح العربي وحتى نهاية القرن الخمس عشر الميلادي،رسالة ماجستير،كلية الآثار جامعة القاهرة 1985م.
- **لطفي أحمد سيد نصار.**
53- وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر،رسالة ماجستير،كلية الآداب جامعة عين شمس،1987م.
- **آمال أحمد العمري.**
54- المنشآت التجارية في القاهرة في العصر المملوكي،رسالة دكتوراه كلية الآداب جامعة القاهرة،1974م.
- **جابر سلامة المصري.**
55- الزراعة في مصر في عهد الأيوبيين والمماليك،رسالة ماجستير كلية الآداب جامعة القاهرة 1974م.

موقعة حطين

الحملة الصليبية الخامسة

الحملة الصليبية السابعة

دولة المماليك فى أقصى اتساعها

حملات جقمق على رودس

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
2003/11794